وقال عز من قائل : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون ﴾[١] .

وقال عز من قائل : ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون ﴾[٢] .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾[٣] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[٤] .

وقال عظمت حكمته : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون ﴾[٥]

وقوله تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ ب١جزاء ماكذبوا وخدعوا وضلوا وأضلوا ﴿ إنهم كانوا لايرجون حسابا وكذبوا بآيتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[٦] .

﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ أى ساقطة سقطت سقوفها وعروشها ، كما أن جدرانها قد هوت على سقوفها أمست خرابا وأفنى الموت أهليها ، أصبحت تنعق فوقها البوم والغربان بسبب ظلمهم وطغيانهم ، فالظلم لايدوم وإذا دام دمر ، والحرام لايدوم وإذا دام لاينفع ، إن فى ذلك لآية وعبرة لقوم يعلمون ، أما الغافلون فهم كالأنعام بل هم أضل لايهتدون سبيلا ولا يعرفون للحق طريقا .

﴿ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

قال تعالى : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾[٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٨]

ثم كانت نهاية المطاف أن وقف نبى الله صالح وقال : ﴿ ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين ﴾[٩] .

---

(١) سورة القصص الآية رقم آ ٩
(٢) سورة القصص الآية رقم آ ١١
(٣) سورة الزخرف الآيتان رقم ٧٩/ ٨٠
(٤) سورة الأنفال الآية رقم ٣٠
(٥) سورة الأعراف الآيتان ٩٤/ ٩٥
(٦) سورة النبأ الآيات ٢٧ ـ ٣٠
(٧) سورة يونس آية ١٠٣
(٨) سورة فصلت الآيتان ١٧ ، ١٨
(٩) سورة الأعراف الآية رقم ٧٩

لوط عليه السلام وقومه

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

معانى المفردات

الفاحشة : الفعلة القبيحة المنكرة ، والمراد بها إتيان الذكور فى أدبارهم . قدرناها : قضينا أنها من الغابرين ، أى الهالكين فى العذاب . يتطهرون : أى:ينزهون أنفسهم ، ويتباعدون مما نفعله ويزعمون أنه من القاذورات

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه ﴾ أى:ولقد أرسلنا لوطا إلى قومه ـ أهل سدوم ـ فقال لهم مؤنبا وداعيا :

﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ ؟ أنكر عليهم إتيان الفعلة المتناهية فى الفحش ، حتى كأنها المعروفة به وحدها ، ومن العجيب أنهم يأتونها وهم يبصرون ، ويعلمون أنها فاحشة وماكانوا يستترون حين فعلها ، بل يبصرون وينظرون بعضهم لبعض عتوا وتمردا ، واستكبارا فى الأرض وفسادا .

أئنكم لتأتون الرجال فى أدبارها ؟ متجاوزين النساء وهن محل ذلك العمل وخلقن من أجله ، تأتون ذلك الفعل المنكر للشهوة فقط لا لشىء آخر ، وهذا تفسير للفاحشة التى ذكرت أولا ، بل أنتم قوم تجهلون حقيقة ماخلقت المرأة له وتجهلون أنفسكم ومكانكم فى المجتمع الإنسانى ، وتجهلون خطر ما أقدمتم عليه ومقدار دعوة نبيكم الذى أرسل رحمة لكم ، فما كان جواب قومه على هذا إلا أن قالوا :

أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون !! ياللعجب يأمرون بإخراج لوط ومن آمن به من القرية ، لأنهم أناس يتطهرون !! ياللعجب العاجب . من الناس من ينقمون على إخوانهم ، لأنهم آمنوا بربهم . ودعوا غيرهم إلى الدين الحق .

ولكن هل يغفل الحق-تبارك وتعالى-أمر هؤلاء وهؤلاء ؟ لا . أبدا . . لن يكون ذلك ، فهذا لوط مع قومه العتاة العصاة المتجبرين ، قد نجاه الله وأهله والذين آمنوا معه إلا امرأته ، فقد قضى عليها أن

تكون من الهالكين ولم ينفعها قربها من لوط مادامت تستحق الهلاك لكفرها ، وأمطر الله على العصاة المتكبرين مطر السوء ، وأبادهم وخسف بهم الأرض ، فساء وقبح مطر المنذرين ، وتلك عاقبة العصاة الفاسقين .

* الإيدز عقاب الله *

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ السيد جويل بحثا عن الشذوذ الجنسى قال : منذ صيف عام ١٩٨١ وقد اكتشف مركز مقاومة الأمراض بولاية جورچيا الأمريكية المرض توالت أقلام الكتاب والباحثين الكتابة عنه دون إصدار كتاب باللغة العربية .

ولم يرفع النقاب عنه فى مصر ، إلا حينما دق ناقوس الخطر ، مما دفع إحدى المجلات المصرية أن تفاوض مسئولا كبيرا حول مخاوفها من انتشاره مع أحد المصريين أثناء اغترابه فى عملية نقل دم له بمستشفيات الغرب ، وأصبحت البلاد الإسلامية على خطر داهم ، إما من المنحرفين والعصاة الآتيين إليها من ملاهى أمريكا وأوروبا وأماكنها المشبوهة ، أو فى استيراد الدماء والمستحضرات الدموية من تلك البلاد الموبوءة ، ولاسيما أمريكا ، فرغم أنها تحذر وتتأكد من خلوهامن الإيدز فمن يضمن لنا إجابة هذا السؤال المطروح ؟ هل ستلتزم بهذه القواعد الصارمة عندما يتعلق الأمر بالبلاد الإسلامية وبمصالحها الإسلامية ؟ !

خاصة . . بعد أن أصبحت أنباء الإيدز تحتل الصفحات الأولى من الصحف وأغلفة المجلات العالمية ، وأصبحت تفرد له برامج تليفزيونية وإذاعية بل وصل الأمر إلى تكوين جماعات مهمتها الإنذار والتحذير من العدوى وأخرى لمساعدة المرضى بعد أن أصبح المريض منبوذا :

- فصاحب السكن والعمل يطرده .
- وتتبرأ منه عائلته وأصدقاؤه .
- وترفض الممرضات فى المستشفيات استقباله . حتى أن أحد متعهدى دفن الموتى قد رفض دفن جثة أحد الهالكين بالمرض وصدق أحد الباحثين فى قوله :

« أصبح الناس يفرون من مرض الإيدز كما كانوا يفعلون فى القرون الوسطى مع مرض الطاعون »

حتى وصل الأمر بأن بعض رجال الشرطة والعاملين فى الخدمات العامة قد امتنعوا عن التعامل مع الأشخاص المصابين . . مما دفع المجلس البلدى للمدينة إلى اصدار قرار يعاقب من يميز بين هؤلاء المرضى وبقية السكان .

ومما زاد الرعب فى العالم ارتباط المرض باسم الممثل العالمى روك هدسون المشهور ، والذى عاقبه الله لشذوذه الجنسى - واجترائه على الفطرة بأن داهمه المرض ، ففر عنه معجبوه ، وأصبح آية لعالم الشواذ ، ودليلا لعقاب الله للمجتمعات البشرية الضالة . ويخدعون الشباب اليوم بالمغنى مايكل جاكسون المخنث ، وهو أحد المصابين بهذا المرض الذين ينتظرون الموت والهلاك كذلك .

ثم قال :

ماأصدق ماقاله الصادق المصدوق حين أخبر أن الفاحشة إذا ظهرت فى قوم ابتلاهم الله بالأوجاع والأمراض ، روى ابن ماجه قوله ﷺ : (ولم تظهر الفاحشة فى قوم قط يعمل بها علانية إلا فشا فيها الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم) .

وهذا مجتمع أمريكا وقد انتشر فيه الشواذ جنسيا ، وأصبحت لهم نواد علنية يمارسون فيها الشذوذ وطغت فيهم الفاحشة فى أحط صورها ، فأصابهم الله بمرض يحكم على صاحبه بالإعدام ، فمنذ أن اكتشف فيروس المرض فى عام ١٩٨١ بولاية جورجيا الأمريكية وتستقبل المستشفيات الشباب الذين تتراوح أعمارهم مابين ٢٠ ، ٣٠ سنة ، وهم أقرب إلى الأشباح مما أصابهم من شحوب وهزال . . وأصبح المجتمع الأمريكى يصبح ويمسى فى رعب من اللعنة القادمة والهلاك المدمر ، حتى أنه قد انتشرت لافتات التحذير من عدوى الإيدز فى كل مكان على الفنادق ودورات المياه العامة وغيرها .

وقد أعلنت وزارة الصحة الأمريكية فى تقرير لها توقعاتها بظهور مايقرب من ٣٥٠ ألف حالة إيدز سنويا فى أرجاء أمريكا ، وماتم رصده منذ خمس سنوات حوالى ١٢ ألف حالة توفى نصفهم ، وحاليا فى نيويورك وحدها يوجد مليون مصاب ٩٣ ٪ منهم من الرجال كلهم معرضون للموت المحقق . وفى الوقت الذى يعلن فيه ريجان فلسفة ردع الاعتداء بالقوة ، فإنه أمام خطر الإيدز تقف حكومته مشلولة أمام عقاب الله لهم بمرض اللاشفاء أو قل مرض الموت والهلاك ، ولذا فقد أعلن شيلى لينجل رئيس الشئون الصحية بأمريكا أن الحكومة أنفقت ١١٠ ملايين دولار هذا العام على الأبحاث الخاصة به فى حين أنها خصصت ١٢٦ مليونا أخرى للعام القادم ولم تصل الأبحاث بعد إلى مصل واحد من المرض ، ويحذر الدكتور روبرت جالو وهو أحد مكتشفى فيروس الإيدز من أن عدد المصابين بالإيدز سوف يتزايد ويصيب نوعيات مختلفة وجديدة فى المجتمع الأمريكى . هذا فى الوقت الذى يتكلف فيه مريض الإيدز مابين ٥٠ ألفا ، ١٥٠ ألف دولار لعلاجه دون احتمال لشفائه حتى الآن ، بل أن أحد مشاهير الأطباء ممن يعملون فى مجال الإيدز قد أعلن :

« إن من يعملون فى المعركة مع الإيدز أشبه بغريق فى خضم الأمواج يبحث عن قشة يتعلق بها لينجو »

وذلك لأن الاصابة بالمرض تبقى خافية فى دور الحضانة فترة من الزمن قد تمتد إلى خمس سنوات أو أكثر ثم لايلبث أن يلقى حتفه بعد ثلاث سنين من ظهور الأعراض .

ويرى البروفيسور غالو : وهو من أبرز الباحثين المهتمين بهذا المرض أن ٩٨ ٪ من الحاملين لهذا المرض لايزالون غير مكتشفين وغير معروفين .

ـ وزحف هذا المرض فى غير المجتمع الأمريكى إلى مجتمعات الشذوذ والفاحشة ، فتظهر فى فرنسا ٣٠٠ حالة حتى أبريل الماضى وتزداد فى سويسرا مما دفع الحكومة إلى تخصيص مبلغ ٨ ملايين دولار لمنع زحفه وانتشاره .

وفى ظل هذه الحقائق تنبهت مجتمعات الغرب إلى ماهى فيه من انحطاط وترد ، فبدأت عمليات فرز الشواذ والابتعاد عنهم ونبذهم ، وخلت شوارع أوروبا والبرازيل من الشواذ والمنحرفات ، وهجر

الأمريكيون المطاعم التى يشتهر عن جرسوناتها ممارسة الشذوذ ، وقد أصبحت مواطن الشذوذ من مقاه وملاه خالية من زبائنها ، واجتاح الذعر قلوب الشواذ لدرجة أنهم قاموا بمظاهرات لمطالبة الحكومة الأمريكية بحمايتهم من هذا الوباء القاتل . المدمر . . الفتاك ، الذى يفتك بالخلايا الدموية البيضاء ، وهى العنصر الذى لايمكن الاستغناء عنه فى جهاز المناعة بالجسم البشرى ، ويفتك كذلك بخلايا المخ والجهاز العصبى إلى حد قد يصل إلى تدميرها على أنه يصيب خلايا العين .

وهناك حقيقة كبرى لايراها غير المتأمل البصير ، وهى أنه لا تطغى الشهوة فى مجتمع ، إلا إذا تخلى عن الإيمان ونحى دين الله بعيدا عن الحياة ، فحينما تخلى قديما قوم لوط عن منهج الله طغت فيهم الشهوة فى أحط صورها . . فكان عقاب الله لهم بأن جعل عالى القرية سافلها .

ولم يكن ذلك عقابا وانتهى ليتعظ الناس . . وتتناقله القصص والروايات . . وإنما كان عقابا ممتدا ودرسا مستمرا مكرورا :

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[1] .

وما يحدث اليوم فى مجتمعات الأرض الكافرة التى شردت عن المنهج من عقاب لأفصح بيان لهذه الحقيقة .

وقد رأينا طرفا مما تتكلفه هذه المجتمعات الضالة فى جاهليتها الحديثة من جراء معصيتها ونكوصها عن الطريق السوى وتنكبها منهج الله الذى فيه الصلاح والطهارة والنقاء .

ثم قال : إن اللواط والسحاق والممارسات الجماعية للجنس والزواج التجريبى أو الحب السابق للزواج ونوادى العراة وعلب الليل والأفلام الماجنة والصور الخليعة . . كل هذه وغيرها باتت السمة المميزة للمجتمعات البشرية فى شتى أنحاء الأرض .

هذه الثورة الجنسية المحمومة ، التى اندلعت فى تلك المجتمعات ، كانت نتيجة متوقعة منذ اللحظة الأولى ، التى بدأ فيها الفكر المادى يجتاح الوجود الإنسانى . . منذ اللحظة التى قطع الناس فيها صلتهم بالسماء ، وأنكروا وجود ضوابط أخلاقية لحياتهم وعقوبات ربانية لتصرفاتهم .

منذ تلك اللحظة غدا الإنسان حيوانا ، يعيش بغرائزه ولها ، ويحيا لنزواته وبها ، فصارت الشهوات أكبر همه ، وأصبحت الدنيا مبلغ علمه ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[2]

وإذا كان الله ـ تعالى ـ قد دمر من قديم قوم لوط ، بأن جعل عالى القرية سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل يتلو بعضها بعضا ، لانحرافهم عن منهج الله ، وشذوذهم عن الفطرة ، فيجب على الناس أن يتيقنوا أن أمثال هذا العقاب الإلهى ليس ببعيد عنهم ، إن هم ساروا على نهج قوم لوط أو غيرهم ، ممن أداروا ظهورهم لدعاة الحق ﴿ وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾[3]

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٤
(٢) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٩
(٣) سورة الجاثية ٢٤

وإن أراد الناس دليلا ماديا على صدق ما نقول ، فهاكم تلك الظاهرة المرضية العجيبة الغريبة ، التى بدأت تنشر الفزع فى أوساط الممارسين للشذوذ الجنسى فى المجتمعات الغربية ، والتى اصطلح على تسميتها (إيدز) وهى اختصار لمجموعة من الكلمات معناها : ظهور عوارض نقص المناعة .

ولقد أعلنت منظمة الصحة العالمية أثناء اجتماعها فى الدانمارك ، أن هذا المرض قد هاجم الدول الأوروبية بدرجة كبيرة ، ففى بريطانيا يوجد ٢٤ مصابا وفى فرنسا ٩٤ مصابا ، وفى ألمانيا الغربية ٤٢ مصابا ، وفى بلجيكا ٣٨ مصابا ، وفى سويسرا يوجد ١٧ مصابا .

والمعروف أن هذا المرض يبدأ بالأعضاء التناسلية ، ثم يشمل بقية الجسم ويتسبب فى الوفاة وحتى الآن لايعرف الأطباء السبب الكامن وراء الإصابة به ، كما أنهم لايعرفون له علاجا وإن كان معظم المصابين به من الشواذ جنسيا .

ثم يمضى كاتب هذا البحث فيقول : ولقد كتب الأستاذ أنيس منصور فى عموده المعروف (مواقف) فى أهرام ٨/ ١٠/ ١٩٨٣ مايلى :

(ليست الحروب الجديدة هى التى أفزعت أمريكا وأوروبا أخيرا ، فقد اعتاد العالم على الحروب . ففى العالم الآن ٤٣ حربا بين الدول المتجاورة ، وإنما هو ظهور مرض جديد يسمى (إيدز) وهى حروف أولى لكلمات معناها : ظهور أعراض نقص المناعة . ويكون ذلك على شكل دمامل وأورام وفقر دم حاد ، وتتلاشى الكريات البيضاء فى الدم ، الكريات التى تساعد على المقاومة ، والكريات التى توقف المقاومة عند حد معين .

أما المرض المفاجىء فيجىء عن طريق الشذوذ الجنسى عند الرجال والنساء أو للإسراف فى الجنس ، وقد يصيب الأطفال فى بطون أمهاتهم وعن طريق الاختلاط بكل أبناء جزر تاهيتى الموجودين فى أمريكا .

أما ضحايا هذا المرض فهم ٧٥ ٪ من كل الذين يصابون به بعد سنة أو سنة ونصف ، وكان الشواذ جنسيا قد اكتسبوا حقوقا كثيرة فى أوروبا وأمريكا ، حق الزواج الشاذ ، وفتح الأندية والمظاهرات . . وارتداء الملابس الخليعة .

ولكن بعد ظهور هذا المرض بدأت الأندية الشاذة تغلق أبوابها ، وبدأت الشركات والمحلات تطرد الشواذ ، بل إن بعض الآباء طردوا أبناءهم وبناتهم ، كما أن بعض المحلات امتنعت عن البيع لهؤلاء الشواذ ، حتى لاتنتقل العدوى إلى بقية الزبائن .

وكانت فرحة رجال الدين والتعليم والتربية عظيمة ، وهذا المرض أكبر عقوبة للشواذ وللذين أعطوهم هذه الحقوق الهائلة ودقت أجراس الكنائس تعلن نهاية الحضارات الغربية بسبب الانحراف الجنسى ، وكما يحدث دائما سوف يجد العلماء والأطباء تفسيرا لظهور هذا المرض الشاذ ، وسوف يعرفون الميكروب أو الفيروس ناقل العدوى ، ويجدون علاجا لذلك تماما ، كما اهتدوا إلى علاج الزهرى والسيلان واكتشفوا حبوب منع الحمل .

ومع ذلك فليست هذه العقاقير ولا هذه الحبوب هى التى تمنع الإنسان عن الرذيلة أو الانحراف

وإنما يمنعه دينه وأخلاقه . . يمنعه الخوف من الحرام والرذيلة . . يمنعه أنه هو شخصيا لايريد ذلك . .)

ومن قبل كتب جورج بالوش فى كتابه الثورة الجنسية :

(إن أطناناً من القنابل الجنسية تنفجر كل يوم ويترتب عليها آثار تدعو إلى القلق ، قد لاتجعل أطفالنا وحوشا أخلاقيا فحسب ، بل قد تشوه مجتمعات بأسرها) .

وتعالت فى الغرب ـ مؤخرا ـ صيحات تستنكر الانحرافات الجنسية الخطيرة ، وتذكر الأمريكيين ماصرح بهم رئيسهم كيندى سنة ١٩٦٢م بأن مستقبل أمريكا فى خطر ، لأن شبابها مائع منحل ، غارق فى الشهوات ، لايقدر المسئولية الملقاة على عاتقه ، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد ، يوجد ستة غير صالحين ، لأن الشهوات التى غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية .

إن هذه الصيحات وغيرها ، لاتمثل فى نظرنا غير رد فعل عابر غير مرتكز على أسس عقائدية وأخلاقية سليمة ، وتصحيح الواقع الاجتماعى فى رأينا لن يبدأ إلا بعودة الناس إلى خالقهم واستقامة أهل الأرض على منهج السماء .

* سر المرض الفتاك (إيدز) *

*** لايعرف له علاج :**

حالة من الذعر تنتاب الولايات المتحدة ، نتيجة هذا المرض الفتاك ، الذى لايعرفون له علاجا ، وأخذ فى الانتشار بصورة وبائية منذ عام ١٩٨١م ، وزاد الذعر عندما بدأت تظهر حالات فى أناس لم يمارسوا الشذوذ ، ولكن نقل لهم دم من بنوك الدم ، يشتبه فى أنها تبرع من شواذ .

كما ظهرت حالات بين الأطفال !! ودق جرس الإنذار . . وعم التشاؤم فى الأوساط الطبية الأمريكية .

*** ينتشر بين الأطفال :**

والقصة كما تقول النيوزويك تقول :

إن المرض الفتاك نشب فى أوساط الشواذ ، وترعرع بين مدمنى الهيروين واللاجئين الهايتيين ومرض الهيموفيليا (مرض سيولة الدم) ، ويخشى خبراء الصحة العامة أن ينتشر الوباء بين الأطفال وحتى بين المرضى الذين احتاجوا إلى عمليات نقل دم !!! ومع ظهور كل حالة يزداد صوت إنذار الخطر ارتفاعا ، وخاصة لعدم معرفة الأوساط الطبية لأسباب هذا المرض .

*** إصابات قاتلة :**

وقد سمى هذا المرض الجديد Aids وذلك اختصارا لعدة كلمات بمعنى (انهيار وسائل الدفاع الطبيعية فى الجسم) وهذا يقود إلى إصابات قاتلة بأنواع من السرطان قاتلة مختلفة ، وعدوى بأمراض قاتلة ، لايقدر الجسم أن يدافع فيها عن نفسه ، لانهيار هذه الوسائل الطبيعية .

وقد سجل المركز الطبى لمكافحة الأوبئة ٨٢٧ حالة إصابة و ٣١٢ حالة وفاة ونسبة الوفيات من

المرض هى ٣٨٪

ويقول الدكتور هنرى ماسيور من المعهد الوطنى للصحة :

(إنه لايعرف حالة واحدة من الحالات التى قام بدراستها قد نجت من الموت فى مدة أقصاها ثمانية عشر شهرا ، فما إن يصابوا بالمرض بشدة ، إلا وأعتقد أنهم هالكون) .

وقد نشر مرض (الإيدز) الذعر فى مجتمعات الشواذ ، ويشبه (لارى كرامر) حالة الذعر هذه السائدة الآن بين الشواذ فى أمريكا ، بحالة سكان مدينة لندن أثناء القصف الألمانى فى الحرب العالمية الثانية ، فهم لا يعرفون أين تسقط القنبلة الثانية ، ويقول أيضا :

(إنه شخصيا فقد حتى الآن ١٧ صديقا والآخرون فى المستشفيات) .

* عوارض المرض :

ويبدو أن المرض يتسلل إلى المصاب على مدى شهور أو سنوات ، ويظهر على شكل أورام فى الغدد الليمفاوية ، مع نقص فى الوزن ، وعرق فى الليل وانخفاض فى الحرارة ، وفى ٤٠٪ من الحالات تتحول الأورام إلى أورام سرطانية ، وهو نوع من السرطان موجود فى افريقيا الاستوائية .

كما يتعرض (ضحايا الإيدز) إلى أخطار العدوى بأمراض فتاكة ، قلما يتعرض لها الإنسان الصحيح ، ومن أسوأ هذه الأمراض مرض يسببه طفيلى عن نوع (الهربس) وهو يهاجم الجهاز العصبى المركزى .

* اختلال التوازن بين الخلايا :

والخلل الذى يسببه (الإيدز) مرتبط بتناقض شديد فى إعداد الخلايا البيضاء ، وهى الخلايا المجهزة لمجابهة أنواع من الفيروس والفطريات ، وجسيمات من نوع Tb والطفيليات فيختل التوازن بين الخلايا ، التى تعمل على تنشيط الحصانة وتلك التى تعمل على تقليلها ، والنسبة الصحيحة بين الاثنين ٢ : ١ على التوالى ولكنها فى ضحايا (الإيدز) تكون عكس ذلك .

* ومرض آخر يستشرى فى الشواذ :

وعلى نمط مرض (الإيدز) وبالطريقة نفسها ينتشر (الهيباتيتى ب) وهو مرض فى الكبد يستشرى فى الشواذ ومدمنى المخدرات ، وأحيانا المرضى الذين ينقل لهم دم ، وينتقل المرض عند الاتصال الجنسى ، أو عدوى من إبر المخدرات الملوثة ، أما السبع حالات التى ظهرت فى مرض الهيموفيليا (سيولة الدم) فقد تكون عدوى منقولة بسبب تعاطى هؤلاء المرضى (عوامل تخثر الدم) بانتظام .

ومن الحالات المحزنة إصابة طفل فى سنته الثانية ، وكان قد تلقى عمليات نقل متعددة ، وقد أمكن تتبع مصدر الدم وكانت منها وحدة مأخوذة من رجل توفى (بالإيدز) وحيث إن الرجل كان سليما

وقت تبرعه بالدم ، فلا يمكن للأطباء الجزم بأنه السبب فى مرض الطفل .

وقد سجلت اثنتان وعشرون حالة مرض (بالإيدز) فى الأطفال حتى الآن ، ويؤكد الدكتور (جيمس أوليسك) فى مركز سانت ميشائيل الطبى فى نيوارك بنيوجيرس ، بأن الثمانى حالات التى عالجها فى الأطفال ، هى حالات (إيدز) وأن الأطفال المصابين من عائلات تعتبر شديدة التعرض للإصابة بالمرض بسبب نشاطها الجنسى الشاذ ، أو استعمال المخدرات أو الأصل الهايتى ، وقد تكون إصابة هؤلاء الأطفال ، قد حدثت عن طريق المشيمة فى أثناء الوضع ، أو بحكم التصاق المولود بأمه ، ويبدو الطفل طبيعيا عند الولادة ، ولكن سرعان ما يبدأ فى فقد الشهية مع حمى وسعال ، وأحيانا إسهال وطفح جلدى ثم التهاب حاد يهدد الحياة .

ولا يعرف أحد الصلة بين المرض وهايتى ، وهناك نظرية تقول : إن المرض كان كامنا وغير وبائى فى الجزيرة ، والتقطه شواذ ممن يتخذون هايتى مرتعا لسياحتهم ولهوهم .

وقد باءت جميع محاولات عزل العامل المسبب (الإيدز) بالفشل ، ولم يقدر البحاث أن ينقلوا (الإيدز) للحيوانات بحقنهم بدماء المرض كخطوة أولى منطقية .

* **إعادة النظر فى أساليب نقل الدم :**

والوقاية خير من العلاج . وستعيد دائرة الصحة والخدمات أساليب نقل الدم والتبرع به ، ويقترحون عدم قبول التبرع من المستهترين والشواذ ، ولكن موظفى الصحة العامة بالولايات المتحدة ، ينصحون بعدم المبالغة فى إنذار لا موجب له ، حيث إن حالة واحدة فقط هى التى تأكدت .

سببها نقل الدم والمخاطرة بالنسبة لعدد السكان قليلة ، والحاجة إلى الدم أهم من التخوف من الإيدز حاليا وكان هذا رأى الدكتور هارولد ياف .

* **بعض الشواذ يرتعدون !!**

وقد بدأ الكثير من الشواذ فى تغيير خط حياتهم ، وبدأت مظاهر الكساد تنزل بالحمامات وغيرها ويقول كرامر :

(إن الشواذ أصبحوا أقل إقبالا على ممارستهم ، فالأمر يحتاج إلى غباء مطلق للاستمرار فيه بعد ذلك)

وبعد أيها القارىء الكريم : أليس هذا مصداقا للحديث النبوى الشريف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال :

(خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن أو أن يقعن فيكم ، ماظهرت الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم)[1] . الحديث : حديث حسن .

الطاعون : أى : الوباء ، والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم. أى : الأمراض التى لم تكن فى أسلافكم .

---

(١) الترغيب والترهيب ص ١٩٨ ج ٣ - وأخرجه ابن ماجه فى سننه ج ٢ ص ١٣٣٢ ، ص ١٣٣٣ برقم ٤٠١٩ وقال فى الزوائد : هذا حديث صالح للعمل به ، كما أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٥٤٠ كتاب الفتن والملاحم . وقد بدأ الحديث بقول النبى صلى الله عليه وسلم يامعشر المهاجرين .

* عواقب أخرى تنتظر الشواذ *

إذا كان هذا المرض الرهيب (إيدز) من حصاد تلك الثورة الجنسية ، فإن أضرارا أخرى كثيرة وخطيرة ، تنتظر أهل الشذوذ عن الفطرة ، والانحراف عن الطريقة المشروعة للممارسة الجنسية السليمة .

وقد جمعها الدكتور محمد وصفى فى كتابه (الإسلام والطب) ننقلها لكم هنا بشىء من التصرف .

- أولا : التأثير على الجهاز العصبى :

فاللواط يسبب اختلالا فى الجهاز العصبى وارتباكا فى التفكير وركودا فى التصرفات وبلاهة فى العقل ، وضعفا فى الإرادة ، ويرجع ذلك كله إلى قلة الإفرازات التى تفرزها الغدة الدرقية وغيرها .

كما أن اللواط علة شاذة ، وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية ، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ، ولاتقوم بإرضاء المجموع العصبى .

- ثانيا : الرغبة عن المرأة :

من الأمور الفطرية ميل الرجل إلى المرأة ، ولكن من شأن اعتياد الممارسة الجنسية بطريقة اللواط ، أن تصرف الرجل عن المرأة ، وقد يبلغ به الأمر إلى الحد الذى يعجز فيه عن مباشرتها ، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج وهى التناسل ، ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج ، فإن زوجته تكون ضحية معذبة معلقة ، لا هى متزوجة ولا هى مطلقة .

- ثالثا : تأثيرات موضعية :

فاللواط من ناحية أخرى ، يتسبب فى تمزيق المستقيم ، وهتك أنسجته ، وارتخاء عضلاته ، وسقوط بعض أجزائه ، وقد يصل الأمر إلى فقدان السيطرة على عملية التبرز ، فتخرج الفضلات بغير إرادة أو شعور .

- رابعا : اللواط والصحة العامة :

يصاب مقترف اللواط بضيق فى الصدر ، وخفقان فى القلب ، وضعف عام يجعله عرضة للإصابة بعديد من الأمراض ، كما أن اللواط يضعف فرز مراكز الإنزال الرئيسية فى الجسم ، ويقضى على الحيوية المنوية ، ويؤثر فى تركيب المنى مما يؤدى إلى عدم القدرة على الإنجاب .

- خامسا : التيفود وغيره من الأمراض المعدية :

يتسبب اللواط فى كثير من الأحيان فى الإصابة بمرض التيفود وغيره من الأمراض المعدية ، وذلك عن طريق التلوث بالمواد البرازية التى تحتوى على أنواع كثيرة من الميكروبات .

- سادسا : أمراض الزنا :

إن الأمراض التى تنتشر عن طريق الزنا ، مثل الزهرى والسيلان ، تنتشر كذلك عن طريق اللواط .

- وأخيرا : فإن اللواط لوثة أخلاقية ، ومرض نفسى خطير ، فنجد جميع من يتصفون به سيىء

الخلق ، لا يميزون بين الفضائل والرذائل ، ليس لهم وجدان يؤنبهم ، ولا ضمير يردعهم ، لذلك لايتحرج أحدهم من السطو على الأطفال ، واستعمال العنف لإشباع عاطفته الفاسدة .

ولذا حرص التشريع الإسلامى على التنكيل بمقترفيه ، وأمر بالقضاء عليهم ، وتخليص العالم من شرورهم .

* دلائل التوحيد *

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

معانى المفردات

اصطفى : اختار ، حدائق : جمع حديقة وهى البستان الذى عليه سور وحائط ، لأن الحائط أحدق به . بهجة : البهجة : حسن المنظر يعدلون يميلون يقال : عدل عنه أى :مال عنه . قرارا : مكانا يقر عليه الإنسان وغيره بمعنى يستقر . خلالها : أى: بين جهاتها المختلفة حاجزا : مانعا ، المضطر : الذى أصابه الضر . بشرا : مخفف بشرا جمع بشير والمراد مبشرات .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص أولئك الأنبياء السالفين ، وذكر أخبارهم الدالة على

كمال قدرته وعظيم شأنه وعلى ماخصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة بجلال أقدارهم ، وصدق أخبارهم ، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد ، وبطلان الشرك والكفر ، وأن من اقتدى بهم ، فقد اهتدى ، ومن أعرض عنهم ، فقد تردى فى مهاوى الردى ، ثم شرح صدره-عليه الصلاة والسلام-بما فى تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية والمعارف الربانية الفائضة من عالم القدس مقررا بذلك قوله :

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾

أردف هذاأمره ـ عليه الصلاة والسلام ،بأن يحمده ـ تعالى ـعلى تلك النعم ، ويسلم على الأنبياء كافة ، لفضلهم وأداء لحق تقدمهم ، واجتهادهم فى الدين ، وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل ، ثم ذكر الأدلة على تفرده بالخلق والتقدير ووجوب عبادته وحده ، وأنه لاينبغى عبادة شيء سواه من الأصنام والأوثان .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . . ﴾ هذا خطاب من الله-تعالى- إلى حبيبه ومصطفاه ، كما يشمل كل من يتأتى منه الخطاب ، فالكل مأمور بحمد الله تعالى والثناء عليه ، فهو صاحب الإنعام والكرم ، وصاحب النعماء والفضل العظيم ، فالحمد لله ، كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، ربنا لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، (الحمد لله) أى على نعمه على عباده من النعم التى لاتعد ولا تحصى ، وعلى مااتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام . هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى ، هم الأنبياء ، قال وهو كقوله :﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين ﴾[1] . والقصد أن الله-تعالى-أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم مافعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

قال الإمام ابن القيم فى تفسير هذه الآية :

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

هؤلاء هم أعلى الطبقات وأكرمها على الإطلاق . وهم المرسلون فأكرم الخلق على الله ، وأخصهم بالزلفى لديه . هم رسله . وهم المصطفون من عباده الذين سلم عليهم فى الصالحين ، كما قال تعالى : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ وقال تعالى : ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾[2] وقال:﴿ سلام على ابراهيم * كذلك نجزى المحسنين ﴾[3] وقال:﴿ سلام على آل ياسين ﴾[4]

(١) الصافات الايات رقم ١٨٠ ـ ١٨٢
(٢) الصافات آية رقم ٧٩
(٣) الصافات آية رقم ١٠٩
(٤) الصافات آية رقم ١٣٠

وقال : هل السلام من الله ؟ فيكون المأمور به : الحمد والوقف التام عليه ، أو هو داخل فى القول والأمر بهما جميعا ؟

فالجواب عنه : أن الكلام يحتمل الأمرين . ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح .

فيرجح كونه داخلا فى جملة القول لأمور :

منها : اتصاله به ، وعطفه عليه من غير فاصل ، وهذا يقتضى أن يكون فعل القول واقعا على كل واحد فيهما ، هذا هو الأصل مالم يمنع منه مانع ، ولهذا إذا قلت قل : الحمد لله ، وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل فى القول .

ومنها : أنه إذا كان معطوفا على القول ، كان عطف خبر على خبر ، وهو الأصل ، ولو كان منقطعا عنه ، كان عطف جملة خبرية على جملة الطلب ، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب .

ومنها : أن قوله:﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

ظاهر فى أن المسلم هو القائل : الحمد لله ، ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ، ولم يقل سلام على عبادى .

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور .

أحدها : مطابقته لنظائره فى القرآن ، من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى ، كقوله: ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾ وقوله ﴿ سلام على ابراهيم ﴾ ، و ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ و ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ .

والثانى : أن عباده الذين اصطفى : هم المرسلون : والله-سبحانه-يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم ، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم .

أما الأول : فقال تعالى:﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين ﴾ وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لايليق بجلاله ، ثم سلام على رسله ، وفى اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع ، فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقا ، كما نزه نفسه عما يقول ضلال خلقه فيه ، ثم سلم على المرسلين .

وهذا يقتضى سلامتهم من كل مايقول المكذبون لهم ، المخالفون لهم . وإذا سلموا من كل مارماهم أعداؤهم لزم سلامة كل ماجاءوا به من الكذب والفساد .

وأعظم ماجاءوا به : التوحيد ومعرفة الله ، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم ، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد ، فهو الحق المحض . وماخالفه : فهو الباطل ، والكذب المحال .

وهذا المعنى بعينه فى قوله:﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال ، والأفعال الحميدة ، والأسماء الحسنى ، وسلامه رسله من كل عيب ونقص وكذب ، وذلك يتضمن سلامة ماجاءوا به من كل باطل فقابل هذا السر فى اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه ، فهذا يشهد بكون السلام هنا من الله تعالى ، كما هو فى آخر سورة الصافات .

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله : ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان ﴾[١] . وقوله: ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾[٢] ونظائره كثيرة .

وفصل الخطاب فى ذلك : أن يقال : الآية تتضمن الأمرين جميعا وتنتظمها انتظاما واحدا ، فإذ الرسول هو المبلغ عن الله كلامه ، وليس له فيه إلا البلاغ ، والكلام كلام الرب-تبارك وتعالى- فهو الذى حمد نفسه ، وسلم على صفوة عباده ، وأمر رسوله بتبليغ ذلك ، فإذا قال الرسول : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد الرب به نفسه وسلم به هو على عباده . فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغا ، ومن العباد : اقتداء وطاعة .

فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى : ﴿ الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

وكلمة « السلام » ههنا يحتمل أن تكون داخلة فى حيز القول ، فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهى « الحمد لله » ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معا .

وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة . ويكون محلها النصب؟ محكية بالقول .

ويحتمل أن تكون جملة مستأنفة مستقلة ، معطوفة على جملة الطلب ، وعلى هذا : فلا محل لها من الإعراب ، وهذا التقدير أرجح .

وعليه يكون السلام من الله عليهم ، وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله-صلى الله عليهم وسلم- .

وعلى التقدير الأول : يكون أمرنا بالسلام عليهم ، ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب ، مع تنافر مابينهما فلايحسن أن يقال قم وذهب زيد ، ولا اخرج وقعد عمرو .

ويجاب عن هذا : بأن جملة الطلب قد حكيت بجملة خبرية ، وعلى هذا لا يمتنع عطف الخبر على الجملة الطلبية : لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ﴾[٣] .

فقوله تعالى : ﴿ وماتغنى الآيات ﴾ ليس معطوفا على القول وهو ﴿ انظروا ﴾ بل معطوف على الجملة الكبرى ، على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى : ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون ﴾[٤] .

والمقصود : أنه على هذا القول : يكون الله-سبحانه-قد سلم على المصطفين من عباده ، والرسل أفضلهم وقد أخبر تعالى : أنه أخلصهم كما قال تعالى : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾[٥] .

---

(١) الأنبياء آية رقم ١١٢
(٢) المؤمنون آية رقم ١١٨
(٣) يونس آية رقم ١٠١
(٤) الأنبياء آية رقم ١١٢
(٥) (ص) الأيتان ٤٦ - ٤٧

ويكفى فى شرفهم وفضلهم : أن الله اختصهم بوحيه : وجعلهم أمناء على رسالته ، وواسطته بينه وبين عباده ، وخصهم بأنواع كراماته ، فمنهم من اتخذه خليلا ، ومنهم من كلمه تكليما ، ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ، ولم يجعل لعباده طريقا للوصول إليه إلا من طريقهم ، ولا دخولا إلى جنته إلا خلفهم .

وقوله تعالى : ﴿ ءآلله خير أما يشركون ﴾ الاستفهام هنا فيه إنكار شديد على الذين اعترفوا بالله ربا وأشركوا به إلها . ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾(١) لقد اعترفوا لله بالربوبية من خلق ورزق وملك للسمع والأبصار وتدبير للأمر ولكنهم أشركوا فى عبادته ، وقالوا عن الشركاء : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾(٢)

فقال لهم الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾(٣)

وقال : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾(٤) .

ءآلله خير أم هؤلاء الشركاء بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم لايهدى إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لايغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾(٥)

قال عز وجل : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذالكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(٦) .

فتوحيد الربوبية وحده لايكفى ، إذ لابد من توحيد الألوهية معه قال تعالى :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾(٧) .

ثم أقام سبحانه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أنه المعبود بحق لايشرك فى حكمه أحدا فقال تبارك اسمه:﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ .

﴿ أمن خلق السموات ﴾ أى:خلق تلك السموات فى ارتفاعها وصفائها ، وماجعل فيها من الكواكب المنيرة ، والنجوم الزاهرة ، والأفلاك الدائرة ، وخلق الأرض فى أشكالها وكثافتها وماجعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار ، والفيافى والقفار ، والزروع والأشجار ، والثمار والبحار ،

(١) يونس الأيتان ٣١ ، ٣٢
(٢) الزمر آية رقم ٣
(٣) ق الآيات من ١٦ ـ ١٨
(٤) البقرة آية رقم ١٨٦
(٥) يونس الآيات من ٣٤/ ٣٦
(٦) الروم آية رقم ٤٠
(٧) الكهف آية رقم ١١٠

والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ أى:جعله رزقا للعباد ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ أى:بساتين ﴿ ذات بهجة ﴾ أى:منظر حسن وشكل بهى ﴿ ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أى:لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ماسواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾[1] ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾[2] أى:هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لاشريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لايخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أءله مع الله ؟ ﴾ أى:أءله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعترفون به أيضا أنه الخالق الرازق .

ومن المفسرين من يقول معنى قوله : ﴿ أءله مع الله ﴾ فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول ، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المتفرد به ، فيقال فكيف تعبدون معه غيره ، وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ كما قال تعالى :

﴿ أفمن يخلق كمن لايخلق ﴾[3] الآية . وقوله تعالى ههنا : ﴿ أمن خلق السموات والأرض ﴾ ﴿ أمن ﴾ فى هذه الآيات كلها ، تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لايقدر على شىء منها ؟ هذا معنى السياق ، وإن لم يذكر الآخر ، لأن فى قوة الكلام مايرشد إلى ذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ءآلله خير أما يشركون ﴾ ثم قال تعالى فى الآية الأخرى:﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ أى يجعلون لله عدلا ونظيرا . وهكذا قال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾[4] . أى: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال تعالى :

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[6] أى : أمن هو شهيد على أفعال الخلق ، حركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليله وحقيره ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها من دون الله ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء قل سموهم ﴾ وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

سبحانك ربى

يامن يحار الفهم فى قدرتك ... وتطلب النفس حمى طاعتك

---

(١) الزخرف آية رقم ٨٧
(٢) سورة العنكبوت رقم ٦٣
(٣) النحل آية رقم ١٧
(٤) الزمر آية رقم ٩
(٥) الزمر آية رقم ٢٢
(٦) الرعد آية رقم ٣٣

تخفى على الناس سنى طلعتك وكل مافى الكون من صنعتك

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والأفلاك ومدارها ، والشمس وشعاعها والبحار وأمواجها ، والأرض واتساعها ، والجبال وشموخها ، وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ، الكل يشهد بجلال الله ويقر بأعماله ، ويعلن بذكره ولا يغفل عن شكره . سموات ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا ، سل الزهر والندى سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا

نصب الأدلة فى الأنفس والآفاق والكون ، على أنه الواحد سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لاإله إلا أنا فاتقون** ﴾[1] . حدثنا عن خلق الكون العلوى والسفلى فقال سبحانه : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون** ﴾[2] ثم حدثنا عن خلق أنفسنا فقال : ﴿ **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾[3] ثم انتقل إلى خلق الأنعام والدواب فقال سبحانه : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾[4] .

ثم أنبأنا بما سيجد من وسائل المواصلات ، فى العصور اللاحقة فقال: ﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾ ثم أنعم علينا ببيان السبيل المستقيمة فقال : ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ وأخبر أن هناك من يسلك طرقا معوجة فقال: ﴿ **ومنها جائر** ﴾ وبين أن قانون المشيئة مهيمن على الكون كله فقال : ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾[5] ثم انتقل النظم الكريم بنا إلى عالم الماء والنبات فقال تعالى :
﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾[6] .

ثم انتقل بنا إلى عالم الفلك فقال سبحانه: ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[7] .

---

(١) النحل آية رقم ٢
(٢) النحل آية رقم ٣
(٣) النحل آية رقم ٤
(٤) النحل الآيات ٥ - ٨
(٥) النحل آية ٩
(٦) النحل الآيتان ١٠ - ١١
(٧) النحل الآية ١٢

ثم انتقل بنا إلى مافى الأرض من كنوز فقال تعالى :

﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلف ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾[١] .

ثم انتقل بنا إلى عالم البحار ، ومافيها من أسرار ، فقال تعالى :

﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٢] .

ثم انتقل إلى طبقات الأرض وما بها من جبال فقال تعالى :

﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾[٣] .

وبعد هذه الآيات الباهرات والبراهين الساطعات ، ألقى بهذا السؤال على أصحاب العقول ، فقال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون ﴾[٤] .

وبعدما طال تعداد النعم قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾[٥] ثم أثبت لذاته صفة العلم الشامل الكامل المحيط فقال : ﴿ والله يعلم ماتسرون وما تعلنون ﴾[٦] ثم قال مثبتا عجز غيره: ﴿ والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ومايشعرون أيان يبعثون ﴾[٧] ثم بين تلك الحقيقة العليا فقال عز وجل: ﴿ إلهكم إله واحد ﴾[٨]

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد

ياحى ياقيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجبين الساجد

قوله تعالى : ﴿ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله بل أكثرهم لايعلمون ﴾ .

هو كقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذالكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين * هو الحى لاإله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾[٩] .

وقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ﴾[١٠].

فسبحان من خلقها وأرساها بالجبال ، قال تعالى : ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون ﴾[١١].

وجل جلال الله إذ يقول : (خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا منها من كل زوج كريم * هذا خلق الله

---

(١) النحل آية رقم ١٣
(٢) النحل آية ١٤
(٣) النحل الأيتان ١٥ ، ١٦
(٤) النحل آية ١٧
(٥) النحل آية ١٨
(٦) النحل آية ١٩
(٧) النحل آية ٢٠ ، ٢١
(٨) النحل آية ٢٢
(٩) غافر آية ٦٤ ، ٦٥
(١٠) النبأ الآيتان ٦ ، ٧
(١١) الأعراف آية رقم ١٠

فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾(١) .

وجل جلاله إذ يقول : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ﴾(٢) وكما قال أيضا : ﴿ قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلاوأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾(٣)

قوله تعالى : ﴿ وجعل خلالها أنهارا ﴾ أى:جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة ، شقها فى خلالها وصرفها فيها ، مابين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم فى أرجاء الأرض ، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿ وجعل لها رواسى ﴾ أى:جبالا شامخة ترسى الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم ﴿ وجعل بين البحرين حاجزا ﴾ أى جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا أى:مانعا يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا ، وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى أن تكون عذبة زلالا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها ، والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب ، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحا أجاجا ، لئلا يفسد الهواء بريحها ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٥)

وقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان ﴾(٦) .

﴿ أءله مع الله ﴾ فعل هذا ﴿ بل أكثرهم لايعلمون ﴾ إن ماسوى الله باطل لايملك لنفسه خيرا ولانفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فهم جاهلون إذ أشركوا مع الله غيره .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل * له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون * قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين* بل الله فاعبد وكن من الشاكرين * وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(٧) .

---

(١) لقمان الآيتان من ١٠ ـ ١١
(٢) الملك آية رقم ١٦
(٣) طه الآيات من ٥١ ـ ٥٥
(٤) الفرقان آية رقم ٥٣
(٥) فاطر آية رقم ١٢
(٦) الرحمن الآيتان ١٩/ ٢٠
(٧) الزمر الآيات من ٦٢ ـ ٦٧

قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ماتذكرون ﴾

هذه سلسلة متصلة الحلقات من نعم الله على عباده ، وآلائه التى لاتحصى ، وأفضاله التى لاتستقصى .

يامن يجيب دعا المضطر فى الظلم ويكشف الضر والبلوى مع السقم
إن كان أهل التقى فازوا بما فعلوا فمن يجود على العاصين بالكرم

كلمة فى الدعاء

١ ـ الأمر به :

أمر الله الناس أن يدعوه ، ويضرعوا إليه ، ووعدهم أن يستجيب لهم ، ويحقق لهم سؤلهم .

(١) فقد روى أحمد وأصحاب السنن عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : (إن الدعاء هو العبادة) ثم قرأ : ﴿ ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾(١) .

(٢) وروى عبد الرزاق عن الحسن : أن أصحاب رسول الله ﷺ سألوه : أين ربنا ؟ فأنزل الله : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾(٢) .

(٣) وروي الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (ليس شىء أكرم على الله من الدعاء)(٣)

(٤) وروى الترمذى عنه : أنه صلوات الله عليه وسلامه قال : (من سره أن يستجيب الله-تعالى-له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء فى الرخاء)(٤)

(٥) وثبت عنه ﷺ قوله : (من لم يسأل الله يغضب عليه)(٥) .

(٦) عن عائشة-رضى الله عنها-قالت : قال رسول الله ﷺ:(لايغنى حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)

رواه البزار والطبرانى والحاكم وقال : صحيح الإسناد(٦) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الدعاء برقم ٣٨٢٨ ج ٢ ، وأحمد ج ٤ ص ٢٦٧ والترمذى برقم ٣٤٣٢ ج ٥ وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية (وإذا سألك عبادى عنى)

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٨٢٩ كتاب الدعاء ج ٢ والترمذى برقم ٣٤٢٩ فى أبواب :الدعاء ج ٥ وقال:هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عمران القطان

(٤) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٤٤٢ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن غريب

(٥) أخرجه الطبرانى برقم ٢٣٠٦٨ ج ١ ص ٦٠٣ وابن ماجه برقم ٣٨٢٧ ج ٢ والترمذى برقم ٣٤٣٣ ج ٥

(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٤٩٢ كتاب الدعاء والحديث فى الصغير للطبرانى برقم ٩٩٧٧ ص ٤٥٣ كما رواه البزار فى كتاب القدر ج ٣ ص ٢٩ برقم ٢١٦٤ ، ٢١٦٥

(٧) وعن سلمان الفارسي-رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : (لايرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر) رواه الترمذى[١] .

آدابه

للدعاء آداب ينبغى مراعاتها نذكرها فيمايلى :

(١) تحرى الحلال :

أخرج الحافظ بن مردويه عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ : ﴿ **يأأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا** ﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال : (ياسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به)

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (يأأيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيبا - وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

﴿ **يأأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ وقال : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم** ﴾ .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر - أشعث أغبر - ومطعمه حرام - وملبسه حرام - وغذى بالحرام - يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، فأنى يستجاب لذلك)[٢]

(٢) استقبال القبلة إن أمكن ، فقد خرج النبى يستسقى فدعا واستسقى واستقبل القبلة .

(٣) ملاحظة الأوقات الفاضلة والحالات الشريفة ، كيوم عرفة وشهر رمضان ويوم الجمعة ، والثلث الأخير من الليل ، ووقت السحر ، وكحالة السجود ، ونزول الغيث ، وبين الأذان والإقامة والتقاء الجيوش ، وعند الوجل ، ورقة القلب .

أ - فعن أبى أمامة قيل : يارسول الله : أى الدعاء أسمع ؟ قال : (جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبات) رواه الترمذى بسند صحيح .[٣] .

ب - وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء)[٤]

وأحاديث أخرى كثيرة .

---

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٢٢٥ ج ٣ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ أبواب القدر وقال :
هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث يحيى بن الضريس .

(٢) أخرجه الإمام احمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٢٨

(٣) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات رقم ٣٥٦٦ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن وقد روى عن أبى ذر وابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : (جوف الليل الآخر الدعاء فيه أفضل وأرجى)
وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ج ٢ ص ٧٠٣ برقم ٦٥/ ١٠١٥

(٤) أخرجه أبود داود فى كتاب الصلاة باب الدعاء والركوع والسجود ج ١ ص ٥٤٥ برقم ٨٧٥
وأخرجه مسلم برقم ٤٨٢ ج ١ ص ٣٥٠ كتاب الصلاة

(٤) رفع اليدين حذو المنكبين فقد روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : المسألة أن ترفع يديك حذو مكنبيك أو نحوهما ، والاستغفار أن تشير بأصبع واحدة ، والابتهال أن تمد يديك جميعا

وروى عن سليمان ، أنه ﷺ قال : (إن ربكم-تبارك وتعالى-حيى كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا)[١] .

(٥) أن يبدأ بحمد الله وتمجيده والثناء عليه ، ويصلى على النبى ﷺ

لما رواه أبو داود والنسائى والترمذى وصححه عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو فى صلاته لم يمجد الله-تعالى - ولم يصل على النبى فقال : (عجل هذا) ثم دعاه ، فقال له او لغيره :(اذا صلى (دعا) أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه-جل وعز-والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يدعو بما يشاء)[٢].

(٦) حضور القلب ، وإظهار الفاقة والضراعة إلى الله-جل شأنه- وخفض الصوت بين المخافتة والجهر قال تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين ﴾[٣] قال ابن جرير:تضرعا : تذللا واستكانه لطاعته . وخفية : يقول بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بواحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارا مراءاة

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ : (ياأيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولاغائبا إنما تدعون سميعا بصيرا ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، ياعبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ﴾[٤] .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لايستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل)[٥] .

(٧) الدعاء بغير إثم أو قطيعة رحم . لما رواه أحمد عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : (مامن مسلم يدعو الله - عز وجل - بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الأخرى ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا : إذن نكثر يارسول الله ؟ قال : (الله أكبر)[٦] .

---

(١) أخرجه البغوى فى شرح السنة برقم ١٣٨٦ ج ٥ ولكن بلفظ:إن الله حيى كريم ويزيادة حتى يجعل فيها خيرا.والحديث من رواية أنس بن مالك .
وأخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٦٢٧ ج ٥ ص ٢١٧
(٢) أخرجه الترمذى برقم ٣٥٤٦ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح .
(٣) الأعراف آية رقم آ ٥٥
(٤) أخرجه البخارى فى باب مايكره رفع الصوت بالتكبير ج ٤ ص ٦٩
وأخرجه مسلم برقم ٢٧٠٤ ج ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . وأخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٣ برقم ١٥٢٨ .
(٥) أخرجه الإمام احمد فى مسنده ج ٢ ص ١٧٧ .
(٦) أخرجه الإمام احمد ج ٣ ص ١٨

(٨) عدم استبطاء الإجابة لما رواه مالك عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (يستجاب لأحدكم مالم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لى)(١) .

(٩) الدعاء مع الجزم بالإجابة لما رواه أبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لايقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم المسألة فإنه لامكره له)(٢)

(١٠) اختيار جوامع الكلم مثل (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)(٣) فقد كان ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ماسوى ذلك .

(١١) تجنب الدعاء على نفسه وأهله وماله . فعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : (لاتدعوا على أنفسكم ، ولاتدعوا على أولادكم ، ولاتدعوا على خدمكم ، ولاتدعوا على أموالكم ، لاتوافقوا من الله -تبارك وتعالى- ساعة نيل فيها عطاء فيستجاب لكم)(٤) .

(١٢) تكرار الدعاء ثلاثا : (فعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يعجبه أن يدعو ثلاثا ويستغفر ثلاثا) رواه أبو داود .(٥)

(١٣) إذا دعا لغيره أن يبدأ بنفسه .

قال تعالى : ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾(٦) .

وعن أبى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدا فدعا له بدأ بنفسه(٧) رواه الترمذى بإسناد صحيح .

دعاء الوالد والصائم والمسافر والمظلوم

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى بسند حسن : أن النبى ﷺ قال : (ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن : دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم)(٨)

دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب

روى أبو داود والترمذى : أن النبى ﷺ قال : (أسرع الدعاء إجابة ، دعوة غائب لغائب)(٩) .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٠٩٥ فى كتاب الدعاء والاستغفار والتوبة
(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٦٣ برقم ١٤٨٣ كتاب الصلاة - باب الدعاء -
(٣) البقرة آية رقم ٢٠١
(٤) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٥ برقم ١٥٣٢ كتاب الصلاة باب النهى عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله .
(٥) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٢ برقم ١٥٢٤ .
(٦) الحشر آية رقم ١٠

(٧) أخرجه الترمذى برقم ٣٤٤٥ ج ٥ ص ١٣١ وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .
(٨) أخرجه ابو داود ج ٢ ص ١٨٧ برقم ١٥٣٦ وأخرجه الإمام احمد ج ٢ ص ٣٤٨ وأخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٥٠٩ ج ١ ص ٣٥١٠ ج ٥ ص ١٦٤
(٩) أخرجه الترمذى فى باب البر برقم ٢٠٤٦ ج ٣ ص ٢٣٧
وأخرجه أبو داود فى باب الوتر

بعض ماورد فيما ينبغى أن يستفتح به الدعاء رجاء أن يقبل :

١ ـ عن بريدة : أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول :

(اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لاإله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) فقال:(لقد سألت الله بالاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب) رواه أبو داود والترمذى وحسنه[1]

٢ ـ وعن معاذ بن جبل : أن النبى ﷺ سمع رجلا وهو يقول : ياذا الجلال والإكرام ، فقال : (قد استجيب لك فسل) رواه الترمذى وقال حسن .[2]

٣ ـ وعن أنس قال : مر رسول الله ﷺ بأبى عياش ، زيد بن الصامت الزرقى وهو يصلى ـ وهو يقول : اللهم إنى اسألك بأن لك الحمد ، لاإله إلا أنت ياحنان يامنان ، يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، ياحى ياقيوم . فقال رسول الله ﷺ : لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى)[3] رواه أبو داود وغيره .

٤ ـ وعن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:(من دعا بهؤلاء الكلمات الخمس ، لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه : لاإله إلا الله ، والله أكبر ، لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لاإله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله)[4] رواه الطبرانى بإسناد حسن .

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ماتذكرون ﴾

أى: من هو الذى لايلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لايكشف ضر المضرورين سواه .

قال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾[5]

وقال جل شأنه : ﴿ ومابكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾[6] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ﴾[7].

روى الإمام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ أنه أتاه رجل فقال:يارسول الله إلام تدعو ؟ قال : (أدعو إلى الله وحده الذى إن مسك ضر دعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك ، قال : قلت أوصنى قال : (لاتسبن أحدا ولاتزهدن فى المعروف ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى

---

(١) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٥٤٢ ج ٥ ص ١٧٨ وقال:هذا حديث حسن غريب وأخرجه أبو داود فى سننه ج ٢ ص ١٦٧ برقم ١٤٩٣ باب الدعاء

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٢٣٦

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الصلاة باب الدعاء برقم ١٤٩٥ ج ٢ ص ١٦٧ .

(٤) أخرجه الطبرانى برقم ٢١٩٢٧ ج ٦ ص ٣٧٩

(٥) الإسراء آية رقم ٦٧

(٦) النحل آية رقم ٥٢

(٧) يونس آية رقم ١٢

واتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لايحب المخيلة)[١] .

وقال ابن أبى حاتم عن عبيد الله بن أبى صالح قال :

دخل على طاوس يعودنى فقلت له : ادع الله لى ياأبا عبد الرحمن فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال وهب بن منبه:قرأت فى الكتاب الأول أن الله-تعالى-يقول :(بعزتى إنه من اعتصم بى فإن كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيهن فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجا ومن لم يعتصم بى فإنى أخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله فى الهواء فأكله إلى نفسه) .

وذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى ، قال:هذا الرجل كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزبدانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة ، فقال لى:خذ فى هذه فإنها أقرب ، فقلت لاخبرة لى فيها ، فقال بل هى أقرب ، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر ، وواد عميق ، وفيه قتلى كثيرة ، فقال لى:أمسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكينا معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه ، وتبعنى فناشدته الله ، وقلت:خذ البغل بما عليه فقال:هو لى وإنما أريد قتلك ، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه ، وقلت:إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين فقال : عجل فقمت أصلى فارتج على القرآن ، فلم يحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيرا وهو يقول :

هيا أفرغ ، فأجرى الله على لسانى قوله تعالى : ﴿ **أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء** ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى وبيده حربة ، فرمى بها الرجل ، فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعا فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما .

قوله تعالى : ﴿ **ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾ أى يخلف بعضكم بعضا كقوله جل شأنه : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾[٢] .

وكقوله جل شأنه :

﴿ **هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾[٤] .

إن الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ممن ناداه وينادى هل من تائب فأتوب عليه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٦٤
(٢) الأنعام آية ١٦٥
(٣) فاطر آية ٣٩
(٤) البقرة أية ٣٠

هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له .

وإن الذى جعلكم خلفاء الأرض هو الله وحده ، أإله مع الله فعل هذا ، كلا ، ثم كلا ، ثم كلا ، بل هو الله العزيز الحكيم . ولكنكم قليلا ما تذكرون .

قوله تعالى : ﴿ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أءله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

وتلك نعمة جليلة من نعم الله تعالى على عباده ، إذ يهديهم فى أسفارهم فى ظلمات البر والبحر ولولا ذلك لضلوا الطريق لكنه جل شأنه رؤوف رحيم بهم قال تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾[٢] .

وكما هدانا الله برا وبحرا فى أسفارنا ، فقد هدانا فى أسفارنا جوا ، فها هو ذا عالم الطيران يجوب المعمورة شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، وها هو ذا الإنسان يركب سفن الفضاء ، وينظر فيها فيرى كوكب الأرض معلقا فى فضاء فسيح ، ويسأل نفسه من الذى أمسك هذا الكوكب فى هذا الفضاء ، وتأتيه الإجابة ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾[٣] .

وينتقل بنا النظم الكريم ، إلى نعمة أخرى ، وهى نعمة إرسال الرياح مبشرات بالمطر ، ويرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، والمطر نعمة عظمى ، قال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[٤] .

وقال : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾[٥] وقال عز من قائل :

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾[٦] من الذى يقوى أن يرسل الرياح ، فتثير السحاب ، وينزل الماء ، أءله مع الله فعل هذا ، تعالى الله عما يشركون ، هو الواحد فى ذاته ، لا قسيم له ، الواحد فى صفاته ، لا شبيه له الواحد فى أفعاله ، لا شريك له !

ما فى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ولا مولى هناك فيقصد

أإله مع الله فعل هذا . الطبيعة الصماء . أم الصدفة العمياء . كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

قوله تعالى : ﴿ أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ .

---

(١) النحل أية ١٥ ، ١٦
(٢) الأنعام أية ٩٧
(٣) فاطر أية ٤١
(٤) الأعراف أية ٥٧
(٥) الشورى أية ٢٨
(٦) الروم أية ٤٨

أى:هو الذى بقدرته وسلطانه ، يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى : ﴿ **إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾[٢]

وقال تعالى : ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾[٣] .

وقال سبحانه : ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾[٤]

قوله : ﴿ **ومن يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ أى:بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض .

كما قال تعالى : ﴿ **والسماء ذات الرجع*والأرض ذات الصدع** ﴾[٥]

وقال تعالى : ﴿ **يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها وهو الرحيم الغفور** ﴾[٦]

فاعلم أنه لايملك الروح والرزق إلا الله ﴿ **وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾[٧] .

لاتعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم أن ماقدر على فكيك أن تمضغاه ، فلابد أن تمضغاه فامضغه بعزة .

ولو ركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه ، لركب الرزق البرق ، حتى يقع فى فم ابن آدم ، أءله مع الله فعل هذا ، لاإله إلا الله ، قل هاتوا برهانكم ودليلكم على شرككم إن كنتم صادقين فيما تدعون .

وحيث قامت الأدلة فى الأنفس والآفاق على وحدانية الله-تعالى - فلا برهان لكم على باطلكم ، فلو سألتم العالم من عرشه الى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلتم له من خالقك لقال لكم بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

لاإله إلا الله أخلو بها وحدى

لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى

لاإله إلا الله أفنى بها عمرى

لا إله إلا الله أدخل بها قبرى

لا إله إلا الله ألقى بها ربى .

---

(١) البروج الأيتان : ١٢ ، ١٣

(٢) الروم آية ٢٧

(٣) يس آية ٧٩

(٤) يونس آية ٣٤

(٥) الطارق الأيتان ١١/ ١٢

(٦) سبأ آية ٢

(٧) لقمان آية ٣٤

إنكارهم البعث

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

معانى المفردات

ادارك : أصله تدارك بمعنى تلاحق .

عمون : جمع عم . والمقصود بالعمى هنا الضلال والبعد عن الحق .

قال تعالى : ﴿ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[1] .

أساطير : جمع أسطورة وهى ماسطره الأقدمون من خرافاتهم وأحاديثهم .

ضيق : فى ضيق صدر .

ردف لكم : تبعكم ولحقكم .

ماتكن صدورهم : ماتخفيه .

غائبة : التاء فيها للمبالغة كالتاء فى علامة ونسابة والأصل غائب

التفسير

قل لهم يامحمد : لايعلم من استقر فى السموات والأرض ، من الملائكة والإنس والجن ، حتى الأنبياء والرسل لايعلمون الغيب ، أى: ماغاب عنهم ، ومن جملته قيام الساعة لكن الله يعلم الغيب والشهادة ، ويعلم السر وأخفى ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام

---

(١) الحج آية ٤٦

وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾(١) .

قالت عائشة : من زعم أن محمدا ﷺ ، يعلم ما فى غد ، فقد أعظم على الله الفرية **﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير ﴾**(٢)

وهذا يفيد وصف الله بالعلم التام الشامل ، بعد وصفه بالقدرة والوحدانية ، وذلك كله يفيد انفراده بالألوهية ومايشعر الكفار فى أى وقت يبعثون للحساب والجزاء ، وستأتيهم الساعة بغتة ، وهم يجحدون ، بل ادارك علمهم وتلاحق أى:تكامل علمهم فى الآخرة عنها ، لأنهم رأوا كل ماوعدوا به معاينة ، فتكامل علمهم به بعد إنكارهم لأحوالها كلها ، بل هم فى شك منها فى الدنيا ، بل هم من الآخرة وأحوالها عمون بقلوبهم ، لايؤمنون بها ولايفكرون فيها .

وقال الذين كفروا بالله وبرسله : أئذا كنا ترابا بعد موتنا نحن وآباؤنا أئنا لمخرجون ـ من قبورنا بعد أن صرنا ترابا ـ للبعث والجزاء ؟ إن هذا شيء لايمكن أن نصدقه ، ولا أن نؤمن به ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل كثيرا ، ولم نسمع أن قام أحد بعد موته وصيرورته ترابا ، ماهذا الذى تدعونا اليه وتخبرنا به أيها الرسول إلا أساطير الأولين وأكاذيبهم ، التى دونوها رأى الله-سبحانه وتعالى-فيهم هذا الإنكار للبعث ، وهو يعلم أن سبب ذلك حبهم للدنيا وافتتانهم بها ، وحبهم للرياسة الكاذبة والزخرف الزائل ، فعالج هذا الداء من أساسه ، وأمر رسوله أن ينبههم إلى السير فى أرض الحجاز والشام واليمن ، لينظروا بأعينهم كيف كانت عاقبة الكفار المجرمين ، هؤلاء هم الذين اغتروا بدنياهم ، وافتتنوا بزخرفها ، وما هى إلا ساعة ، حتى فارقوها وتركوا ديارهم تنعاهم لمن بعدهم ، فيأيها الناس آمنوا وصدقوا ولا تغتروا بالدنيا ، فهى متاع زائل وعرض حائل والآخرة خير وأبقى .

وأنت يامحمد لاتحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق وكرب مما يمكرون ، فإن الله معك وناصرك وعاصمك من الناس ومؤيدك .

وانظر إليهم وهم يقولون : متى هذا الوعد ؟ إن كنتم ـ أيها القائلون : صادقين وهذا سؤال المراد منه الإنكار واستبعاد تحقق الوعد فيرد الله عليهم : قل لهم يامحمد : عسى أن يكون ردفكم ولحقكم واقترب منكم بعض الذى تستعجلون من العذاب ، وعسى فى كلام الله للتحقق ، وقد تحقق هذا فى غزوة بدر ، ويتحقق فى عذاب القبر قريبا .

وإن ربك لذو فضل على الناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، أنعم حيث أنعم على الجميع بنعمه فى الدنيا ، وعلى المؤمن خاصة بنعمة الهداية ، وعلى الكافر بتأخير العذاب ، لعله يثوب إلى رشده ، وإن ربك ليعلم السر وأخفى ، ويعلم الغيب والشهادة ، وهو العليم بذات الصدور ومامن شيء يغيب عنه ويخفى خفاء شديدا ، أينما كان فى السماء أو الأرض ، إلا كان فى كتاب مسطور كتاب مبين **﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾**(٣) .

---

(١) لقمان آية ٣٤
(٢) الأعراف آية ١٨٨
(٣) لقمان آية ٣٤

البعث حق

من الكلمات الجامعة التى بلغت أعلى طبقات البلاغة ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** ﴾[١] .

يبين لنا مولانا-جل فى علاه- أن دنيانا هذه لاقرار فيها ولا استقرار ، إنما الإنسان فيها راحل منها إلى دار القرار .

﴿ **يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه** ﴾[٢] فما الإنسان فى جيل إلاذرة فى فضاء ، وما الجيل فى الزمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء .

فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال ، فلابد من دخول القبر .

جاء فى الحديث الشريف عن المعصوم ﷺ :

أنه قال : (والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا)

والبعث قضية من قضايا العقيدة ، لايؤمن أحد إلا إذا آمن بأنه حق ، وإن الساعة آتية لاريب فيها ، ولما سبق فى علم الله-تعالى-أن هناك ناسا سيسألون هذا السؤال : ﴿ **أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد** ﴾[٣]

أقام الله الأدلة الكونية المنصوبة فى الآفاق ، وأقطار الكون ، ليقطع الطريق على هؤلاء المجادلين المعاندين المكابرين ، الذين يقحمون أنفسهم فى المتاهات ، التى لانهاية لها وينسون أنفسهم .

يقول مولانا-تبارك اسمه- ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾[٤] .

هذه الآية الرائعة الحاسمة الجازمة الباذخة الراسخة أنتجت خمس نتائج اجتمعت فى قوله تعالى :

(١) ذلك بأن الله هو الحق .

(٢) وأنه يحيى الموتى .

(٣) وأنه على كل شىء قدير .

(٤) وأن الساعة آتيه لاريب فيها .

(٥) وأن الله يبعث من فى القبور[١] .

---

(١) المؤمنون الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٢) الانشقاق آية ٦

(٣) الرعد من الآية : ٥

(٤) الحج آية ٥

واسمع إليه تبارك اسمه وهو يقدم للبعث فى سورة الرعد فيقول عز من قائل :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون * الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاءربكم توقنون* وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون.وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾

ثم يعقب سبحانه على تلك الآيات فيقول :

﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ﴾

ثم يحكم الله تعالى على هؤلاء الحاقدين فيقول :

﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[1] .

يقول الأستاذ عبد الله سراج فى كتابه « الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها »

قال الله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[2]

أن من أصول الاعتقادات الإيمانية : الاعتقاد الجازم بأن اللهتعالى-يبعث الخلائق بعد موتها فيجمع أجزاءها بعد تفرقها ويعيد إليها أرواحها بعد مفارقتها ويعيدها كما بدأها .

قال تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾[4] .

فهو سبحانه يعيد هذا الخلق بجواهره بل وأعراضه على المعتمد كما بدأه أول مرة وليس فى هذا شىء من المحالات العقلية ولا المناقضات الفكرية .

وذلك أن العاقل إذا اتبع نظراته العابرة فى العالم الإنسانى وتكويناته الخلقية وتطوراته وتقلباته فى تلك الأدوار وتغيراته فى تلك الأطوار .

وهكذا أجال نظره فى عالم النبات وانفلاق تلك النواة الدفينة فى بطن الأرض بقدرة البارى-تعالى- عن شجرتها وفروعها وأغصانها وثمراتها ، ثم جعل ينتقل فى عجائب الأرض ، وعظمة السموات ومافيها من المبدعات ، فإنه حينئذ تتجلى له حقائق قدرة البارى-تعالى-ويشاهد آيات إبداعه وخلقه ، ويعلم يقينا أن من قدر على بدء الخلق لهو القادر على إعادتهم بلا ريب .

ولقد جاء القرآن العظيم بطرق واضحة ، تثبت أمر المعاد الجسمانى والروحانى ألا وهى طريقة

---

(١) الرعد الآيات : ١ ـ ٥

(٢) المؤمنون الآيتان: ١٥ ، ١٦

(٣) الروم آية : ٢٧

(٤) الأعراف من الآية : ٢٩

البرهان وطريقة العيان ، وليس بعد البرهان والعيان دليل وتبيان وتلك الحجج القرآنية هى المحجة البيضاء التى لا تعشو فيها الأبصار ولا تتخبط فيها العقول والأفكار .

الطريقة الأولى : النظر فى الآيات الآفاقية والنفسية قال الله تعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد * قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج * أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج * كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كلٌ كذب الرسل فحق وعيد * أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من الخلق جديد ﴾(١) .

إذا أمعن القارىء فى هذه الآيات الكريمة ، وتدبر مافيها ، يتضح له وجه المناسبات الحكيمة ، وأنها كلها براهين قطعية ، وأدلة عيانية ، شاهدة على أن الإعادة حق ، وأن الله على كل شيء قدير ، وأنه لايعجزه شيء ، وذلك أن للإعادة أشباها ونظائر ، يتقلبون فيها ويشاهدونها بأعينهم ، فعلام يعجب الجاحدون ،وينكر المنكرون ؟

﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ﴾ .

استبعدوا الرجعة بعد الموت ، وتفرق الأجزاء وبلاها ، فجاءهم الجواب :

﴿ قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ وذلك أن ماتأكله الأرض من أجزائهم هو معلوم عند الله-تعالى- لا يغيب مهما تباعد وتفرق ، فهو سبحانه يعلم كل جزء عمن انفصل ، وبمن كان اتصل ، وأن تلك الأجزاء كلها محفوظة فى كتاب جمعها كلها ، فهى وإن غابت عن أبصار أهل الدنيا لكنها محفوظة فى ذلك الكتاب الذى عنده سبحانه بذواتها وذراتها فإن استبعدوا ذلك بالنسبة للقدرة ، فهذه السماوات والأرض ، أكبر خلقا منهم وأشد ، فإن كانوا يرون أن الإعادة ليست أكبر من البدء ؛ فالذى قدر على البدء يقدر على الإعادة .

وإن كانوا يرون أن الإعادة أكبرمن البدء وأعظم ، فلقد خلق الله-سبحانه-ماهو أكبر منهم وأشد خلقا منهم ، وهى السماوات والأرض المشهودة لديهم بأعينهم .

إلى هذا يرشد سبحانه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ﴾

أي:وهى الجبال التى نصبها سبحانه ، وأودع فيها ماأودع من خزائن ومعادن وخصائص .

﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة ﴾ للمستبصرين(وذكرى) للمتذكرين. ومايتبصر ويتذكر إلا

---

(١) سورة « ق » الآيات: من ١ : ١٥

كل عبد منيب .

ولذا قال سبحانه : ﴿ وذكرى لكل عبد منيب ﴾

ثم بين الله -تعالى- فى سياق الحجة على منكرى الإعادة بعد الموت ، فقال سبحانه :
﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * إلى قوله تعالى * كذلك الخروج ﴾

وهكذا الدليل يثبت قدرة الله -تعالى- ويثبت عظمة القدرة الإلهية وسعتها .

وهذا الدليل يقرب أمر الإعادة ، ويبين أن لها نظائر وأشباها مشهورة أمامهم .

* الحبة والنواة *

وذلك أنه سبحانه أنبت فى هذه الأرض من حبة أو نواة دفينة فى بطنها أصنافا من زروع وأشجار وثمار على مختلف ألوانها وطعمها وتنوع منافعها ، وذلك دليل باهر يبصر به أرباب البصائر ، ويستدل به أولو العقول على إثبات البعث ، وكيفية الإعادة لهذا الجسم ، الذى تحتفظ الأرض بأجزائه ، مهما تفرقت وتبددت وتباعدت ، ومن تلك الأجزاء الدفينة ينشىء الله -تعالى- النشأة الآخرة .

ولذا قال سبحانه : ﴿ كذلك الخروج ﴾ أى:مثل هذا الإخراج المشهود المعاين أمامكم من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب ، فيخرجكم من الأرض بعدما غيبتم فيها ودفنتم فى أنحائها وبطونها .

* تكذيب الجاحدين *

ثم إنه سبحانه بين فى قوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ الآيات - أن إنكار المعاد وتكذيب الرسل : هو عادة كل جبار عنيد ، يكذب بالحق بعدما تبين ، وينكر الواقع بعد مااتضح ، فلا فائدة فى الجدل معه فإنه لايستخرج منه العناد إلا سطوة رب العباد ، وأخذه بالعذاب والعقاب .

(كل كذب الرسل فحق وعيد)

ثم بين سبحانه وتعالى دليلا نفسيا على إثبات الإعادة لهذا الخلق ، بأنه سبحانه لما بدأ هذا الخلق لم يعى ، ولم يمسسه لغوب ولا تعب ، فيعجز عن إعادته ثانيا ، فإن كانوا قد عموا وصموا عن الأدلة السابقة كلها: السماوية والأرضية ،فليفكروا فى أنفسهم،وليتعقلوا فى نشأتهم الحاضرة التى هم فيها ،فإنهم الآن يتقلبون فى خلق جديد يتجدد عليهم . غير أنهم قد التبس الأمر عليهم ، فظنوا أنهم هم فى كل حال ، وأنهم لايعتريهم تبديل ولا تحويل ولا تخليق جديد ، ولكن الأمر ليس بذلك ، بل إنهم فى كل لحظة ، بل فى أقل من أجزاء اللحظة ، تفنى منهم أجزاء خلقية وجواهر فردية ، ويخلق الله -تعالى- غيرها ، ويجدد عليهم وجودها ، وهكذا وهكذا . .

وهذا الأمر لايخالف فيه إلا جاهل مكابر

* أطوار خلق الإنسان *

إن الله خلق الإنسان أولا نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة،ثم جنينا،ثم طفلا ، ثم مراهقا ، ثم شابا، ثم كهلا ، ثم شيخا،ثم هرما فانيا .

ومن المقطوع البديهى أنه لم يتنقل من طور إلى طور دفعة واحدة ، بل مرت عليهم لحظات وساعات فنيت منهم أجزاء ، وتجددت فيهم أجزاء أخرى شيئا فشيئا تدريجيا ، حتى انتقل إلى الطور الثانى ، وهكذا دواليك ، ولكن لم يتبين له ذلك التجديد والتحويل .

قال الله تعالى : ﴿ مالكم لاترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا ﴾[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[2]

فلا فرق بين تلك الأطوار التى يقلبكم فيها بالنسبة لقدرته سبحانه وتعالى ، ولا يعجزه شىء فى ذلك ، بل إن جميع ذلك يسير عليه ، وهو على جميع ذلك وغير ذلك قدير وقال الله تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

* المجادلة فى البعث *

روى ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس-رضى الله عنهما-: أن العاص بن وائل الجاهلى ، أخذ عظما من البطحاء ففته بيده ، ثم قال لرسول الله ـ ﷺ ـ : أيحيى الله هذه بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ : (نعم ، يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم)[4] . فنزلت هذه الآيات ردا عليه وعلى أمثاله .

---

(١) سورة نوح الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة المؤمنون الآيات:١٢ ـ ١٦

(٣) سورة يس الآيات:٧٧ ـ ٨١

(٤) انظر تفسير الطبرى:٢١/٢٣ .

وروى أن القائل ذلك هو أبى بن خلف ، فجاء الجواب القرآنى على هذه الشبهة الفاسدة بوجوه :

١ - أن هذا الضال استبعد الإعادة والحياة فى عظام رفات ، وترك نفسه من الاعتبار ، فإن الله-تعالى الذى خلق الإنسان ونقله من العدم إلى الوجود - لهو قادر على الإعادة ، فما لهذا الضليل نسى خلقه بعد العدم ، فراح ينكر حياته بعد الموت ؟

٢ - ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[1] . فإن إيجاد البادىء أصعب فى مطرد العادة والعرف من رد شىء كان إلى ما كان عليه من ذى قبل : يعنى أن القادر على البداية هو قادر من باب أولى على الإعادة .

٣ - ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ فإن جميع أجزاء الإنسان مهما تفرقت وتباعدت ، فإنها معلومة عند الله تعالى ، محفوظة عنده ، ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾[2] . ولا يلتبس عليه شىء .

٤ - ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾[3].

وفى هذا دليل على أن هناك قوة تتغلب على المتنافرين المتناقضين ، وهما : الأخضر الحى ، والنار اليابسة - ألا وهى : قدرة الله-تعالى- الذى يستخرج الشىء من ضده ، بل من نقيضه . .

٥ - أن الذى أبرز النار التى كانت كامنة فى الشجر والحجر ، فأظهرها بالقدح ، وأشعلها بالنفخ - لهو قادر على أن يبرز الميت الدفين فى التراب الكامن فى الخبايا الأرضية . بسبب أنه سبحانه يأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ فى الصور ، والنقر فى الناقور .

الطريقة الثانية من الحجج التى أقامها الله-تعالى-على عباده ، وأثبت لهم فيها قدرته على إعادة الخلق بعد موتهم هى : طريقة الشهود والعيان ، وهى أن الله-تعالى-أجرى فى ذلك أمورا فعلية ، حيث أمات فيها طوائف من الإنسان ومن الحيوان ومن الطيور . ثم أحياهم بعد موتهم على مشهد ومرأى من الناس ليعلموا أن الذى أعاد ذلك بعد الموت ، لهو قادر على أن يعيد الأموات كلهم بعد موتهم .

وقد أخبر القرآن عن تلك الوقائع ، وبين أنها أمور معلومة ومشهودة لدى الأمم الماضية .

* قوم أحياهم الله بعد موتهم *

فمن ذلك القوم الذين أخبر الله-تعالى-عنهم بقوله : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف : أن هؤلاء القوم أهل بلدة من زمان بنى إسرائيل ، استوخموا أرضهم ، وأصابهم بها وباء شديد ، فخرجوا فرارا من الموت هاربين إلى

(١) الآية : ٧٩ من سورة يس .
(٢) الآية : ٥٢ من سورة طه .
(٣) الآية : ٨٠ من سورة يس .

البرية ، فنزلوا واديا أفيح - واسعا - فملأوا ما بين عدورتيه ، فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه ، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم : ثم إنهم تفرقت أجزاؤهم وتمزقت فلما كان بعد دهر مر بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له:(حزقيل) فسأل الله تعالى- أن يحييهم على يديه ، فأجابه إلى ذلك وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾[1] .

أى:فيما يريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة ، والدلالات الدامغة ، التى تثبت أن الله -تعالى- قادر على إعادة الأموات بلا ريب .

* أصحاب موسى عليه السلام *

ومن ذلك أيضا : السبعون الذين اختارهم موسى-عليه الصلاة والسلام-للميقات الذى وعده الله -تعالى-إن يكلمه فيه ، وينزل عليه التوراة ، أماتهم الله -تعالى- ثم أحياهم .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك ﴾[2] . أى بأن الله-تعالى-أعطاك التوراة ، أو أن الله تعالى قد كلمك .

﴿ حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ﴾ أى:نار من السماء أحرقتهم ، أو صيحة سماوية خروا لها صعقين ميتين يوما وليلة .

﴿ وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾[3] .

وكان بعثهم بعد موتهم بسبب دعاء موسى-عليه الصلاة والسلام- ومناشدته ربه .

* دحض شبهة باطلة *

ولا يتنافى موت هؤلاء الذين تقدم ذكرهم فى الدنيا مرتين مع قوله تعالى : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ﴾[4] . لأن موتهم إذ ذاك لم يكن عن استيفاء آجالهم ، وإنما هو موت عقوبة ، فكأنه ليس بموت ، أى:إنه عارض أعقبه حياة فى الدنيا نفسها لا فى عالم آخر ، فلا يختلف مع الآية الثانية .

* قصة العزير *

ومن ذلك : أيضا قصة العزير،عليه السلام - أماته الله-تعالى-مائة عام ثم بعثه ، قال الله تعالى :

---

(١) من الآية:٢٤٣ من سورة البقرة .
(٢) من الآية: ٥٥ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ٥٥ ، والآية : ٥٦ .
(٢) من الآية:من سورة غافر ١١ .

﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال : كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾[1] .

قال جمهور السلف ـ رضى الله عنهم : إن هذا الذى مر على قرية هو (العزير) أحد أنبياء إسرائيل ، مر على بلد بيت المقدس ، بعدما دخلها (بختنصر) وخربها ، فرآها العزير وهى خاوية على عروشها ، أى : ساقطة على سقوفها باعتبار أن سقوف البيوت تسقط أولا ، ثم تهتدم الجدران وتتساقط عليها ، أى : على السقوف .

قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟؟

قال ذلك استعظاما للأمر ، وتفخيما من عظمة قدرة الله ـ تعالى ـ القدير على كل شىء ، لا من باب الاستبعاد والإنكار .

وذلك نظير قول زكريا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما أخبر الله ـ تعالى ـ عنه لما بشر بالغلام : **﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾**[2] . يعنى : أن ذلك الأمر عظيم ، جدير بان يتعجب من عظمته وفخامته .

﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ : أحياه بعد موته **﴿ قال كم لبثت ﴾** ؟ وهذا السؤال ورد لإظهار عجز العزير وغيره من الإحاطة بشئون الله ـ تعالى ـ وعظيم قدرته .

﴿ قال لبثت يوما أو بعض يوم ﴾ .

وإنما قال ذلك لأنه مات ضحى النهار وبعث بعد المائة قبل الغروب ، فقال قبل أن ينظر الى الشمس : **﴿ يوما ﴾** ثم التفت فرأى أن الشمس لم تغرب ، بل آثار أنوارها على الأماكن العالية ، فقال : **﴿ أو بعض يوم ﴾** على طريق الاضراب .

﴿ قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ .

أى : لم يتغير فى هذه المدد الطويلة والسنين العديدة ، وكان طعامه على ما روى عنبا وتينا ، وشرابه عصيرا أو لبنا .

﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ : كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله ، وهكذا أمره الله ـ تعالى ـ أن ينظر أولا إلى طعامه وشرابه ، لم يتغير ، حتى يبين له أن الذى حفظ له طعامه وشرابه من التغير والفساد على طول السنين المائة ، هو الذى حفظ العزير من التغير ، ومن أن تأكله الأرض ، وتفسده على مر السنين العديدة ، بل أبقى له جسمه بعد موته وحفظه ، من البلى ، لأنه الله ـ تعالى ـ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

وأمره الله ـ تعالى ـ أن ينظر ثانيا إلى حماره ، وقد بلى وتفرق وتمزق ليزداد يقينا بأنه مر عليه مائة سنة .

---

(١) الآية : من سورة البقرة ٢٥٩

(٢) الآية : من سورة مريم ٨

ثم قال تعالى له : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أى عبرة ودليلا على قدرة الله تعالى ، على احياء الأموات وبعثها ، وانه سبحانه قادر أن يحفظ أجساد من أراد حفظهم ، وانه سبحانه قدير على كل شىء ، ولا يعجزه شىء .

ثم قال له : ﴿ وانظر إلى العظام ﴾ أى عظام الحمار البالى المتفرقة أوصاله وعظامه ﴿ كيف ننشزها ﴾ أى كيف نرفعها عن الأرض ونركبها فوق بعضها ونعيدها كما كانت قبل الموت والتمزق ﴿ ثم نكسوها لحما ﴾ أى نستر العظام باللحم .

﴿ فلما تبين له ﴾ اتضح له ايضاحا تماما ، وعاين كيفية الاحياء ﴿ قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ وذلك علم رؤية وعيان ، فوق ما انا عليه من اليقين والإيمان .

* إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام *

ومن ذلك : قصة إحياء الطيور على يد الخليل سيدنا ابراهيم ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم بعد قصة العزير عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن ! قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾[1] .

اختلفت الأخبار المنقولة عن علماء السلف رضى الله عنهم فى سبب سؤال الخليل ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ربه ان يريه كيفية إحياء الموتى .

فجاء عن الحسن البصرى والضحاك وقتادة وغيرهم : أن الخليل عليه الصلاة والسلام سأل ربه ذلك لينقل من مرتبة علم اليقين الى عين اليقين .

وقد جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : (ليس الخبر كالمعاينة ، ان الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت)[2] .

وروى عن ابن عباس والسدى وسعيد بن جبير ان الملك بشر الخليل عليه السلام بأن الله تعالى قد اتخذه خليلا ، وأنه يجيب دعوته ، وانه يحيى الموتى بدعائه ، فلذلك سأل الله ما سأل .

وروى عن محمد بن إسحق ان سبب سؤال الخليل ذلك ـ هو منازعة النمرود إياه فى إحياء الموتى ، حين قال له الخليل : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾[3] .

ورد على النمرود زعمه أن العفو عن المجرم هو إحياء له وان تنفيذ القتل فيه إماتة له ، وراح النمرود يتوعد الخليل بالقتل ان لم يحى الله الموتى على يد الخليل بحيث يشاهد النمرود ذلك ، فدعا سيدنا الخليل ربه حينئذ فقال : ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن ﴾[4] . أى ألم تعلم وتؤمن بأنى قادر على الاحياء كيف أشاء حتى تسألنى عنه ؟

---

(١) الآية من سورة البقرة : ٢٦٠
(٢) أخرجه الإمام احمد ج ١ ص٢١٥ ، ص٢٧١
(٣) الآية من سورة البقرة : ٢٥٨
(٤) الآية من سورة البقرة : ٢٦٠

أولم تؤمن بأنى قد اتخذتك خليلا ؟

أولم تؤمن بأن الجبار النمرود لا يستطيع أن يقتلك ؟ ﴿ قال بلى ﴾ أى أنا مؤمن بذلك ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ بانضمام رؤية العيان الى الايمان بأنك القادر على ذلك ، وليطمئن قلبى بالخلة التى تفضلت بها على ، وأكرمتنى بها وبلوازمها ، من إجابة الدعاء وما وراء ذلك . أو ليطمئن قلبى بأن الجبار لا يقتلنى بعدما يشاهد كيفية إحيائك للموتى على يدى .

وعلى كل ، فسؤال الخليل لم يكن عن شك أصلا ، بدليل قوله : ﴿ أولم تؤمن قال بلى ﴾ أى : أنا مؤمن ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ .

وقد قطع النبى ﷺ دابر الوهم الذى يتلاعب فى بعض الخواطر ، فقال كما فى الصحيحين عن أبى هريرة : (نحن أحق بالشك من ابراهيم عليه السلام اذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى)[1] .

ويعنى بذلك - ﷺ - أنا لم نشك أصلا . فكأنه ﷺ يقول : إن شك ابراهيم فنحن أحق بالشك ولكنا نحن لم نشك ، فإبراهيم لم يشك ، صلوات الله تعالى على حبيبه وخليله وآلهما أجمعين .

قال سبحانه : ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ أى مختلفة الأنواع .

وإنما خص الطير بذلك لسهولة ما يفعل بها من التجزئة والتوزيع والتفرقة على الجبال ، ففى جمعها وإعادتها وإحيائها مزيد ظهور لقدرته سبحانه وتعالى . ﴿ فصرهن ﴾ أى قطعهن أجزاء واضممهن ﴿ إليك ﴾ واجمعهن ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ .

وبهذا أمر الله تعالى الخليل عليه السلام ان يذبح تلك الطيور ويقطعها إربا إربا ، ويجزئها ما استطاع ، يخلطها الى بعضها ، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا .

﴿ ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ أى ساعيات مسرعات فى العدو والعودة اليك .

والحكمة فى سعى الطيور اليه مشيا دون الطيران اليه هى انه لو طارت لتوهم متوهم انها غير الطيور الميتة التى ذبحها ومزقها ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ غالب لا يعجزه شىء ، حكيم يضع الأشياء فى مواضعها .

وفى هذا دليل على ان هذا الأمر كان على مشهد من الناس وعلى مرأى من النمرود ، ليكون حجة للخليل عليه السلام ، قائمة على النمرود وأتباعه .

ولذلك جاءت هذه القصة بعدما ذكر الله تعالى المحاجة التى جرت بين الخليل والنمرود .

قال سبحانه :

﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ﴾[2] . الآية .

فهذه وقائع ثابتة أجراها الله تعالى وأوقعها ليقيم الحجة على العباد ، وليبين لهم أنه قادر على إحياء

---

(١) أخرجه الامام مسلم فى كتابه الفضائل رقم ١٥٢ ، ٥١ ص١٨٣٩ط الحلبى

(٢) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

الموتى-سبحانه- وإعادتهم الى حياة جديدة فى عالم آخر يوم القيامة ، أى :

﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾(١) .

* البعث فى القرآن الكريم *

لما كانت قضية البعث من أكثر القضايا جدلا عند ذوى القلوب المريضة ، فإن القرآن الكريم بسط القول فيها بسطا لا يكاد يدع لمرتاب شبهة ، إلا أن يكون فى أذنيه وقر ، وقلبه فى أكنة ومن بينه وبين الحق حجاب .

نرى القرآن الكريم فى بعض مواضعه يقدم الأدلة على القضية وأحيانا يقدم القضية ثم يقيم الأدلة عليها .

ففى سورة الحج يقدم القرآن العظيم الأدلة ثم يذكر النتيجة .

* عالم الأرحام *

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

ثم يستنتج القرآن من هذه الأدلة خمس نتائج :

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾(٢) .

﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾(٣) .

﴿ وأنه على كل شىء قدير ﴾(٤) .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾(٥) .

﴿ وأن الله يبعث من فى لقبور ﴾(٦) .

وهذه أضواء فى تفسير تلك الآيات البينات ، يذكرها لنا العلامة ابن كثير فيقول :

لما ذكر تعالى المخالف للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد ، بما يشاهد من بدئه للخلق فقال : ﴿ ياأيها الناس إن كنتم فى ريب ﴾ أى فى شك ﴿ من البعث ﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ أى أصل برئه لكم من تراب وهو الذى خلق منه آدم عليه السلام ﴿ ثم من نطفة ﴾ أى جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ .

(١) الآية ٦ من سورة المطففين .
(٢) من الآية من سورة الحج ٦
(٣) من الآية من سورة الحج ٦
(٤) الآية من سورة الحج ٦
(٥) الآية من سورة الحج ٧
(٦) الآية من سورة الحج ٧

وذلك انه اذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوما كذلك ، يضاف اليه ما يجتمع اليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوما ، ثم تستحيل فتصير مضغة . (قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط) .

ثم يسرع فى التشكيل والتخطيط فيصور منها رأسا ويدين وصدرا وبطنا وفخذين ورجلين وسائر الأعضاء .

فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى **﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾** أى كما تشاهدونها **﴿ لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾** أى وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، كما قال مجاهد فى قوله : **﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾** قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق .

فإذا مضى عليها أربعون يوما وهى مضغة أرسل الله تعالى ملكا اليها فنفخ فيها الروح وسواها ، كما يشاء الله عز وجل : من حسن وقبح ، وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقيا أو سعيدا ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : (وإن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح)[1] .

وروى ابن حاتم وابن جرير من حديث داود أبى هند عن الشعبى عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت فى الرحم جاءها ملك بكفه فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة فإن قيل : غير مخلقة ، لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دما . وإن قيل : مخلقة قال : أى رب ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله ، فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله ، فيقال له : اذهب الى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال : فتخلق فتعيش فى أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك . ثم تلا عامر الشعبى **﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾** .

فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى ، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار ، عن أبى الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد ، يبلغ به النبى ﷺ قال : (يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر فى الرحم بأربعين يوما أو خمسا وأربعين يوما فيقول : أى رب أشقى أم سعيد ؟ فيقول الله ويكتبان . فيقول : أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ويكتبان . ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله ، ثم تطوى

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم ٢٦٤٣ كتاب القدر .

الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص)[١] . ورواه مسلم من حديث سفيان بن عينيه ، ومن طريق آخر عن أبي الطفيل بنحو معناه .

وقوله : ﴿ ثم نخرجكم طفلا ﴾ أى :ضعيفا فى بدنه وسمعه وبصره ، وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ، ويلطف به ، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار . ولهذا قال:﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أى:يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر .

﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أى:فى حال شبابه وقواه .

﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم والضعف : ضعف القوة والفهم وتناقص الأحوال وضعف الفكر ولهذا قال : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ .

كما قال تعالى:﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾[٢] .

* منح إلهية للطائعين *

قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده : حدثنا منصور بن أبي مزاحم ، حدثنا خالد الزيات ، حدثنى داود أبو سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصارى عن أنس بن مالك رفع الحديث قال :

(المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالديه ، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه ، فإذا بلغ الحنث أجرى الله عليه القلم ، وأمر الملكين اللذين كانا معه أن يحفظا وأن يشددا ، فإذا بلغ أربعين سنة فى الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث : الجنون والجذام والبرص . فإذا بلغ الخمسين خفف الله حسابه . فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء . فإن بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه فى أهل بيته وكتب أمين الله ، وكان أسير الله فى أرضه . فإذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير . فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه)[٣] . رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده موقوفا ومرفوعا .

فقال : حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج ، حدثنا محمد بن عامر عن محمد بن عبد الله العاملى عن عمرو بن جعفر عن أنس قال : (إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة أمنه الله من أنواع البلايا : من الجنون والبرص والجذام ، فإذا بلغ الخمسين لين الله حسابه ، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه

---

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم ٢٦٤٤ كتاب القدر ، والإمام أحمد (حديث حنيفة بن أسيد ج٤ ص٧
(٢) الآية ٥٤ من سورة الروم .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ٢١٨/٣

عليها ، وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء ، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحا عنه سيئاته ، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله فى أرضه وشفع فى أهله) .

ثم قال : حدثنا هشام ، حدثنا الفرج ، حدثنى محمد بن عبد الله العامرى عن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان عن عبد الله بن عمر بن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ مثله .

ورواه الإمام أحمد أيضا : حدثنا أنس بن عياض ، حدثنى يوسف بن أبى بردة الأنصارى عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (ما من معمر يعمر فى الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء : الجنون والبرص والجذام)[1] . وذكر تمام الحديث كما تقدم سواء .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله بن شبيب عن أبى شيبة عن عبد الله بن عبد الملك عن أبى قتادة العدوى عن ابن أخى الزهرى عن عمه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

(ما من عبد يعمر فى الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء : الجنون والجذام والبرص،فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب ، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله وأحبه أهل السماء ، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله فى الأرض وشفع فى أهل بيته) .

* دلالة إحياء الأرض على البعث *

وقوله : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى المقحلة التى لا ينبت فيها شىء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدى : ميتة .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ :

أى:فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت ، أى:تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ﴿ وربت ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى : ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أى:حسن المنظر طيب الريح .

وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أى :الخالق المدبر الفعال لما يشاء .

﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ أى:كما أحيا الأرض الميتة وأنبتت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذى أحياها

(١) أخرجه الإمام أحمد ج٣ ص٢١٨

لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[١] .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أى كائنة لاشك فيها ولا مرية .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ : أى يعيدهم بعدما صاروا فى قبورهم رمما ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾[٢] .

والآيات فى هذا كثيرة .

قال الامام أحمد : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبى رزين العقيلى واسمه لقيط بن عامر انه قال : (يارسول الله : أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : (أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليا به ؟) قلنا : بلى . قال : (فالله أعظم) قال : قلت يارسول الله : كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال (أما مررت بوادى أهلك ممحلا) ؟ قال : بلى قال : ثم مررت به فاهتز خضرا ؟ قال : بلى . قال : (فكذلك يحيى الله الموتى وذلك آيته فى خلقه) .

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به .

ثم رواه الامام أحمد أيضا : حدثنا على بن إسحق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبى رزين العقيلى قال : (أتيت رسول الله ﷺ وقلت : يارسول الله : كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : (أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة ثم مررت بها مخصبة ؟ قال : نعم . قال : كذلك النشور)[٤]. والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عيسى بن مرحوم حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن أبى الحجاج عن معاذ بن جبل قال : (من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور دخل الجنة) .

وهكذا انتهى النموذج الأول من نماذج إثبات البعث فى القرآن الكريم بتقديم الأدلة ، ثم إثبات النتيجة .

* النموذج الثانى فى الاستدلال على البعث *

أما النموذج الآخر ، فإنه يبدأ بقضية البعث ، ثم يقيم الأدلة الكونية والآفاقية على أنه حق واقع .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يس

(١) الآيات ٧٨ - ٨٠ من سورة يس .

(٢) أخرجه الامام أحمد ٤/ ١٢٤١١ وابن ماجه رقم ١٨٠ ج١ ص٦٤ ، وابو داود برقم ٤٧٣١ ص٩٩ ، ص١٠٠ ج٥

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٤/ ١١

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾[١] ؟

تلك هى القضية التى أقام القرآن الأدلة القطعية على ثبوتها ووقوعها ، فأقام خمسة أدلة :

١ - ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٢] .

٢ - ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾[٣] .

٣ - ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾[٤] .

٤ - ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[٥] .

٥ - ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[٦] .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآيات كلاما جليلا وجميلا .

يقول رحمه الله تعالى : قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة : (جاء أبى بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يذروه فى الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار)[٧] .

* القرآن هدى ورحمة *

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن ذكر سبحانه ما يتعلق بالنشأة الأولى وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وما يتصل بالبعث والنشور ، وأقام على ذلك الدليل يتلو الدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ، أردف ذلك

(١) الآيات ٧٧ - ٧٨ من سورة يس
(٢) الآية ٧٩ من سورة يس .
(٣) الآية ٨٠ من سورة يس .
(٤) الآية ٨١ من سورة يس .
(٥) الآية ٨٢ - ٨٣ من سورة يس .
(٦) الآية ٨١ - ٨٣ من سورة يس .
(٧) انظر تفسير الطبرى ٢١/٣٢

الكلام فى نبوة محمد ﷺ ، وأقام الأدلة على صحتها ، وصدق دعواه فيما يدعى ، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم ،لاجرم بين الله تعالى فصاحته وبلاغته وإعجازه من وجوه :

(١) أن ما فيه من القصص موافق لما فى التوراة والإنجيل مع أنه كان ﷺ أميا ولم يخالط أحدا من العلماء للاستفادة والتعلم ، فلا يكون ذلك إذن إلا من وحى إلهى من لدن حكيم خبير .

(٢) أن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر فى دنياهم وآخرتهم - لا يوجد له نظير فى كتاب آخر ، فلابد أن يكون ذلك من عند الله .

(٣) أنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص ، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر ، وأنه من الملأ الأعلى ومن لدن خالق القوى والقدر .

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكما على بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه ، فأبان لهم الحق فى هذا كاختلافهم فى أمر المسيح ، فمن قائل هو الله،ومن قائل هو ابن الله،ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، وقوم يقولون إنه كاذب فى دعواه النبوة ، كما نسبوا مريم إلى ما هى منزهة عنه ، وقالوا:إن النبى المبشر به فى التوراة هو (يوشع) عليه السلام أو هو نبى آخر يأتى آخر الدهر ، إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه ، وأنه لا يحكم إلا بالعدل فقوله الحق وقضاؤه الفصل .

ثم أمر رسوله ﷺ أن يتوكل عليه فإنه حافظه وناصره ، وأن يعرض عن أولئك الذين لا يستمعون لدعوته ، لأنهم صم بكم لا يعقلون ، والذكرى لا تنفع إلا من له قلب يعى ، وآذان تسمع دعوة الداعى إلى الحق ، فتستجيب لها .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾ :

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن الكتاب الكريم والقرآن العظيم ، بما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان ، أنه يقص على بنى إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ **أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾ كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل ، أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام - كما قال تعالى : ﴿ **ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون** ﴾[١] .

قوله تعالى:﴿ **وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ أى:هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم فى العمليات وذلك كقوله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾[٢] .

وقوله:﴿ **ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾[٣] .

(١) الآية ٣٤ من سورة مريم .
(٢) الآية ٩ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس .

وقوله: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾[١] .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همنا وذهاب حزننا . .

ثم قال تعالى :

﴿ إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز الحكيم ﴾ أى:يوم القيامة ﴿ بحكمه وهو العزيز ﴾ أى:فى انتقامه ﴿ العليم ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

سبحانه إذا أراد قضى المراد ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ .

أى:كل جميع أمورك إلى الله ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٢] .

فمن اعتمد على ماله قل ، ومن اعتمد على الناس مل ، ومن اعتمد على علمه ضل ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على ذكائه زل ، ومن اعتمد على عقله اختل ، ومن اعتمد على الله فلا قل ولا مل ، ولا ضل،ولا ذل ولا زل ولا اختل .

﴿ إنك على الحق المبين ﴾ إنه القرآن العظيم والإسلام النظيف قال تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾[٣] . وقال : ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٤] .

وقال :﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾[٥] .

قوله تعالى:﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ .

أى:لا تسمعهم شيئا ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى:﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أى:إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع فى القلب ، والبصيرة ، الخاضع لله ، وكما جاء عنه على ألسنة الرسل-عليهم السلام-.

* خروج الدابة *

۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

---

(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .

(٣) من الآية ١٤ من سورة الرعد .

(٤) من الآية ٢٥ من سورة النور .

(٥) الآية ٦٢ من سورة الحج .

* التفسير *

ورد فى ذكر هذه الدابة أحاديث ذكرها المفسرون بيانا وتفسيرا .

قال الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم-عليه السلام-والدجال وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا)[1] .

(طريق أخرى) : عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - ثم تكمن زمنا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها فى أهل البادية ويدخل ذكرها القرية) يعنى مكة قال رسول الله ﷺ : (ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شىء ومعا ، وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجلت وجوههم ، حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى وولت فى الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب ، حتى أن الدجال ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : يافلان الآن تصلى فيقبل عليها فتسمه فى وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ويصطحبون فى الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى أن المؤمن ليقول يا كافر اقضنى حقى،وحتى أن الكافر ليقول يا مؤمن اقضنى حقى)[2] .

● قال مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا)[3] .

● روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة-رضى الله عنه-أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخاصة أحدكم)[4].

● عن أبى هريرة-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ:(تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان-عليهما السلام-فتخطم أنف الكافر بالعصا وتجلى وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر)[5] .

قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة ان ابن عباس قال : (هى دابة ذات زغب لها أربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٧ وأخرجه مسلم برقم ٢٩٠١/٣٩ ج٤ ص٢٢٢٦ .
(٢) الدر المنثور ٥/ ١١٦ .
(٣) أخرجه الامام مسلم ج٤ ص٢٢٦٠ برقم ١١٨/ ٢٩٤١
(٤) أخرجه الامام مسلم ج٤ ص٢٢٦٧ برقم ١٢٨/ ٢٩٤٧
(٥) الدر المنثور ٥/ ١١٦

قال محمد بن اسحق عن إبان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة فقال (الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد والله لو كنت معهم أو لو شئت بعصاى الصخرة التى تخرج الدابة من تحتها قيل فتصنع ماذا ياعبد الله بن عمرو فقال تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان قيل ثم ماذا قال ثم لا أعلم) .

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك :

قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن على رضى الله عنه (تكلمهم كلاما) أى :تخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراسانى تكلمهم فتقول لهم : (إن الناس كانوا بآياتنا لا يؤمنون) .

وهناك أقوال أخرى فى بيان تلك الدابة ضربنا الذكر عنها صفحا لضعفها ولأن فى سنة رسول الله ﷺ التى بينت تلك الآية الجواب الكافى والدواء الشافى .

* مشاهد وعظات *

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۚ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ۚ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا

يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

* تفسير المفردات *

نحشر : أى :نجمع .
فوجا : أى :جماعة من الرؤساء .
يوزعون : أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة أولم تحيطوا بها علما : أى ولم تدركوا حقيقة كنهها .
ألم يروا : أى ألم يعلموا .
ليسكنوا فيه : أى ليستريحوا فيه ويهدأوا .
مبصرا : أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب فى أمور معاشهم .
الصور : البوق
داخرين : أى أذلاء صاغرين .
جامدة : أى ثابتة فى أماكنها .
أتقن : أى أحكم . يقال رجل تقن (بكسر التاء وسكون القاف) أى حاذق بالأشياء .
الحسنة : الإيمان وعمل الصالحات .
السيئة : الإشراك بالله والمعاصى .
كبت : أى ألقيت منكوسة .
البلد : هى مكة .
أتلو القرآن : أى أواظب على تلاوته .
من المنذرين : أى المخوفين قومهم من عذاب الله .

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أنّ ذكر سبحانه خروج الدابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لا يؤمنون بآيات ربهم ، وانه حينئذ ينفخ فى الصور فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وأن الجبال تجرى وتمر مر السحاب ، ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك وجعلهم قسمين : مطيعين يعملون الحسنات فيثابون عليها بما هو خير منها ، ويأمنون الفزع والخوف ساعتئذ ، وعاصين يكبون فى النار على وجوههم ويقال لهم حينئذ هذا جزاء ما كنتم تعملون .

وبعد أن بين سبحانه أحوال المبدأ والمعاد ، وفصل أحوال القيامة أمر رسوله أن يقول للمشركين

هذه المقالة تنبيها لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه ، ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا صلحوا أو فسدوا ، إثارة لهممهم بألطف وجه إلى تدارك أحوالهم ، وتحصيل ما ينفعهم ، والتدبر فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التى تكفى فى إرشادهم ، وتشفى عللهم وأمراضهم .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ .

هذا مشهد عصيب من مشاهد الآخرة ، إنه حشر المكذبين إلى ربهم ، وسؤالهم عن تكذيبهم بآيات الله البينات ، والحشر هو سوق العباد إلى أرض الموقف ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا * لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾[١] .

قال تعالى : ﴿ وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا * وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾[٢] .

وفى قوله تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ﴾ إخبار منه عز وجل عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدى الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا ، فقال تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ﴾ أى من كل قوم وقرن فوجا أى جماعة ﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾ .

كما قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾[٣] . وقال تعالى ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾[٤] .

وقوله تعالى ﴿ فهم يوزعون ﴾ : قال ابن عباس رضى الله عنهما يرفعون ، وقال قتادة : وزعه : ترد أولهم على آخرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون ﴿ حتى إذا جاءوا ﴾ ووقفوا بين يدى الله عز وجل فى مقام المساءلة ﴿ قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ﴾ .

أى فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم

---

(١) الآيات ٨٥ - ٨٧ من سورة مريم .
(٢) الآيات ٤٧ - ٤٩ من سورة الكهف .
(٣) الآية ٢٢ من سورة الصافات .
(٤) الآية ٧ من سورة التكوير .

﴿ فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى ﴾[١] . فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به .

كما قال تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[٢] .

وهكذا قال ههنا ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ .

أى بهتوا فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية .

فما أسوأ المصير ، وما أتعس المآب ، حيث يقال لهم ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغنى من اللهب * إنها ترمى بشرر كالقصر * كأنه جمالت صفر * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل يومئذ للمكذبين ﴾[٣] .

ما أتعس مآبهم ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[٤] .

اقرأ قوله عز وجل لترى ما سوف يحيق بالمكذبين الضالين : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾[٥] .

ثم بين الله تعالى عظيم قدرته وجليل نعمته على عباده ، وكان الواجب عليهم أن يشكروا ولا يكفروا ، وأن يؤمنوا ولا يجحدوا ، فقد ذكر سبحانه من هذه النعم آيتين عظيمتين فقال : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ أى فى ظلام الليل ، لتسكن حركاتهم بسببه ، وتهدأ أنفاسهم ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم ﴿ والنهار مبصرا ﴾ أى منيرا مشرقا ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعايش والمكاسب والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شئونهم التى يحتاجون إليها ، ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

ونحو هذه الآية قوله تعالى ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار

---

(١) الآيتان ٣١ - ٣٢ من سورة القيامة .
(٢) الآيتان ٣٥ - ٣٦ من سورة المرسلات .
(٣) الآيات ٢٩ - ٤٠ من سورة المرسلات .
(٤) الآيتان ٣٩ - ٤٠ من سورة مريم .
(٥) الآيات ١٩ - ٢٤ من سورة فصلت .

نشورا ﴾[١] .

وقوله جل شأنه ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[٢] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٣] .

وقوله عظمت حكمته ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا * وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا ﴾[٤] .

فوا عجبا كيف يعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

قوله تعالى ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين * وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

هذا إخبار منه تعالى عن الهول الذى سيعقب النفخ فى الصور ، قال سبحانه ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾[٥] .

والصور كما جاء فى الحديث (قرن ينفخ فيه) .

وفى حديث الصور إن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها ، وذلك فى آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض (إلا من شاء الله) وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

قال الإمام مسلم بن الحجاج حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبرى حدثنا أبى حدثنا شعبة بن النعمان ابن سالم سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفى سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنه

---

(١) الآية : ٤٧ من سورة الفرقان .
(٢) الآية : ١٢ من سورة الإسراء .
(٣) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .
(٤) الآيات : ٦ - ١١ من سورة النبأ .
(٥) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الزمر .

وجاءه رجل فقال : (ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ؟ أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما ـ لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا . إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يخرب البيت ويكون ويكون ، ثم قال:قال رسول الله ﷺ : (يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما ، فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه)[1] . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال (فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغر ليتا ورفع ليتا ـ قال ـ وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال : فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطرا كأنه الطل ـ أو قال الظل ـ شعبة الشاك ـ فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه اخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق) .

وقوله : (ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغر ليتا ورفع ليتا) الليت : هو صفحة العنق أى أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا ، فهذه نفخة الفزع ، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت ، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ، ولهذا قال تعالى ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ . داخرين أى صاغرين ، مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره .

كما قال تعالى ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾[3] .

وفى حديث الصور أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع فى ثقب فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورا ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى أجسادها . فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم ، قال تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾[4] .

يا أخا الإسلام

تزود من التقوى فإنك راحل ... وسارع الى الخيرات فيمن يسارع

فما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوما ان ترد الودائع

---

(١) انظر ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة) أول سورة الحج .
(٢) الآية ٥٢ من سورة الاسراء
(٣) الآية ٢٥ من سورة الروم .
(٤) الآية ٤٣ من سورة المعارج .

قوله تعالى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ .

أى تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهى تمر مر السحاب ، أى تزول عن أماكنها كما قال تعالى : ﴿ يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا ﴾[١] .

وقال تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا * فيذرها قاعا صفصفا * لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾[٢] .

وقال تعالى ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾[٣] .

وقال تعالى ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾ : أى يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿ الذى أتقن كل شىء ﴾ أى أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع .

قوله تعالى: ﴿ إنه خبير بما يفعلون ﴾ أى هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

* مبحث علمى فى الجبال *

يتحدث هذا المبحث عن عالم الجبال وهو عالم رهيب ومهيب ، كما يتضمن تفسيرا لبعض الآيات التى تتحدث عن الجبال ، فاقرأ هذا المبحث بفكر وروية ، وفقك الله للعلم النافع . تحت عنوان الجبال فى القرآن كتب الباحث الدكتور : محمد أحمد الغمراوى فى كتابه : (الإسلام فى عصر العلم) قال :

١ - الجبال والقيامة :

جاء ذكر الجبال فى القرآن بلفظها فى نحو تسع وعشرين آية ، وبوصفها أنها رواسى فى نحو تسع آيات ، ومن الآيات التسع والعشرين إحدى عشرة آية تتعلق بالقيامة وأشراطها ، هى حسب ترتيب نزول الوحى بها : المزمل ، والتكوير ، والقارعة ، والمرسلات ، وطه ، والواقعة ، والكهف ، والطور ، والحاقة ، والمعارج ، والنبأ ، ومن بين هذه الإحدى عشرة سورة أربع أنبات أن الجبال تسير فتسير ، ألا وهى : التكوير ، والكهف ، والطور ، والنبأ - فى الأربع آيات هى حسب ترتيب النزول ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾[٤] . التكوير : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾[٥] . الكهف ، ﴿ ويوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا ﴾[٦] الطور ، ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾[٧] . النبأ .

---

(١) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الطور
(٢) الآيات ١٠٥ - ١٠٧ من سورة طه .
(٣) الآية ٤٧ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٣ من سورة التكوير .
(٥) الآية ٤٧ من سورة الكهف .
(٦) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الطور .
(٧) الآية ٢٠ من سورة النبأ .

وآية سورة التكوير جاءت تتلوها آية ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ فدل ذلك على أن تسيير الجبال علامة من علامات الساعة ، أو هو بدء قيامها ، إذا العشار كانت لا تزال موجودة فى الدنيا ، وإنما أصابها التعطيل ، وهاتان الآيتان وما قبلهما وما بعدهما أحداث يتلو بعضها بعضا ، والله أعلم بفترات ما بينها وهى فى العد اثنا عشر حدثا عظيما ، وتأملها يدل على أن نصفها الأول من الأشراط ، ونصفها الثانى من الوقائع التى تكون بعد قيام الساعة فى يوم البعث ،

فتسيير الجبال حدث من الأحداث سنة عظمى ، تقع بين يدى يوم البعث ، ولذا جاء الفعل فيها مبنيا للمجهول . ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ كما جاءت أفعال الآيات العشر الأخرى فى أوائل سورة التكوير .

وتجىء آية سورة الكهف ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾(١) . بضمير المتكلم ، ضمير الجلالة ، فتدل على أن الجبال حين سيرت إنما سيرها الله سبحانه ، فبأمره قامت ، وبأمره سارت سيرا فعليا ، كما تدل عليه آية الطور ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾(٢) . ثم تجىء آية النبأ فيها الفعل مبنى للمجهول مرة أخرى ، بعد أن سبق النص بضمير الجلالة فى آية الكهف على أن المسير هو الله سبحانه ، لكن ليس فى هذه الآيات الثلاث بترتيب نزولها هذا ما يدل على مصير الجبال بعد مسيرها حتى تأتى رابعة آيات التسيير آية سورة النبأ : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾(٣) . فتنبىء بأن الجبال حين تسير فتسير إنما ينتهى بها سيرها إلى الفناء ، فلا يبقى لها من الوجود الذى كان إلا كالوجود الذى يكون فى السراب .

هذه أربع آيات كريمة يجمع بينها اشتراكها فى ذكر ظاهرة تقع بالجبال عند الرجفة الأولى بين يدى يوم البعث يوم القيامة الكبرى وهناك أربع آيات أخرى تتعلق بظاهرة أخرى تقع أيضا بالجبال هى ظاهرة النسف . . هذه الآيات الأربع هى بترتيب النزول ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾(٤) . ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾(٥) .

﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا * فيذرها قاعا صفصفا * لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾(٦) .

و ﴿ إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا ﴾(٧) .

والآيات الأربع المقصودة هى طبعا التى ذكرت الجبال فيها بلفظها ، وقد ذكر معها من الآى ما يزيد موضوعها وضوحا ، وقد ذكر النسف صراحة فى الآيتين الثانية والثالثة وذكر بمعناه فى الآية الرابعة أما الآية الأولى آية المزمل فهى تمهد للنسف بذكرها مقدمته من صيرورة الجبال كثيبا مهيلا ، إذ من الواضح أن الجبال إذا صارت كثيبا مهيلا فقد أعدت لأن تنسف نسفا وتكون هباء منبثا ومن هنا ألحقت آية المزمل بالآيات الثلاث الأخرى ، وإن لم يذكر فيها النسف لا باللفظ ولا بالمعنى .

---

(١) من الآية ٤٧ من سورة الكهف .
(٢) من الآية ١٠ من سورة الطور .
(٣) الآية ٢٠ من سورة النبأ .
(٤) الآية ١٤ من سورة المزمل .
(٥) الآية ١٠ من سورة المرسلات .
(٦) الآيات ١٠٥ ـ ١٠٧ من سورة طه .
(٧) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة الواقعة .

هاتان إذن مجموعتان كل من أربع آيات تتحدث عن ظاهرة تقع بالجبال ظاهرة تسيير وسير ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾(١) .

وظاهرة نسف ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ﴾(٢) .

فهل هما يا ترى ظاهرة واحدة فيكون تسيير الجبال هو عين نسفها أو هما ظاهرتان مختلفتان ؟

إن التسيير الذى تطيعه الجبال فتسير سيرا حقيقيا غير النسف الذى تبس فيه الجبال بسا فتكون هباء منبثا ، واتحادهما يقتضى حمل أحدهما على المجاز ، والمجاز يقتضى قرينة تدل عليه فى نفس الكلام ، وهذه القرينة مفقودة فى أى الآيات الثمانى ، فالتسيير والنسف إذن على حقيقتهما هما ظاهرتان مختلفتان تنزلان بالجبال ، إما على التعاقب فيسير الجبل ثم ينسف ، وإما على التقسيم : فيسير بعض الجبال وينسف البعض الآخر ، ولا ثالث لهذين الاحتمالين .

لكن الاحتمال الأول تمنع منه آية سورة النبأ ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾(٣) .

إذ الجبال بعد أن انتهى بها التسيير إلى أن تفنى وتكون سرابا ، لا يمكن أن يلحق بها نسف ، وقد انعدمت بالفعل فلم يبق إلا الاحتمال الثانى .

ويتعين أن يكون الفناء عن طريق التسيير خاصا ببعض الجبال ، والفناء عن طريق النسف خاصا بالبعض الآخر ، وهذا يقتضى أن تكون الجبال صنفين : أحدهما يقبل بفطرته التى فطره الله عليها أن ينسف بعد أن يصير بالرجفة كثيبا مهيلا ، والآخر يقبل بفطرته أن يسير حتى يصير سرابا ، ولابد من تغيير فى هذا الصنف يمهد للتسيير ، كما مهد للنسف فى الصنف الأول بالانهيال إذ كل من الصنفين فى حالته الدنيوية راس راسخ لابد فى حكمة الله من إعداده للنسف والتسيير .

وفى آيتى المعارج والقارعة ما يؤيد هذا الاستنباط ، من أن الجبال صنفان ، لأنهما تذكران تحولا تصير إليه الجبال يخالف ويقابل ما تصير إليه من كثيب مهيل ، كما فى آية المزمل ، فإن الآيتين كلتيهما تذكران ان الجبال تكون كالعهن ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾(٤) وتزيد آية القارعة وصفا للعهن ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾(٥) .

والعهن هو الصوف المصبوغ ، فالآية الكريمة تقول إن الجبال يوم القارعة تكون كالصوف المصبوغ المنفوش ، ولكل من هذه الكلمات الثلاث دلالتها ، فالصوف فيه من التماسك ماليس فى الرمل الذى يكون فى الكثيب المهيل .

وإذن ، فالجبال التى تصير بالرجفة كثيبا مهيلا غير الجبال التى تصير كالصوف فى طبيعتها وتكوينها وفيما تصير إليه يوم الرجفة ، وإذا كان انهيال الأولى يهيئها للنسف فتفكك الثانية حتى تكون كالصوف يهيئها للسير بالتسيير الذى تصير به بعد سرابا .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الطور

(٢) الآية ١٠٥ من سورة طه .

(٣) الآية ٢٠ من سورة النبأ .

(٤) الآية ٥ من سورة القارعة .

(٥) الآيتان ٤ - ٥ من سورة القارعة .

والجبال التى قال الله عنها فى الآية (٢٧) من سورة فاطر : ﴿ **ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود** ﴾ .

هى التى تصير بالقارعة كالصوف المصبوغ ، و(من) التبعيضية فى هذه الآية الكريمة تدل على أن الملون من الجبال هو الذى يصير كالعهن وأن ليس كل الجبال كذلك ، ففيها مثلا الأبيض كله مثل جبال الطباشير والحجر الجيرى المتبلور أو غير المتبلور ، وهذه لا يمكن أن تكون هى المشبهة بالعهن والصوف المصبوغ .

فالجبال فى الآيتين الكريمتين ﴿ **وتكون الجبال كالعهن** ﴾ ، و ﴿ **تكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ .

مقصود بها الملون من الجبال لا مطلق الجبال ، وهذا يحل لنا الإشكال الناشىء عن المعنى المتبادر من فهم الجبال على إطلاقها فى هذا النص وغيره من نصوص الآيات الثمانى السابقة ، فالجبال كلها مصيرها الى الزوال والفناء بين يدى الساعة ، أو حين تقوم ، لكن لا بطريقة واحدة ، فليس كلها يصير كثيبا مهيلا ، وليس كلها يصير كالعهن قبل أن يذهب ويزول ، إذ ليس كلها ذا تكوين واحد ، ولا خواص واحدة ، وعلماء طبقات الأرض الذين تعددت أقسام الجبال عندهم هم الذين يستطيعون زيادة هذه الناحية من الموضوع بيانا .

ووصف العهن بالمنفوش فى آية سورة القارعة له أهميته ودلالته ، لا من حيث تيسير تسيير الجبال بعد أن تصير إلى هذه الحال فيما يبدو ، ولكن من حيث توكيد تقسيم الجبال الى ذينك الصنفين اللذين يصير احدهما بالرجفة كثيبا مهيلا ، ويصير الآخر كالعهن المنفوش ، فلولا وصف العهن بالمنفوش فى الآية لجاز أن يكون تشبيه الجبال بالعهن راجعا إلى التشابه فى اللون والصبغة فحسب ، لا إلى التشابه فى شىء من صفات الصوف الأخرى كالتماسك الذى يكون بين أليافه وفيها ، والذى استفدنا إليه فى التفرقة بين الجبال التى تنهال كثيبا ، والجبال التى تنفش كالصوف .

تبقى من الإحدى عشرة آية المتعلقة بالجبال ، وأحداث القيامة آية واحدة هى آية الحاقة ﴿ **وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** ﴾[1] .

والله أعلم بكيفية ذلك الحمل ثم بكيفية ذلك الدك لكنهما على أى حال يستتبعان تلك الأحداث التى تقدمت بها تلك الآيات الكريمة العشر ، فالدك يحول الجبال إما إلى كثبان مهيلة ينسفها الله بما يشاء كيف يشاء ، وإما إلى حالة من التحلل والتفكك تصير بها بنية الجبال كالصوف المصبوغ المنفوش ثم يسيرها الله بعد ذلك بما يشاء كيف يشاء ، حتى تصير سرابا ، وأثرا بعد عين .

بقيت آية عن الجبال هى معجزة قرآنية علمية ، لأنها تقرر حركة انتقالية للأرض قبل أن يعرفها العلم بقرون ، ويلحقها قدامى المفسرين بالآيات السابق ذكرها ، إذ لم يكن يخطر ببالهم أن للأرض حركة .

(١) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

وينكر بعض المحدثين أن تكون الآية عن الجبال فى الدنيا ، فى حياتنا هذه ، صونا للآيات القرآنية أن تقحم عليها النظريات العلمية ، بل أن تقحم عليها الحقائق العلمية ، ناسين أن الطريق الصحيح لصون القرآن عن مثل هذا ليس هو إيصاد الباب دون إثبات الإعجاز العلمى للقرآن ، ولكن هو النقد الدقيق لدليل ذلك الإعجاز .

تلك الآية العجيبة هى آية أواخر سورة النمل : **﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾** .

وكل حجتهم فيما أنكروا أن آية الجبال مسبوقة بآية النفخ فى الصور **﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾** . فالسياق فى رأيهم يقتضى ان تكون آية الجبال متعلقة بيوم النفخ فى الصور .

وقد سبق أن تناولنا هذه المسألة فى غير إفاضة ، اكتفاء بما سيق معها من دليل على أن الآية تنبىء بحركة للجبال تشبه حركة السحاب الذى يتحرك ، لا بالذات ولكن بواسطة الرياح التى تحمله ، وإذن فللجبال حركة ، لا بالذات (لأنها فى مرأى العين جامدة) ولكن بواسطة الأرض التى تحملها ، أى أن الآية تثبت للأرض حركة انتقالية عن طريق إثبات حركة للجبال تشبه حركة السحاب ، وهى معجزة علمية قرآنية لا شك فيها .

والسياق الذى استند إليه منكرو هذا المعنى لا ينبغى أن يقتصر فيه على الآية قبلها فحسب ، وإذا توسعنا فيه ليشمل أربع آيات أخر قبلها وجدنا مثالا كالذى احتجوا به ، إلا أن الحجة فيه عليهم لا لهم .

وحسبنا ثلاث آيات فى يوم البعث أو الحشر ، تليها آية كونية لا يمكن أن ترجع إلى يوم الحشر ، والآيات الأربع هى :

﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون * حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون * ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون * ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

فلو صحت حجة من يزعم أن آية **﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾** متعلقة بيوم النفخ فى الصور ، لمجرد أنها مسبوقة بآية **﴿ ويوم ينفخ فى الصور ﴾** لصحت حجة زاعم أن آية **﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل . . . . ﴾** متعلقة بيوم الحشر ، لمجرد أنها مسبوقة بآيات عنه .

فالسياق فى هذه الآيات الأربع دلالته على عكس ما يظنون : يذكر بيوم القيامة إنذارا ووعيدا وزجرا لغير المؤمنين ، ثم يأتى ببعض آيات الله فى الكون الدالة عليه سبحانه لعلهم يؤمنون .

وكذلك الحال فى الآيتين التاليتين للآيات الأربع ، يذكر وينذر بيوم القيامة فى آية **﴿ ويوم ينفخ فى الصور ﴾** ثم يذكر آية أخرى لله فى الكون تدل عليه سبحانه . **﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾** ثم يتابع حديث يوم القيامة فى الآيتين بعدها **﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾** .

ثم يعود إلى الدعوة إلى الله على لسان رسوله ، وهى المقصود الأول فى هذا ، وفى القرآن كله **﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾** .

وحتى آخر السورة : **﴿ وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾** .

٢ - آيات الجبال فى القصص القرآنى

بقى من الآيات التى ذكرت الجبال فيها بلفظها سبع عشرة آية تتعلق بالجبال فيما دون القيامة ، أى فى دنيا الأرض هذه التى استخلف فيها الإنسان ، قد وردت فى ست عشرة سورة ، هى حسب ترتيب نزول الوحى بها : (ص ، والأعراف ، والشعراء ، وهود ، والحجر ، وسبأ ، والغاشية ، والنحل - آيتان - وإبراهيم ، والأنبياء ، والنبأ ، والنازعات ، والأحزاب ، والرعد ، والنور ، والحج)

وآيات الجبال فى الست السور الأولى آيات قصص يلتحق بها آية سورة الأنبياء .

فهذه سبع آيات ، ثلاث منها وردت فى قصص داود عليه السلام فى (ص وسبأ ، والأنبياء) ، وثلاث فى قصص ثمود فى : الأعراف ، والشعراء ، والحجر ، وواحدة فى قصة نوح فى سورة هود .

* الجبال فى سورة ص ، سبأ ، الأنبياء *

وأول تلك الآيات آية سورة (ص) يذكر الله فيها معجزة كبرى أتاها نبيه داود ، أو هما معجزتان فى آيتين كريمتين : **﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق * والطير محشورة كل له أواب ﴾**[1] .

ولعظم دلالة هاتين المعجزتين على قدرته سبحانه من ناحية ، وفضل داود عليه السلام من ناحية أخرى ، أعاد الله ذكرهما فى إجمال معجز فى بعض آية إذ قول فى سورة سبأ **﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴾**[2] .

وإذ يقول فى سورة الأنبياء : **﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾**[3] .

والمتأمل هذه الآيات الكريمة الثلاث يجد بينها اشتراكا واختصاصا فى التعبير ، ولكل دلالته العجيبة ، فالحرف (مع) مشترك بينها ، وكذلك ضمير الجلالة للمتكلم . ودلالة الحرف أن داود كان يبدأ التسبيح فتشاركه الجبال .

ولو كان التعبير باللام (بدلا من مع) لأثبت التسبيح فقط للجبال .

أما دلالة الضمير فهى أعجب وأعظم ، فهو أولا لا يمكن أن يرجع إلا إلى الله عز وجل ، إذ لا

---

(١) الآيتان ١٨ - ١٩ من سورة ص .
(٢) الآية ١٠ من سورة سبأ .
(٣) الآية ٧٩ من سورة الأنبياء .

يقدر على تسخير الجبال غيره سبحانه ، وهو ثانيا ضمير الجلالة للمتكلم ، فدل بوضوح على أن الآيات القرآنية الثلاث إنما هى من عند الله سبحانه وتعالى ، لا من عند محمد أو غيره ، كما يزعم المستشرقون ومقلدوهم ، وكما غفل عن ذلك أو أغفله المشركون الذين قالوا إن محمدا افتراه .

وضمير الجلالة مثبوت فى القرآن كله ، لتكون له هذه الدلالة القاطعة بأن القرآن كله إنما هو من عند الله .

أما عن الاختصاص فى الآيات الكريمة الثلاث : فقد اختصت الآية الأولى وأختها معها بتفصيل ما أجمل فى الآيتين الأخريين ، ومن بين ذلك تبيين الوقت ، وقت التسبيح .

واختصت الآية الثانية ، آية سبأ بنداء الجبال ، وأمرها أن ترجع التسبيح مع داود ، ﴿ **ياجبال أوبى معه والطير** ﴾[١] ونداء الجبال وأمرها أمر تسخير لا يمكن أن يكون إلا من خالق الجبال سبحانه .

واختصت الآية الثالثة آية الأنبياء بقوله تعالى : ﴿ **وكنا فاعلين** ﴾ بعد قوله عز وجل ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير** ﴾ وفى ذلك تنبيه إلى عظم المعجزتين ، ونفى لما قد يرد على الخاطر من استبعاد أن يكون التسبيح بلسان المقال ، ومن حمله على التسبيح بلسان الحال المذكور فى آية الإسراء : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾[٢] .

فدلالة الأشياء على الله بما أودع سبحانه فيها من أسرار وخواص أمر عام للناس أجمعين ، أما تسبيح الجبال مع داود عليه السلام فأمر خاص به ، ومعجزة آتاه الله إياها . .

* الجبال فى قصص ثمود *

وآيات الجبال فى قصص ثمود تدل على أن ثمود كانوا قوما أولى عمارة وتشييد ونحت مثل قدماء المصريين ، وأولى تلك الآيات الثلاث آية الأعراف التى هى أولى آيات الجبال فى القرآن ، حسب ترتيب المصحف ، وثانيها حسب نزول الوحى ، وقد وردت ، هى وأختها آية سورة الشعراء ، على لسان نبى الله صالح إذ يدعوهم إلى الله ويذكرهم بنعم الله عليهم ويحذرهم الكفران ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾[٣] .

وآية الشعراء : ﴿ **أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[٤] .

والشاهد هو طبعا فى رابعة هذه الآيات الخمس .

---

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ .
(٢) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٧٤ من سورة الأعراف .
(٤) الآيات ١٤٦ ـ ١٥٠ من سورة الشعراء .

ويبدو أن ثمود كانوا يقتطعون الصخور من الجبال يبنونها قصورا فى السهول ، كما تشهد له آية الفجر ﴿ **وثمود الذين جابوا الصخر بالواد** ﴾[١] .

كما كانوا يتخذون البيوت ينحتونها فى الجبال نفسها ، كما تدل عليه آية سورة الأعراف ، ويشهد للأمرين جميعا آية سورة الشعراء ، وتحقيق هذا ميسور بدراسة مساكن ثمود فى الحجر ، فإنهم هم أصحاب الحجر الذين يقول الله فيهم فى سورة الحجر ﴿ **ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين** ﴾[٢] .

وما أظن أحدا من الأثريين الافرنج قام بهذه الدراسة ، وأجدر الجامعات أن تقوم بها الجامعة الأزهرية ، لتتعرف مبلغ التشابه بين ثمود وقدماء المصريين فى نحت الجبال ، ذلك التشابه المتوقع من قوله تعالى ﴿ **وفرعون ذى الأوتاد** ﴾[٣] . بعد قوله ﴿ **الذين جابوا الصخر بالواد** ﴾[٤] .

ومتأمل الآيات الثلاث وسياقها يدرك أولا أن التكرار فى القصص القرآنى ليس مجرد تكرار المعنى والتعبير ، بل هو صور من الإعجاز فى المعنى والأسلوب ـ وفى آيتى الجبال فى سورتى الشعراء والحجر مثال من زيادة الفائدة فى المعنى مع الاشتراك فى أكثر الألفاظ : ﴿ **وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين** ﴾ الشعراء (١٤٩) ، ﴿ **وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين** ﴾ الحجر (٨٢) .

ولكل من الآيتين فى سياقها إعجازها ، ففى التعبير مثلا باسم الفاعل (فارهين) إعجاز معنوى عجيب ، لأن الفعل يختلف معناه باختلاف بابه : مرة من باب كرم معناه حذق ، ومن باب فرح معناه أشر وبطر ، كما فى القاموس واسم الفاعل يدل على المعنيين .

فنبى الله صالح يذكر قومه بنعمة الله عليهم فيما آتاهم من الحذق فى اتخاذ البيوت ينحتونها من الجبال ، وينعى عليهم كفرانهم بتلك النعمة ، إذ يسيئون استعمالها بالتعالى فى تلك البيوت أشرا وبطرا ، فجمع الله ذلك المعنى كله فى لفظة واحدة (فارهين) اسم الفاعل من الفعلين جميعا .

وما أظن كلمة واحدة فى غير العربية كانت تتحمل كل هذا ، فمثل هذا سر من أسرار العربية التى أعدها الله فى سابق علمه لتكون لغة كتابه العزيز الذى أنزله معجزة خالدة للناس .

أما آية الحجر ﴿ **وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين** ﴾ فإعجازها فيما يبدو وهو فى الجو الذى يضفيه عليها ضمير الجلالة للمتكلم . فى الآية قبلها ، ﴿ **وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين** ﴾ وتضفيه عليها الآية بعدها ﴿ **فأخذتهم الصيحة مصبحين** ﴾[٥] ، بعد الأمن الذى كانوا فيه ، ودل على استقراره فيهم صيغة الحال فى كلمة آمنين .

وقد يظن ان سياق كل من آيتى الأعراف والشعراء قد خلا من دلالة ضمير الجلالة الظاهر فى سياق آية الحجر ، وليس الأمر كذلك فآية الجبال فى الأعراف جاءت عقب قوله ﴿ **وإلى ثمود أخاهم**

---

(١) الآية ٩ من سورة الفجر .
(٢) الايتان ٨٠ ـ ٨١ من سورة الحجر .
(٣) الآية ١٠ من سورة الفجر .
(٤) الآية ٩ من سورة الفجر .
(٥) الآية : ٨٣ من سورة الحجر والآيتان قبلها

صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من آله غيره ﴾ (٧٣) عطفا على قوله ﴿ وإلى ثمود أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (٦٥) فى مفتتح قصة عاد .

وهذه جاء ، عطفا على قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ فى مفتتح قصة نوح فى الآية (٥٩) وهى أول قصص الأنبياء فى سورة الأعراف .

فمن الواضح أن التقدير هو ﴿ وإلى عاد ﴾ ﴿ أرسلنا أخاهم هودا ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود ﴾ ﴿ أرسلنا ﴾ ﴿ أخاهم صالحا ﴾ فى الآيتين الكريمتين (٥٩ ، ٦٥) .

وحذف كلمة (أرسلنا) اعتمادا على ورودها فى الأول ، وإبقاء مفعولها منصوبا دليلا فى كل من الآيتين هو مثل من الإعجاز القرآنى فى الإيجاز اللفظى .

أما سورة الشعراء ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ (١٤٩) .

فقد ناب عن ورود ضمير الجلالة فيها وروده فى ختام قصة عاد قبلها مباشرة فى الآية (١٣٩) ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ (١٣٩ ، ١٤٠) .

مع اشتراك القصتين فى المبدأ من حيث الصيغة : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ ﴿ وكذبت ثمود المرسلين ﴾ وفى النهاية بالذات ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

وفى ضمير الخطاب ضمير الرسالة . فى قوله تعالى ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ دليل آخر يقطع بأن هذا القصص ليس من عند محمد ، ولكن من عند ربه عز وجل الذى أرسله رحمة للناس .

بقيت من آيات الجبال فى القصص القرآنى آية سورة هود ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ (٤٢) وفيها تشبيه رهيب لموج الطوفان الذى أغرق الله به قوم نوح ، استدل به الفخر الرازى على أن الطوفان كان مصحوبا برياح شديدة العصف ، وهو استنتاج صحيح ، فقد ذكر العالم الرياضى الطبيعى (إذنجتن) عن تولد الأمواج بالريح ان الريح لا تحدث أى تغضن فى سطح الماء إلا إذا بلغت سرعتها ميلا فى الساعة ، وهو ما يسميه بالأمواج الشعرية .

أما الموج كما نعرفه فلا يبدأ ظهوره إلا إذا بلغت سرعة الريح فى الساعة ميلين ، فما ظنك بسرعتها إذا بلغ الموج من العظم ان صار كالجبال ؟

والقصة التى وردت فيها الآية الكريمة تكرر فيها ضمير الجلالة للمتكلم فى الأول وأثناءها وفى الآخر ، كما تكرر فيها ضمير الرسالة إذ جاء فى الوسط مرة ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ﴾ (٣٥) ، وفى الآخر مرت فى الآية (٤٩) ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ فكان فى ذلك برهان مضاعف أن القصة كأخواتها إنما هى من عند الله .

٣ - اقتران ذكر الجبال بذكر الأرض والسماء

بقيت بعد آيات الجبال والقيامة ، وآيات الجبال فى القصص القرآنى ، آيات إحدى عشرة جاءت

الجبال فيها بلفظها فى عشر سور هى : مريم،والغاشية والنحل،وابراهيم،والنبأ،والنازعات،والأحزاب، والرعد، والنور،والحج مرتبة هكذا حسب ترتيبها فى نزول الوحى بها .

وآية سورة مريم هى ثالثة الآيات الكريمة ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا** ﴾ (٨٨ - ٩٠) .

وهى آيات قد تؤخذ على أنها من باب المبالغة عند من لا يفقه كيف يكون قول من ينسب الولد إلى الله سبحانه سببا يدنى السموات من الانفطار ، والأرض من الانشقاق ، والجبال من الانهداد لكن المبالغة لا تكون إلا فى كلام محدودى القدرة ، ما يعجزون عنه (ويعلمون أنه لا يمكن أن يتحقق) .

يقولون عند المبالغة أنه تحقق أو كاد ، فى ظرف من الظروف لأمر من الأمور . أما الحق سبحانه الذى لا يعجزه شىء والذى بيده أمر السموات والأرض ، فلا يمكن أن تكون هناك مبالغة فيما يخاطب به عباده ، إلا أن ترد على لسان من يحكى عنهم القرآن من الإنس أو الجن أو الملائكة .

وإذن فالآيات الكريمة الثلاث ليست من المبالغة فى شىء ، وإنما تقرر حقيقة . من الحق أن نسبة الولد إلى الله هى من الشناعة ومن الإجرام فى جنب الله بحيث تغضبه الغضب الذى لولا حلم الله سبحانه وتعالى ، ولولا حكمته لعجل الله من أجله بالقيامة ، ليحاسبهم على ما يفترون ، إذ الأحداث الهائلة المذكورة فى الآية الكريمة لن تقع إلا عند القيامة .

ونسبة تلك الأحداث إلى السماء والأرض والجبال فى الآية الكريمة هى من الاعجاز البلاغى ، ومن أدلة ان القرآن من عند الله ، إذ ليس يخطر على بال مخلوق أن يحكى عن السماء أنها تنفطر ، وعن الأرض أنها تهوى ، فهذه لقول يقوله فريق من عباد الله ينسبون به الولد إلى الله سبحانه .

ولعل هذه الصيغة الإعجازية وخلوها من التصريح بأن الله هو فاعل ذلك كله لو كان ، لعل ذلك هو الذى ييسر حمل الآية على المبالغة عند بعض الناس ، لكن الآية لم تخل من الإشارة إلى أن تلك الأجرام الهائلة ، من سماء وأرض وجبال ، لا تنفطر ولا تنشق ولا تنهد من نفسها ، والإشارة هى : أولا فى المصدر المنصوب على التمييز فى ختام الآية الكريمة ﴿ **وتخر الجبال هدا** ﴾ والهد هو الهدم الشديد ، كما فى القاموس ، والهدم لابد له من فاعل ، ولا يقدر على هدم الجبال وهدها إلا الله سبحانه وتعالى :

وإذ قد ظهر أن أحد الأحداث الثلاثة المذكورة فى الآية هو من فعل الله ، فالحدثان الآخران هما من فعله أيضا . وثانيا يؤيد ذلك ويشير إليه الفعل المطاوع المسند إلى السماء وإلى الأرض لأن المطاوعة فى الفعل تقتضى فعلا متعديا يناسبه ، وليس يقدر على شق الأرض وتفطير السماء إلا الله .

فانظر إلى هذا الإعجاز فى الإيجاز وفى المعنى .

وعجيبة عن الجبال فى الآية الكريمة ينبغى ألا تغيب عن تاليها المنكر فيها ، تلك هى أن الجبال قد ذكرت مع السموات والأرض على سواء ، فلابد أن يكون فى الجبال من أسرار الخلق ومن الخصائص ما يجعل انهدادها جديرا أن يسلك مع تفطر السماء وانشقاق الأرض فى سلك ، خصوصا من حيث أثره فى حياة الناس .

وأسرار الخلق ، خلق الجبال ، قد أمرنا فى آية سورة الغاشية أن نتعرفها وننظر فيها نظرة تأمل واعتبار ، والآية هى ثالثة الآيات الكريمة الآتية ﴿ **أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[1] .

وهنا نلتقى بتلك العجيبة مرة أخرى ، عجيبة ذكر الجبال مع السماء والأرض على سواء ، وإن جاء ذكرها بعد ذكر السماء ، وقبل ذكر الأرض لما بين رفعة السماء وارتفاع الجبال من تناسب ، وما بين نصب الجبال وبسط الأرض من تقابل ، والجبال جزء من الأرض ، فأى سر ذاك ، وأية حكمة فى رفعها عن سطح الأرض ؟

أو ـ إذا نظرنا إليها من الناحية المقابلة ـ أى سر ذلك وأية حكمة فى خفض سطح الأرض عن سطح الجبل ، وفى خفض سطح الجبال بعضها عن بعض ، إن علوم الفلك وطبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية وما إليها من فروع العلم هى الكفيلة بالإجابة عن ذلك ، وتبيانه لمن أراد التعمق ، وإلا ففيما يعرفه الناس ، كل بقدر علمه وعقله ، ما يكفى للهداية إلى رب السماء والأرض والجبال .

ونستقرىء بقية الآيات لنرى هل من بينها ما تحققت فيه ايضا تلك العجيبة ، عجيبة ذكر الجبال مع الأرض والسماء على سواء ، فنجدها تحققت فى أربع من التسع الباقية فى سورة النبأ والنازعات المكيتين ، والأحزاب والحج المدنيتين ، فالأولى هى ﴿ **والجبال أوتادا** ﴾ من قوله فى سورة النبأ : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا** ﴾[2] .

والثانية هى ﴿ **والجبال أرساها** ﴾ من قوله فى سورة النازعات : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها** ﴾ (٢٧ ـ ٣٢) .

وأما المدنيتان فهما آخر سورة الأحزاب : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ (٧٢) .

ثم الآية ١٨ من سورة الحج : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾ .

وفى هذه الآية الأخيرة ذكرت الشمس والقمر والنجوم بدلا من السماء ، وذكرت الجبال والشجر والدواب بدلا من الأرض ، مادام المقام مقام تعديد كل ما يسجد لله فى الكون ، أى كل ما يطيعه سبحانه تمام الطاعة ، وينقاد لحكمه أتم انقياد ، لم يستثن من هذا الشمول إلا الناس ، فكثير منهم يسجد ويطيع ، ويلزم من هذا أن باقيهم لا يفعل ، فهو داخل فى الكثير الذى حق عليه العذاب .

لكن هذا الكثير ليس مقصورا على الكافرين والعاصين من الناس ، بل يشمل الشياطين وعصاة الجن أيضا ، وإلا لدخل هؤلاء فى الساجدين المنقادين الذين دل عليهم الاسم الموصول للعاقل فى قوله

---

(١) الآيات ١٧ ـ ٢٠ من سورة الغاشية

(٢) الآيات ٦ ـ ١٢ من سورة النبأ .

﴿ ومن فى الأرض ﴾ وهذا غير معقول ولا مقبول ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء مسكوتا عنهم مادام قوله تعالى : ﴿ وكثير حق عليهم العذاب ﴾ يمكن أن يشملهم ويشمل العاصين والكافرين من الناس فتلوا الآية الكريمة شاملة حكم الله فى كل مخلوق خلقه .

وآية سورة الحج هذه تبين النتيجة العملية لما أخبرت به آية آخر سورة الأحزاب : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ﴾ (٧٢) ، بأن الأمانة عند جمهور المفسرين فيما حكاه أبو حيان هى (كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن دين ودنيا والشرع كله أمانة فهى فيما يبدو أمانة العقل والاختيار ومايتبعها فى الدين من التكاليف والجزاء) .

فالسموات والأرض والجبال هابت أن توهب نعمة العقل والاختيار مقرونين بشرط التكليف والجزاء بالمثوبة إن أطاعت والعقوبة إن عصت ، وآثرت السلامة والعافية فى تمام الطاعة والانقياد لسنن الله فيها ، خوفا وإشفاقا أن يضلها النظر والاختيار فتزيغ عن أمر الله فتتعرض لعذابه .

أما الإنسان فقد قبل أن يحمل ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله ، راجيا أن يقوى على أداء ما يكلفه الله به ، عازما أن يطيع ولا يعصى حتى إذا ما ابتلى بإبليس الذى لا يملك من فتنته إلا أن يوسوس إليه ويقترح عليه الكفر والمعصية مجرد اقتراح ووسوسة ، لا يملك معها أن يجبره ، وهو مع ذلك قد حذر أنه له عدو مبين . حتى إذا كان ذلك نسى العهد وأهمل وأساء الاختيار ، فكان ذلك منه سفها وجهلا وظلما لنفسه ولمن معه من الناس ، اللهم إلا من أعطى الأمانة حقها فى الكثير الغالب ، واستغفر الله وتاب اليه كلما خدعه الشيطان عن شىء من دينه ، فكان ممن قال الله فيهم ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ (الفرقان ٧٠) ولم يكن من الكثير الذين حق عليهم العذاب .

وواضح أن موضوع هاتين الآيتين المدنيتين غير موضوع بقية الآيات الأربع ، آيات مريم والغاشية والنبأ والنازعات . وإن اتفقت كلها فى ذكر الجبال مع السموات والأرض أو السماء والأرض على سواء ، والاختلاف بينهما فى البيئة التى نزلت فيها ، فالبيئة المدنية غلب عليها الإسلام ، فلم تحتج إلى ما احتاجت إليه البيئة المشركة المكية من إقامة الدليل على الله من آيات الله الواضحة الظاهرة فى الكون ، ومنها آياته فى السماء والأرض والجبال على النحو المتجلى فى آيات الغاشية والنبأ والنازعات .

أما آية مريم فالمخاطب بها فيما يبدو من كان يغشى البيئة المكية من النصارى ، والزجر الشديد الذى فيها وفى الآيات التى تليها ، يذهب بما يوسوس به المستشرقون من النصارى من أن محمدا أخذ عن نصارى مكة أو بعض رهبان الشام شيئا مما جاء به من الدين .

لكن المهم فيما نحن بصدده أمران : أن ذكر الجبال على الخصوص ، وهى جزء من الأرض ، فى آيات ست ذكرت فيها السموات والأرض ، أو السماء والأرض دليل ليس بعده دليل على الأهمية القصوى للجبال من ناحية ، ومن ناحية عظم أثرها فى حياة الناس ، وحياة غيرهم مما على الأرض من الأحياء .

وعلينا نحن معشر أهل القرآن أن نحيط بما عرفه العلم من ذلك ، ونكشف عما لم يعرفه وأشار

إليه القرآن ، هذا أمر ، والأمر الثانى هو التنوع العجيب فيما ذكر عن السموات والأرض والجبال فى تلك الآيات .

فآية مريم لم تزد على ذكر السموات والأرض والجبال شيئا من صفاتها أو خواصها ، لأن مالها من الروعة فى النفوس يكفى فى الزجر الذى سيقت الآية من أجله .

وآيات الغاشية لفتت الناس من السماء إلى رفعتها كيف كانت ، ومن الجبال إلى ارتفاعها عن الأرض وتماسكها كيف كان ، ومن الأرض إلى كيف سطّحها الله حول الجبال .

وآيات النبأ لفت الله فيها الناس من الأرض إلى انه قد سطحها على وجه يجعلها صالحة للعيش عليها ، والراحة فيها ، كأنها مهاد للإنسان ، ولفته من الجبال إلى سر فيها لم يكشف الإنسان عن كنهه الى الآن ، وأشار الله إلى مفتاح كشفه ، فشبهها بالأوتاد ، ثم لفتهم من السموات إلى عددها ، وإلى أنه سبحانه قد خلقها تشد بعضها بعضا شد البنيان بعضه بعضا ، بحيث لا تسقط علينا وهى فوقنا .

وآيات النازعات لفتت مفكرى البعث من الناس إلى أن الله بناها ـ وفى الفعل (بنى) مفتاح سر إنشائها ، ولفتهم الى عظم البعد بينها وبين الأرض وبين بعضها وبعض ، وإلى أن لها ليلا مظلما غير ليل الأرض ، وإلى أن الله أخرج ضوءها أى ضوء ما فيها من شمس ونجم ، لا مجرد ضوء شمسها كما يقول الزمخشرى وغيره ، والعلم قد أثبت أن نجومها شموس ينفجر الضوء منها بتفجر ذراتها ، كالذى يحدث فى التفجر النووى فى القنابل الايدروجينية ، وما إليها بل أشد .

أما الأرض فقد لفتنا الله فى الآيات الثلاث المتعلقة بها إلى أنه سبحانه بسطها ، وأخرج منها الماء والمرعى ، بعد أن كان قد خلق السماء والأرض إذ خلق إحداهما يستلزم خلق الأخرى لما بينهما فى اللغة من تقابل ، فهما خلقتا معا لا قبل ولا بعد ، كما تدل عليه آيات سورة فصلت .

ثم لفتنا سبحانه إلى إرساء الجبال فى الأرض ، ويكفى أن ننبه إلى ما فى الآيات الأربع ، حسب ترتيب نزول الوحي بها ، من مثل رائع للترقى بالناس فى معارج النظر إلى آيات الله فى السماء والأرض والجبال ، عسى أن يهتدوا إلى خالقها سبحانه .

٤ ـ والجبال أوتادا

نبدأ بحث هذه الآية الكريمة مستعينين بالله فى محاولة لالتماس حكمته سبحانه فى أن ذكر الجبال مع السموات والأرض على سواء فى مواطن عدة من القرآن الكريم ، أحدهما فى سورة النبأ فى آيات هذه إحداها ﴿ **والجبال أوتادا** ﴾ (٧) ، والجبال فى هذه الآية منصوبة بالفعل (نجعل) فى الآية التى قبلها : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا** ﴾ (٦ ، ٧) .

وهى واردة فى معرض منّ الله على عباده بآيات له فى الخلق هى من مظاهر قدرته ومجال حكمته ، ففى منافعها للناس بعض تجليات حكمته ، وفى أسرار خلقها وتصييرها إلى صورتها التى يشهدها الناس بعض دلائل قدرته التى ليس يعجزها شيء .

وينبغى أن يتحقق الأمران جميعا فى معنى الكلمتين الكريمتين ﴿ **والجبال أوتادا** ﴾ ينبغى أن

يكون فى تشبيه الجبال بالأوتاد ، هذا التشبيه المحذوف منه أداة التشبيه ، والذى يسميه علماء البيان من أجل ذلك بالتشبيه البليغ ، لأنه يجعل المشبه عين المشبه به ، توكيدا للشبه الشديد بينهما ، ينبغى أن يكون ذلك هاديا إلى أطراف المعنى من ناحيتيه ، من ناحية الدلالة على القدرة وكمالها ، ومن ناحية الهداية إلى الحكمة وجلالها ، وأطراف المعنى إنما تتبين من تعدد أوجه الشبه بين الجبال والأوتاد تعددا يدل على مجاوزته المألوف فى كلام الناس إذا بالغوا فى التشبيه .

إن التشبيه البليغ هنا هو من قبل الحق سبحانه ، ثم هو تشبيه للأعلى بالأدنى ، وللضخم الرائع بالضئيل الممتهن عند الناس ، فليس هو فى شىء من تهويل الناس ومبالغتهم فى تشبيهاتهم البليغة ، ولكنه دليل على أمور فى الجبال هى من آيات الله فى الخلق ، تناظرها أمور يعرفها الناس فى الأوتاد ، على عظم الفرق بين الجانبين فى النسبة والمقدار . فكأن ذلك التشبيه العجيب مفتاح أو مصباح يستكشف به المجهول من أمر الجبال ، عن طريق المعروف من تظاهر لها فى الأوتاد .

والجبال فيما يتبادر إلى الذهن تشبه الأوتاد من ناحية البروز عن سطح الأرض ، وناحية الرسوخ فيها ، لكن التشابه والتناظر بينهما أشمل وأدق من هذا ، فالأوتاد تختلف من ناحية البروز فى مداه وفى درجات الميل .

والجبال تختلف فى الارتفاع وفى درجات الميل كذلك . والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف صلابتها وشكلها ومدى ذهابها فى الأرض ، وطبيعة تلك الأرض ، وكذلك تختلف الجبال من ناحية الرسوخ فى ذلك كله ، واذا كان تفسير هذا فى الأوتاد هينا فتفسيره فى الجبال يحتاج الى علم واختصاص ، فالأوتاد الى هنا لم تزد على أن تشير الى نواح ينبغى أن يتجه اليها الباحث ، ليقف على مظاهر من آيات الله فى الجبال .

لكن هناك عوامل فى اتخاذ الأوتاد تدل بذلك التشبيه البليغ على تظاهر لها فى نشأة الجبال ، لم تكن تخطر ببال الإنسان عند نزول القرآن ، فالأوتاد لابد فى إنشائها من تشكيلها ثم من تثبيتها فى الأرض بقوة ما .

وإذن فجعل الجبال أوتادا فيما أنبأ الله فى كتابه من شأنه أن يقتضى أن تكون الجبال قد أنشئت بفعل قوة أو قوى ، وهذا وحده حقيقة علمية حديثة دل عليها القرآن عن طريق ذلك التشبيه البليغ ، فما بالك إذا كان بين القوى فى الحالتين تناظر وتشابه من أكثر من وجه ؟

إن أهم أنواع الجبال وأعظمها من غير شك سلاسلها ، وسلاسل الجبال عند علماء طبقات الأرض قد نشأت نتيجة لقوى عظيمة عملت جانبيا فى القشرة الأرضية لما هبطت بثقلها ، حين خلا ما تحتها بانقباض باطن الأرض وانكماشه لما برد بالتدريج فى الأحقاب الطويلة ، وشبهوا ذلك بتغضن جلد التفاحة لما ينقبض باطنها وينكمش تدريجيا بالجفاف البطىء .

تلك القوى الهائلة لها نظائر ، على قدر ، عند دق الأوتاد ، فالدق من أعلى لأسفل يناظر فعل التثاقل عند هبوط قشرة الأرض ، والضغوط الجانبية على التربة من حوالى الوتد عند دقه تناظر تلك القوى الجانبية العاملة فى القشرة الأرضية على خطوط الضعف فيها ، حتى تتموج إلى نجاد ، هى الجبال

والهضاب ، ووهاد منها الوديان ، أليس هذا التشابه والتناظر بين القوى بعجيب ؟

وفى علم طبقات الأرض أن ما يسمى بعوامل التربة ـ من نحو الرياح والأمطار والتمدد بحرارة الشمس ، والتقبض بالبرودات المختلفة حتى تتعتت بتعاقبها المستمر طبقات الصخر طبقة بعد طبقة ، وتأتى الرياح السافية والأمطار الجارفة فتزيل ما تفتت ، ويتجدد ذلك هكذا دواليك حتى قد يتضاءل به نسبيا فى النهاية الجبل الأشم ، فيدل تضاؤله على أنه فى العمر أسن وأقدم من مثله المحتفظ بشموخه ـ هذه العوامل تعمل فى انتقاص الجبال فى الوقت الذى تنشأ فيه أخرى بفعل تلك القوى ، وما نراه اليوم من الجبال هو حاصل تنافس هذين النوعين .

فحتى تناقص الجبال بفعل قوى التعرية هذه له نظير فى تآكل الأوتاد بنفس العوامل وغيرها فى الزمن المتطاول ، إذ المقارنة والمشابهة ينبغى أن تكون بين الجبال وبين ما يترك من الأوتاد قائما غير منزوع .

فالتناظر والتشابه ، كما ترى ، تام أو يكاد يكون تاما بين الجبال والأوتاد فى النشأة ، وفى طوارىء الحدثان عليها ، حتى ليكاد تاريخ حياة الثابت من الأوتاد يدل بذلك التشبيه البليغ القرآنى على تاريخ حياة الجبال ، ولا يزال فى أوجه الشبه بقية .

فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين اثنتين فى كتابه العزيز . هما الآية السابقة من سورة النبأ ﴿ **والجبال أوتادا** ﴾ .

* * * *

على أننا لم نتناول من الآية الكريمة إلا ناحية ما أودع الله فيها من دلالة على قدرته ، وبقيت الناحية الأخرى ، ناحية الدلالة على حكمته سبحانه متمثلة فى وظيفة الجبال المناظرة لوظيفة الأوتاد عند الناس .

والمفسرون جميعا قالوا فى تفسير آية النبأ : إن الله سبحانه ثبت الأرض بالجبال كى لا تميد ، كما تثبت بيوت الأعراب والخيام بالأوتاد ، ولكنهم فى قياسهم هذا لم يكونوا منطقيين دقيقين ، لأن الأوتاد حين تدق فى الأرض لا يقصد بها تثبيت الأرض ، ولكن تثبيت شىء فوق الأرض هو الخيمة ، أو بيت الجلد الذى من الله علينا به سبحانه ، إذ يقول : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم** ﴾ (النحل ٨٠) .

فالدقة فى قياس الجبال على الأوتاد فى المنفعة والوظيفة تقتضى شيئا فوق الأرض يعلو سطحها فى جملته ، ويمسه فى أطرافه كما تفعل الخيمة ، وتكون الجبال معينة على الاحتفاظ به على الأرض ، نقول معينة لأن الأوتاد وحدها لا تكفى للاحتفاظ بالخيام ، إذ لابد لكل خيمة مع الأوتاد من عماد ، فما هو الشىء الذى فوق سطح الأرض يعلوها كالخيمة ، ويساعد الجبال على حفظه على الأرض ،

ثم ما هو العامل الآخر الذى يتم عمل الجبال فى الاحتفاظ بذلك الشىء كما يتم العماد عمل الأوتاد ؟

أظن الجواب صار قريبا ، أو ينبغى أن يكون ، فالشىء الذى فوق الأرض يعلو الناس ويعمل

عمله فى وقايتهم ، كما تعلو الخيمة أهلها وتقيهم أشعة الشمس والمطر ، هو الغلاف الهوائى الذى يحيط بالأرض من جميع الجهات ، ويرتفع فوق سطح الأرض مئات الكيلو مترات .

ويكفى الناس على الاقل شر الشهب ، وشر القدر المؤذى من أشعة الشمس البنفسجية وفوق البنفسجية .

وهذا كاف فى تحقيق الشبه الكبير فى الوضع والمنفعة بينه وبين خيام لا عداد لها تغطى وجه الأرض ، فالله سبحانه يلفتنا بآية النبأ إلى أن الجبال تعمل فى الاحتفاظ بتلك الخيمة الجوية الهائلة عمل الأوتاد ، أما الذى يعمل عمل العماد متمما عمل الجبال ، أو الجبال متممة عمله ، فهو قوة الجاذبية بين الأرض وجملة الهواء .

والعماد لم يرد لها ذكر فى الآية ، ولكن الآية تفيدها عن طريق اللزوم ، إذ لا تقوم الخيام بالأوتاد إلا مع العماد ، وهذا مثل عجيب للاكتفاء البلاغى فى القرآن ، ثم هو مثل أعجب للإشارة إلى حقيقة كونية كبرى ، حقيقة التجاذب بين الأرض والقبة الهوائية ذات الكتلة الهائلة ، ذلك التجاذب العمودى الاتجاه على سطح الأرض بالضبط كاتجاه العماد .

وقوة الجاذبية الأرضية هذه ينسب العلماء إليها سر احتفاظ الأرض بهوائها الجوى ولا يزيدون ، لكن خالق الأرض والهواء يشير إلى القوة التى عرفها العلماء تلك الاشارة اللزومية العجيبة فى آية النبأ ويزيد عباده علما بعامل ثان يجهلونه ، يتمم عمل الجاذبية التى يعرفونها ، وهذا معناه ، أو هذا مقتضاه .

حقيقة أخرى غير معروفة : أن جاذبية الأرض وحدها غير كافية لاحتفاظ الأرض بهوائها ، فهاتان حقيقتان قرآنيتان لم يكشفهما علماء الفلك والطبيعة الى اليوم ، وعلى مسلميهم المؤمنين بالقرآن البحث عنهما علميا حتى ينكشفا ويثبتا ، فينكشف بهما ويثبت للعالم الإسلامى وغير الإسلامى معجزتان كونيتان جديدتان للقرآن .

وسيكون البحث عنهما صعبا وربما عويصا ، وسيحتاج فيه إلى الرياضة العالية ، وربما إلى إجراء تجارب لتقدير كتل الجبال كتلك التجربة البندولية التى أجراها (مسكلين) على جبل (شيهالين) لتقرير كتلته ، وليتوصل بها إلى تقدير كتلة الأرض عن طريق قانون الجاذبية العام (لنيوتن) وأهل هذا البحث أخبر بما يلزم له وبالمسلك الذى يسلك فيه ، لكنى أرجو ألا يصدهم عنه ما يتوقعون من صعاب فيه ، لأن الحق سبحانه لا يشير فى كتابه إلى آية من آياته فى الخلق إلا وييسر فقهها لمن يصدقه الجهاد فى سبيل كشفها .

والبحث فى هذا الأمر الخطير - إذا كان لمثلى أن يشير فيه برأى - يمكن أن يؤخذ على خطوات ، أو يتخذ عدة اتجاهات ، فمن الممكن مثلا التساؤل عن جاذبية الأرض أكانت تكون كافية للاحتفاظ بالطبقة الهوائية لو أن كتلتها (أى الأرض) نقصت بقدر كتلة جبالها ؟ وهذا طبعا يحتاج إلى تقدير كتلة مجموعة الجبال ولو بالتقريب ، فإذا ظهر أن الجبال هى من الكبر بحيث لو أنقصت من كتلة الأرض لعجزت الأرض عن الاحتفاظ بجوها ، كان هذا حقيقة جديدة أدت الآية الكريمة إلى كشفها . .

لكن الجبال كما اختصت بثقلها اختصت أيضا بارتفاعها فهل لارتفاعات الجبال دخل فى احتفاظ الأرض بجوها ، وباستمرار الحياة فيها بالتبع ؟ أى لو أن الجبال اندكت فى الأرض ، لم تبرز ، وكان سطح الأرض لا نتوء فيه مع احتفاظ الأرض بكتلتها غير منقوصة ، أكانت جاذبيتها عندئذ تكفى للاحتفاظ بهوائها ؟ أم كان يتسرب منها إلى الفضاء الكونى بالتدرج ، حتى إذا مضت حقبة كافية فقدت الأرض جوها كما فقد القمر جوه ؟ هذا سؤال يبدو أصعب حلا ، لكنه أمس بجوهر معنى الآية الكريمة لأنه يتعلق بالجبلية نفسها متمثلة فى ارتفاعات الجبال .

ثم يبقى بحث أثر الجبال من حيث توزيعها على سطح الأرض ، فهى فيما يبدو تكون سورا فيه ثغراته ، لكنه على العموم يكون فى كل من جانبيه شبه حوض تعلو الكتل الهوائية وتنخفض فيه من غير أن تزايله ، فالرياح تصطدم بالجبال وترتد عنها صاعدة أو هابطة أو راجعة ، فماذا يا ترى كان يؤول اليه أمرها لو لم تجد هذا السور يحبسها على صورة ما فى شبه الحوض الذى تكونه سلاسل الجبال فى توزيعها الحاضر على سطح الأرض ؟ .

إن وتدية الجبال ـ التى من الله بها على عباده ، ولفتهم بآية النبأ إلى سر جديد فيها من أسرار خلقه ، هو الذى عرضناه هنا ـ هى جديرة بتضافر الجامعات الإسلامية على بحثها مع الثقة مقدما بالنتيجة ، فقد أنبأ الله بها عن طريق تلك المشابهة العجيبة بين الجبال والأوتاد ، وهذا ينبغى أن يثبت أهل البحث من المؤمنين بالقرآن ويعينهم على تذليل صعوباته حتى يفوزوا بالإثبات العلمى لتلك الحقيقة الكبرى المنطوية فى تلك الآية من كتاب الله العزيز .

إن الرجاء كبير فى أن تكون جامعة الأزهر هى البادئة بالنظر فى أمر هذا البحث الخطير ، وسواء أطال أمد هذا الأمر أم قصر ، فإنا نرجو أن يكون تبين للآية الكريمة بعض مظاهر أخرى لإعجازها العلمى عن طريق الفحوى وباللزوم والقياس التمثيلى الدقيق .

٥ ـ والجبال أرساها

هذه آية كريمة أخرى من كلمتين فى الجبال ، نزل الوحى بها بعد أخت لها تأملناها قبل هذه مباشرة . . هذه من سورة النازعات ، وأختها من سورة النبأ .

والسورتان ترتيبهما واحد فى المصحف ، وفى نزول الوحى بهما ـ فآية النازعات هى آخرة الآيات المكية التى ذكرت فيها الجبال مطلقة ، وإن كانت آخرة الآيات حسب ترتيب المصحف هى آية سورة الغاشية : ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾[1] .

وقد رأينا كيف جمع الله لعباده من الجبال فى آية سورة النبأ ما لا يكاد المتأمل يقضى حقه عجبا من الحقائق الطبيعية التى كانت مجهولة للعالم أجمع فى عصر نزول القرآن ، وظلت كذلك حتى كشف عنها العلم الحديث .

وفى الآية مزيد من أسرار خلق الجبال أودعها الله الفعل (أرسى) إن أول معنى لهذا الفعل ، هو

(١) الآية ١٩ من سورة الغاشية .

ثبت بتشديد الباء ، وعلى هذا المعنى اقتصر أهل التفسير ، لكن الكلمة تستعمل مادتها أيضا مع السفن ، ففى القاموس من استعمالاتها (رست السفينة : وقفت على الأنجر) وفيه تحت مادة أنجر : والأنجر مرساة السفينة وهى خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة إذا رست السفينة .

وإرساء الجبال أمر مجهول لقارىء الآية الكريمة ، وإرساء السفينة أمر معلوم له ، فهل يستطيع أن يتوصل بهذا الذى يعرف إلى شىء عن ذلك الذى يجهل ، ويكون ما يتوصل إليه عن هذا الطريق موافقا للمعروف فى العلم عن الجبال ؟ .

إن أول ما يتجه إليه الذهن هو القوى المؤثرة فى السفينة فى مرساها . هناك ثقل المرساة وثقل السفينة إلى أسفل يقابله ثقل الجبال ، وهناك رفع الماء للسفينة إلى أعلى يقابل ضغط حرارة جوف الأرض بغازاته وأبخرته على الجبال ، وهناك القوى الجانبية المؤثرة فى السفينة من نحو فعل الموج ، وقوى الشد المتغير بين السفينة والمرساة الواحدة أو المتعددة عن طريق ما يصل بين السفينة وبينها من حبل أو سلسلة ، ويقابلها فى حالة الجبال تلك القوى الجانبية الهائلة التى أنشأ الله الجبال بفعلها فى قشرة الأرض حتى تموجت على العموم جبالا ووديانا ، وأقام الله الميزان بينها وبين غيرها من القوى فاستقرت الجبال ورست فى الأرض ، كما رست السفينة واستقرت فى مرساها بتوازن القوى المؤثرة فيها .

وإلى هنا تجد كلمة (أرساها) فى آية النازعات قد أدت إجمالا إلى نفس النتائج التى أدى إليها تأمل جعل الله الجبال أوتادا ، فيما يتعلق بالنشأة مما لفت الله إليه بآية النبأ .

لكن هناك العلاقة بين السفينة والبحر التى من أجلها احتاجت السفينة إلى المرساة ، فهل لهذه الناحية شىء يقابلها فى إرساء الجبال ؟ وبعبارة أخرى هل هناك سائل رست فيه الجبال كما رست السفينة فى ماء البحر ؟

المقارنة تقتضى أن يكون جوف الأرض سائلا ، وأن الجبال تستقر عليه كما تستقر السفينة على ماء البحر ، وسيولة جوف الأرض المستنبطة هكذا من كلمة ﴿ أرساها ﴾ فى الآية حقيقة واقعة ، ينم عنها ما نشاهده فى بعض البراكين عند ثورانها من قذفها بالحمم والصخر المنصهر ، لكن الرسو على هذا الجوف السائل لا ينطبق فى العلم إلا على نوع من الجبال هو ما يسمى بالجبال النارية فى مقابل ما يسمى بالجبال الرسوبية ، وهما النوعان الأساسيان من أنواع الجبال .

وفى هذا الصدد يقول العالم الجيولوجى (أ . فيشر) : (إن البحث من ناحيتيه الرياضية والجيولوجية يدل على أن تحت القشرة الأرضية طبقة سائلة تحوى غازات مذابة ، وأن الجبال لها جذور غير منصهرة ذاهبة فى منصهر سائل مادته أثقل من مادتها) .

وقد دل البحث على يد غير (فيشر) على أن متوسط كثافة مادة الجبال هو نحو (٦و٢) ومتوسط كثافة الأرض هو نحو (٥و٥) ، فبطن الأرض السائل أكثف حتى من جبالها ، وهذه حقيقة علمية أخرى تقابل المعروف من أن متوسط كثافة السفينة أى وزنها مقسوما على حجمها هو أقل من كثافة ماء البحر أو النهر ، والا لما طفت عليه بل لغرقت فيه .

فإلى هذا الحد من الدقة يتحقق الشبه بين إرساء الجبال فى أحد نوعيها الأساسيين وبين إرساء السفينة :

وتبارك الذى أودع هذه الحقائق عن الأرض وجبالها آية واحدة من كلمتين فى كتابه ﴿ **والجبال أرساها** ﴾ ، لكن الآية الكريمة فيها بعد ذلك مزيد .

إن سيولة جوف الأرض ورسو الجبال النارية فيها هدت إليها سيولة ماء البحر ، لكن ماذا عن البحر نفسه ومائه ورسو السفن فيه ؟ أليس لذلك مقابل فى الجبال إن العلم يحدثنا أن الجبال الرسوبية تنشأ طبقاتها أول ما تنشأ فى البحر قريبا من شواطئه ، بما تحمله الأنهار إلى البحار من طمى ورمال وما اليهما ترسب فيه طبقات بعضها فوق بعض ، حتى إذا تراكمت وعظم سمكها فى الحقب الطوال رفعها الله بقوى من تحتها وجانبها ، حتى تصير جبالا شاطئية ظاهرة الطبقات الرسوبية .

وإذن فالآية الكريمة تدل بالفعل (أرسى) ، المسند إلى ضمير الجلالة ، على أهم نوعين من الجبال . النارى منها والرسوبى . كل راس راسخ ، هذا على شاطىء البحر وذلك بجذور له فى طبقات سائلة من منصهر الصخر فى جوف الأرض ، فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين تكونان آية من آيات كتابه العزيز .

وإذا تتبعنا مادة (رسا) متعلقة بالجبال فى الكتاب العزيز وجدناها وردت فى صيغة اسم الفاعل مجموعا فى تسع آيات ، ذكرت فيها الجبال لا بلفظها ولكن بوصف انها رواسى .

وذلك فى تسع سور : واحدة مدنية وهى (الرعد) ، وثمان مكية هى حسب نزول الوحى بها : (المرسلات) و(ق) ، (والنمل) ، (والحجر) ، (ولقمان) ، (وفصلت) ، (والنحل) (والأنبياء) .

وآية المرسلات هى قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾[1] .

(فيها) أى فى الأرض المذكورة فى الآيتين قبلها : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا** ﴾[2] .

وآية (ق) هى : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾[3] .

وبالفعلين (جعل) و(ألقى) جاء التعبير عن خلق الجبال فى بقية الآيات الكريمة التسع ، بالفعل (جعل) فى آيات (النمل ، وفصلت ، والأنبياء ، والرعد) ، وبالفعل (ألقى) فى آيات (الحجر ، ولقمان ، والنحل) .

والدلالة فى (جعل) عامة تشمل أنواع الجبال كلها ما ذكرنا منها وما لم نذكر . لكن الدلالة فى (ألقى) أخص منها فى (جعل) .

وقد لاحظ ذلك (ابن عطية) فيما ذكره (أبو حيان) عند تفسير آية النحل إذ نقل عنه قوله : قال المتأولون (ألقى) بمعنى (خلق وجعل) ، وهى عندى أخص من خلق وجعل ، وذلك أن

---

(١) الآية ٢٧ من سورة المرسلات .
(٢) الآيتان ٢٥ ـ ٢٦ من سورة المرسلات .
(٣) الآية ٧ من سورة ق .

(ألقى) تقتضى أن الله أوجد الجبال ليس من الأرض ولكن من قدرته واختراعه ، ويؤيد هذا النظر ما روى فى القصص . وإلى آخر ما قال عن (الحسن) ، و(وهب بن منبه) .

وقد أحسن فى التنبه إلى أن (ألقى) أخص من (جعل) لكنه لم يكن يعرف أن الجبال أنواع مختلفة النشأة ، وأن الفعل (ألقى) ينطبق تماما على نشأة الرسوبى منها ، فهى بالفعل يلقيها الحق سبحانه فى الأرض ، فمادتها تنقلها الأنهار وتلقيها قرب شواطىء البحار بأمره ، حتى إذا تراكمت إلى الحد الذى قدره سبحانه وتماسكت بالتضاغط وبغيره رفعتها تلك القوى جبالا شاطئية بأمره .

فقد خلق الله الجبال من الأرض وخلق ثانى نوعيها الأساسيين من قدرته واختراعه ، لا فجأة مرة واحدة كما فهم (ابن عطية) من الفعل (ألقى) . ومما روى فى القصص ، ولكن قدر الله سبحانه خلقها حين ألقاها خطوات ، كما قدر خلق الجنين فى بطن أمه فى أطوار ، لتكون كل خطوة ككل طور آية حقيقية ، يمكن إذا آن الأوان أن يكشف عنها عباده ، وليكون انطباق ما يكشفون عنه من حقائق الفطرة على حرفية ما أنزل فى كتابه العزيز ، كما رأيت فى (أرسى) و(ألقى) ، شاهد صدق على أن من أنزل القرآن هو فاطر الفطرة سبحانه .

٦ - والأرض مددناها

وخلق الجبال الرسوبية بهذه الصورة التى كشف عنها علم طبقات الأرض هو مثل يفسر معنى مد الأرض فى الآية ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ﴾ هو مثل من أمثلة ، وصورة من صور ، اذ لابد أن تكون هناك صور أخرى لمد الأرض ، كما يشير إليه تقديم مد الأرض على إلقاء الرواسى فى آية (ق) وفى أختها آية (الحجر) : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾[1] . وفى آية الرعد : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ﴾[2] .

صحيح ان الواو فى اللغة لا تفيد الترتيب حتما ، كما تفيد الفاء وثم ، لكن ترتيب الذكر عند العطف بالواو فى كتاب الله خصوصا إذا تكرر بذاته كما فى الآيات الثلاث ، لابد أن تكون له حكمة ، كما هو واضح مثلا فى مجىء المحارم ، حسب درجات القرابة فى قوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ (النساء ٢٣) .

ولو لم يأت التعبير إلا بالفعل (ألقى) فى الآيات الثلاث التى ورد فيها ذكر الرواسى مقرونا بذكر مد الأرض ، لكان هذا كافيا فى قصر صور هذا المد على ما تلقيه الأنهار من رواسب فى المياه الضحلة ، كمياه شواطىء البحار فى العادة ، سواء أرفعت طبقات الرواسب المتراكمة جبالا بعد ذلك أم لم ترفع ، بل بقيت أرضا تزرع وتسكن كما فى دلتا الأنهار .

لكن التعبير جاء أيضا بالفعل (جعل) حين ورد ذكر الرواسى مقرونا بمد الأرض فى آية الرعد ، ودلالة هذا الفعل عامة شاملة لأنواع الجبال .

وإذن فالجبال النارية على الأقل لابد أن يكون فيها أيضا مثال لما ذكر الله فى الآيات الكريمة الثلاث من مده الأرض أى اليابسة ، إذ على هذا ينبغى هنا أن يفهم معنى الأرض مادام يابس الأرض

(١) الآية ١٩ من سورة الحجر .
(٢) الآية ٣ من سورة الرعد .

هو الذى يزداد ويكثر بالجبال الرسوبية ، ودلتا الأنهار ، وهذا طبعا لا يمنع أن يكون لمد الأرض معنى آخر ، قد يكون الفلكيون عرفوه فى تاريخ نشأة الأرض الكوكب السيار ، لكن المد بمعنى الزيادة فى يابس الأرض هو الذى يوحى به الإنباء عنه مقترنا بالإنباء عن الرواسى (إلقاء) فى آيتين (وجعلا) فى آية ، أى على وجه الخصوص بالرواسى الرسوبية فى آيتين ، وعلى وجه العموم بها وبغيرها فى آية .

وقد تحقق المد بالمعنى الخاص المتضمن فى الفعل (ألقى) فهل هو متحقق على وجه أوسع ، كما يشير إليه الفعل ذو المعنى الأعم ؟

والعجيب أن المد بالمعنى الأوسع المستفاد من هذه الإشارة القرآنية متحقق بالفعل ، متحقق أيضا فى الجبال النارية ، أو هى معروفة فيه بالجزر البركانية ، مثل جزائر (هاواى) وأكثر جزر المحيط الهادى .

وفى دائرة معارف (هتشنسون) المصورة .

إن الجزائر إما قارية تتصل بالقارات من تحت الماء كأنها كانت جزءا منها ، وإما محيطية أى فى المحيطات منقطعة عن القارات ، وهذه بركانية تكونت بارتفاع قاع المحيط بالقوى البركانية بالتدريج ، أو بها فى غير تدرج ، كأنما ثار قاع المحيط بركانا وارتفع فجأة ، فهى جميعا أشبه بقمم بادية من جبال مغمورة فى المحيط .

وفى بعضها مثل (جاوة) سلاسل جبال صخرها نارى وفيها براكين أكثرها خامد وأقلها يثور من حين لحين . فهذه الجزر وجبالها كانت يوما ما قاعا للمحيطات ، ثم رفعها الله للعيان زيادة فى اليابسة كما زادها بالرسوبى من الجبال وبدلتا الأنهار .

وفى الآيات الكريمة الثلاث لطيفة أخرى تستنتج من أن مد الأرض ورد فى آيتين مع الفعل (ألقى) وفى آية مع الفعل (جعل) إشارة فيما يبدو إلى أن المد فى اليابسة عن طريق رواسب الأنهار أكثر وأغلب ، إن لم تكن ضعف مدها عن طريق رفع القيعان الصخرية النارية جزرا وجبالا فى البحار . وهذا يحتاج فى تحقيقه إلى بحث جغرافى ، لكنه أجدر أن يكون واقعا بالفعل ، إن لم يكن بالنسبة إلى الرسوبى والنارى من الجبال ، فبالنسبة إلى النارى من الجزر ، والرسوبى من دلتا الأنهار .

فتأمل وانظر إلى تلك الحقائق العلمية التى دل عليها القرآن بتشبيه بليغ ، يأتى فى آية ﴿ والجبال أوتادا ﴾ .

أو بلفظ فعل يأتى التعبير به كما فى الفعل (أرسى) والفعل (ألقى) أو بتقديم ظاهرة فى الفطرة على ظاهرة فى الذكر كلما ذكرت الظاهرتان معا ، كما فى مد الأرض وخلق الرواسى ، أو حتى بنسبة التكرار فى الذكر بين فعل وفعل كما فى ألقى وجعل .

ثم تأمل مع هذا كيف جاء ضمير الجلالة فى كل آية حاملا على قبول ما يظهر من أسرارها ، باعثا على استنباطها فى دقة وحذر ، واحكم ماذا كان يكون أثرها ووقعها لو كان من المسلمين (الفخر الرازى) مثلا من سبق الى استنباطها هكذا من اللفظ والتعبير القرآنى ، فسبق بذلك عن طريق القرآن إلى الكشف عن تلك الحقائق المتعلقة بالجبال ، قبل أن يكشف عنها العلم الحديث .

فهذا جانب آخر من جوانب إعجاز القرآن من الناحية العلمية لا يمكن أن ينسب بحق إلى عبقرية بشر ، لأن العبقرى إنما تظهر عبقريته فى ميدان هو مشتغل به متفرغ له ، ثم هو لا يكتفى فى ذكر نتاج عبقريته بالإشارة يودعها كلمة أو كلمتين أو كلمات معدودة ، كالألفاظ فى أى آية كونية من آيات القرآن ، على أن ضمير الجلالة فى الآية القرآنية يحول قطعا دون مثل هذا الاحتمال .

٧ - وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم

من تسع آيات فى القرآن ذكرت الجبال فيها بالرواسى ، نظرنا فى ثلاث ذكرت الرواسى فيها متصلة بمنِّ الله على عباده بمد الأرض ، وهى آيات (ق) و(الحجر) و(الرعد) ، ولهذه فى الآيات الست الباقية نظائر ، ثلاث ذكرت الرواسى فيها سببا لنعمة أخرى كبرى ، هى أن الله منع بها الأرض أن تميد وتضطرب بالناس .

تلك الآيات الثلاث هى حسب ترتيب نزول الوحى بها آية سورة لقمان ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم** ﴾[١] .

وآية النحل ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا** ﴾[٢] .

وآية سورة الأنبياء ﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم**)[٣] .

والخطاب فى آيتى لقمان والنحل للناس كافة ، أما ضمير الغائب فى آية الأنبياء فراجع الى (الذين كفروا) فى الآية قبلها ، إذ يذكرهم بعجائب من آيات قدرته وحكمته عسى ان يؤمنوا به وحده ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون * وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم** ﴾[٤] .

وأسرار الفطرة المنبه اليها فى الآيات الثلاث متعددة لكنا نقصر القول هنا على ما تعلق منها بالجبال ، ما كشف العلم الحديث عنه وماينتظر الكشف ، وأول ذلك ما فى قوله تعالى ﴿ **أن تميد بكم** ﴾ وفى القاموس (ماد يميد ميدا وميدانا تحرك وراغ) من إشارة واضحة إلى حركة الأرض ، فإن الذى يخشى منه أن يميد ويضطرب هو الجسم المتحرك لا الساكن .

وحركة الأرض لم تكن معروفة للمفسرين القدامى ، وإنما الأرض كانت عندهم ساكنة كما كانت عند الناس أجمعين حتى الفلاسفة ، ولذا ردوا احتمال اضطراب الأرض إلى ما يحيط باليابسة من البحار ، كأنما الأرض سفينة فوق ماء ، يخشى أن يضطرب بها لولا أن ثقلها الله بالجبال .

وكذا فسروا (وتدية) الجبال فى قوله تعالى ﴿ **والجبال أوتادا** ﴾ بأنها تثبت الأرض كما تثبت الأوتاد الخيمة ، وليست الأرض بخيمة كما بينا عند النظر فى هذه الآية الكريمة .

---

(١) الآية ١٠ من سورة لقمان .
(٢) من الآية ١٥ من سورة النحل .
(٣) الآية ٣١ من سورة الأنبياء
(٤) الآية : ٣٠ ومن الآية : ٣١ من سورة الأنبياء .

فلننظر الآن فيما يمكن أن يقال من الناحية العلمية فى الجبال ، كيف يمكن أن تكون سببا فى عدم اضطراب الأرض فى حركتها ليستقيم بعدم اضطرابها عيش الناس عليها ، فلو أنها اضطربت بهم فى حركتها اليومية لساء عيشهم فيها سوءا لا يقدره ، ولا يدرك أى نعمة لله على الناس فى امتناعه ، إلا من اضطربت به السفينة فى البحر أو الطيارة فى الهواء ، وطال ذلك عليه ثم ذهب ما كان به حين هدأ البحر أو سكن الهواء بدخول المرفأ أو النزول فى المطار ، وليتصور الإنسان بعد ذلك ماذا كان يكون حاله لو أن ذلك الاضطراب استمر به طول الحياة ؟

إن الأرض كرة ـ أو كالكرة ـ تدور أمام الشمس ، من المغرب إلى المشرق دورة كاملة فى اليوم ، حول محور لها يصنع مع مستوى فلك دورانها حول الشمس زاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة ونصف .

هذا الدوران المستمر حول محور ثابت يسمى فى اللغة درورا ـ فى القاموس (در السهم درورا . دار دورانا على الظفر ، وأدرت الغازلة المغزل فتلته فتلا شديدا حتى كأنه واقف من دورانه) .

والدرور فى الأرض ثابت المقدار والاتجاه طبقا لسنة كشف عنها (نيوتن) هى قانون من قوانين الحركة المنسوبة إليه يقول إن الجسم المتحرك لا تتغير حركته فى المقدار أو الاتجاه إلا بقوة تؤثر فيه من حيث المقدار أو الاتجاه أو كليهما .

وقد صان الله الأرض منذ فطرها على تلك الحركة اليومية عن كل قوة عارضة كى تدوم حركتها تلك إلى ما شاء الله ، أى إلى أن يشاء الله طلوع الشمس من مغربها كما جاء فى الحديث الصحيح ، إذ من الممكن فى العلم أن يحدث هذا .

والشمس تجرى بمجموعتها فى الفضاء بسرعة (١٢) ميلا فى الثانية ـ بأن تقترب من نجم أكبر منها يغلبها على الأرض بالقدر الذى يتغير به اتجاه حركتها اليومية ، فيصبح من المشرق إلى المغرب بدلا من المغرب إلى المشرق ، فيصير المشرق مغربا والمغرب مشرقا ، وعندئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، كما فى الحديث الصحيح .

وسنة ثانية لله سبحانه يعرفها علماء حركة الأجسام : أن الجسم المتماسك فى الكتلة حول محور لا يضطرب ولا يميد إذا دار أو (در) حول ذلك المحور ، والأرض فى الواقع لا تميد ولا تضطرب فى درورها أو دورانها المستمر حول محور لها لا يتبدل ولا يتغير ، فلابد طبقا لسنة الله هذه أن تكون متماثلة فى الكتلة بالنسبة لهذا المحور .

هذه نتيجة رياضية يقينية ، أظن العلماء اكتفوا بها فلم يحققوها عمليا لما يكتنف تحقيقها من الصعوبات ، خصوصا فيما يتعلق بتوزيع كتل الجبال ، إذ معنى التماثل فى الكتلة أن أى مستوى يقطع الجسم مارا بمحور التماثل فإنه يقسم الجسم إلى قسمين متماثلين فى الكتلة : لكل جزء فى أحد القسمين نظير فى القسم الآخر يساويه فى الكتلة والوزن لا فى الهيئة والحجم .

لكن الله فاطر الأرض ومرسى جبالها ينبىء عباده فى كتابه العزيز أنه أرسى الجبال فيها بحيث يمتنع ميدان الأرض واضطرابها ، فأول تفسير لهذا ، طبق سنته تعالى فى الجسم الدرار غير المضطرب ،

إن الجبال موزعة فى الأرض بحيث تتماثل فى الكتلة بالنسبة لحركة الأرض اليومية ، وهى نتيجة عجيبة حقا .

فمن أعجب عجائب القدرة والإحكام أن تتماثل كل الجبال الواقعة فى شقى الأرض إذا انشقت فى أى اتجاه بمستوى يمر بمحور دورانها اليومى أمام الشمس .

فهذا مجال واسع أمام علماء الفطرة ، وخاصة من أهل القرآن ، ليثبتوا عمليا ولو فى اتجاه واحد أن الجبال ذات كتل متماثلة بالنسبة لمحور درور الأرض وهو عمل عظيم لابد من اشتراك الحكومات فيه لتكفل ما يقتضيه من نفقات .

ومن يقل ان هذا ناتج نظريا من قانون عدم اضطراب الجسم الدوار ، وإذن فلا داعى لتحقيقه عمليا . إذا قامت دونه الصعوبات ، قلنا له كفى إعجازا علميا للقرآن ودليلا كونيا على أنه من فاطر الفطرة وخالق الأرض بحيث تدور ولا تميد .

إن القرآن نبه مرة بعد مرة إلى هذه الحقيقة النظرية الرياضية ، قبل أن يعرف العلم القانون الذى ينتجها .

وقد يكون الأمر أعظم سرا حتى من هذا ، قد تكون هناك عوامل ثانوية تعمل على اتزان الأرض فى حركتها اليومية ، حتى لايشعر بها الناس ، مثل فعل حركة الجزء السائل فى جوف الأرض أثناء الدوران أو فعل حركة مياه البحار على الشاطىء ، ومأأكثرها إن كان لها أثر مثل هذا ، فإن كان هذا له دخل فقد أشارت إليه الآيات بكلمة (رواسى) التى سميت بها الجبال ، إذا تذكرنا الحقائق العلمية التى ذكرناها عند النظر فى قوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾[1] .

وعلى أى حال فقد نبهت تلك الآيات إلى عجيبة من عجائب آيات الله فى الفطرة تتصل بعيش الناس فى الأرض ، وعليها يتوقف هناؤهم فيها ، وعلى علماء الفطرة أن يبحثوها وأولاهم بذلك علماء الفطرة من أهل القرآن ، فإن لم يفعلوا فسيقيض الله غيرهم لبحثه ، والكشف عنه ، وفاء بوعده سبحانه فى قوله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (فصلت ٥٣)

كما قد حدث فعلا على أيدى علماء الفلك الحديث بالكشف عن جريان الشمس فى الفضاء ، وعن الحركات الذاتية للنجوم ، تفسيرا لقوله : ﴿ والشمس تجرى ﴾[2] من سورة يس ، و ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾[3] من سورة الأنبياء .

٨ ـ بقية الآيات الموصوفة فيها الجبال بالرواسى

من الآيات التسع التى وصفت فيها الجبال بالرواسى ثلاث ، اقترن فيها ذكر الرواسى بمد

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النازعات .

(٢) من الآية ٣٨ من سورة يس

(٣) من الآية ٣٣ من سورة الأنبياء .

الأرض ، وثلاث بمنع ميدانها ، وثلاث أطلق الذكر فيها ، فلم يقترن بظاهرة خاصة فى الأرض كالتى ذكرت فى الآيات الست الأخرى .

هذه الآيات الثلاث الأخيرة هى حسب ترتيب نزول الوحى بسورها ﴿ **وجعلنا فيها رواسى شامخات** ﴾ (المرسلات ٢٧) وبقيتها :

﴿ **وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾ والآية (٦١) من النمل :

﴿ **أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون** ﴾

والآية (١٠) من فصلت : ﴿ **وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾

وقد جاء ذكر الأرض صريحا فى آية النمل كما ترى ، وبالضمير فى آيتى المرسلات وفصلت ، فإن الضمير فى (فيها) فى كل منهما راجع إلى الأرض المصرح بها فى أولى الآيتين (٢٥ ، ٢٦) من سورة المرسلات : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا** ﴾

وفى الآية (٩) من فصلت : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين** ﴾ .

وآية سورة المرسلات أول آية قرآنية ذكرت فيها الجبال بالوصف لا باللفظ ، وقبلها نزل الوحى بثلاث آيات ذكر فيها الجبال باللفظ ، هى آية المزمل : ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا** ﴾ (١٤) .

وآية التكوير ﴿ **وإذا الجبال سيرت** ﴾ (٣) .

وآية القارعة ، ثانية الآيتين : ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ (٤ ، ٥) .

وكلها كما ترى تتعلق بأمور هائلة تقع بالجبال بين يدى الساعة أو عند قيامها .

وإذن فآية المرسلات هى أول الآيات القرآنية التى ذكرت فيها الجبال من حيث علاقتها بهذه الحياة ، أى من حيث وجودها لافنائها ، ومن حيث دلالتها على الله الذى فطرها ، وحقق بها ماحقق من منافع للناس ، ومن هنا نتبين حكمة ذكرها باسمها فى آيات التذكير بهول يوم القيامة ، وذكرها بوصفها فى أول آية لفت الله بها عباده إلى مظهر من مظاهر قدرته فى خلق الجبال .

وفى الآية الكريمة وصفان للجبال كما ترى : أنهن رواسى ، وأنهن شامخات على التنكير لا على التعريف ، تنبيها إلى قبيل خاص من الجبال ، فلئن كانت كلها رواسى من حيث الثبوت والرسوخ فى الأرض ، وهو المعنى الذى يعرفه كل أحد ، فليست كلها شوامخ بالغة الارتفاع ، وإن كان تقدير الشموخ نسبيا عند الناس ، ولكن مهما يكن اختلافهم فى التقدير فالكلمة فى اللغة تدل على امتياز فى الارتفاع ، ففى القاموس (شمخ الجبل : علا وطال)

ولعل فى العلم حدا لايعتبر الجبل شامخا دونه عند علماء الجغرافيا الطبيعية أو الجيولوجيا . أو

الأرصاد الجوية ، فإن لم يكن فالآية تلفت إلى بحث هذه الناحية فيما تلفت إليه من بحث الكيفية التى رفع الله بها الجبال من ناحية ، وخالف بين ارتفاعها من ناحية أخرى ، حتى كان منها الشامخ الممتاز فى ارتفاعه عند أهل كل إقليم ، إذ الآية تتحدث عن الأرض عامة لا أرض العرب خاصة .

والضمير فى ﴿ وأسقيناكم ﴾ من قوله ﴿ وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ ضمير خطاب للناس فى عصر نزول القرآن أولا ، ثم فى كل عصر يأتى بعده ؛ ولأن الماء العذب ضرورى للحياة فى كل زمان ومكان .

وقد جاءت آية الماء الفرات تتلو فى السورة الكريمة آية الرواسى الشامخات ، ليدل التتالى على أن بين الأمرين صلة ، وأن شموخ الجبال له دخل كبير فى نزول الماء يسقاه الناس ، وما لهم من صنوف الزروع والحيوان ، ودخلها هذا حق يقرره علماء الجغرافيا الطبيعية والأرصاد ، ويعرف بعض وجوهه كل مثقف بين الناس .

فمن المعلومات العامة بين المثقفين أن الأنهار مرد منابعها إلى الجبال . والماء الفرات ، أى العذب جدا كما يقول القاموس ، يدل أول مايدل على ماء المطر ، لكن تنكيره فى الآيات الكريمة يفيد العموم فهو يشمل كل ماء عذب فى الأرض سواء أكان ماء نهر أو بئر أو مطر ، بل إلى الأمطار فى النهاية مرد مياه الأنهار والعيون والعذب من الآبار .

والمطر فى العلم يشمل كل ماينزل من السماء من ماء أو ثلج أو برد ، وطبق سنة الله سبحانه فى دورة الماء العذب بين البحار الملح والمحيطات وبين اليابسة ، فكل عذب على الأرض أصله الماء الأجاج .

ومنه سبحانه على الناس بالماء الفرات فى آية المرسلات لايخلو بهذا الوصف من إشارة إلى هذه الحقيقة الكبرى عند من يخلط ضمير الجلالة فى الآية ، ويعلم أن البحار والمحيطات التى فى مجموعها تغطى نحو واحد وسبعين فى المائة من مساحة الكرة الأرضية . يتبخر ماؤها باستمرار طبق سنن الله فى تبخر الماء فى مختلف الظروف ، حتى إذا حملت الرياح البخار إلى أعالى الجو تكاثف سحابا ، وتكاثف السحاب مطرا طبق سنن الله فى ذلك كله ، حتى إذا جرت الأنهار خلال الأرض منصبة نحو البحار عاد معظم الماء إلى المصدر الذى منه جاء ، وهكذا دواليك بإذن الله فى دورة تتوقف عليها الحياة فى الأرض ، من غير أن يضيع فيها من الماء العذب شىء .

فإن ما يظن الإنسان ضياعه ذهابا فى جوف الأرض أو فى الجو ، مصيره أن يختزن فى باطن الأرض ، ليتفجر حيث يشاء الله عيونا طبيعية ، وآبارا ارتوازية ، أو أن يتكثف إلى سحاب ليعود مطرا من جديد .

ويتضمن وصف الرواسى بالشامخات فى آية المرسلات حقيقة أخرى فى الفطرة ، وظاهرة معجبة ، تلك هى ظاهرة الثلج الدائم يكلل هامات الجبال التى تكون درجة الحرارة فى قممها دائما تحت الصفر ، إذا زاد ارتفاعها عن حد خاص يتوقف على موقعها من خط الاستواء ، حيث الحد الأعلى لارتفاع بدء منطقة الثلج ، أو خط الثلج الدائم كما يسمونه ، فهو عند خط الاستواء بين ستة عشر وسبعة عشر ألف قدم ، أى نحو خمسة آلاف متر فى المتوسط ، وهو يقل عن ذلك بالتدريج كلما بعد الموقع عن خط الاستواء ، أى كلما قلت درجة الحرارة الجوية فى المنطقة .

ففى مدار السرطان مثلا ، أى شمال خط الاستواء بنحو ٢٣ درجة يكون ارتفاع خط الثلج الدائم نحو ثلاثة عشر ألف قدم ، ويصغر ارتفاعه إلى نحو ستة آلاف قدم عند خط عرض (٥٠) شمال خط الاستواء ، ونحو (أربعة آلاف) قدم عند خط عرض (٦٠)° ، وهلم جرا حتى ينمحى تماما عند خط عرض (٧٠)° إذ يكون الثلج دائما على مستوى سطح البحر ، كما يدل عليه الرسم البيانى لخط الثلج الدائم فى نصف الكرة الشمالى فى دائرة معارف (هتشنش) المصورة ، وانمحاؤه هذا يحول دون اتخاذه معيارا عاما لشموخ الجبال فى كل منطقة .

لكن من الممكن اتخاذه معيارا للشموخ فى المنطقتين الحارة والمعتدلة ، فيكون الجبل شامخا فى المنطقة وابيضت هامته بالثلج على الدوام .

وكثير من الجبال يزيد ارتفاعه على ارتفاع خط الثلج الدائم فى منطقته ، فإذا كان الفرق بين الارتفاعين كبيرا كان لتراكم الثلج فيما بينهما فضل فى تغذية الأنهار بالماء ، نتيجة لذوبان بعض الثلج باستمرار لضغط الطبقات العليا على السفلى ، ولانزلاق ماعلا على ماذاب من أسفل ، ليتعدى حد خط الثلج شيئا فشيئا ، ولايكاد يتعداه حتى يسيل ، ولن تنفد الثلوج على قمم الجبال باستمرار ذوبان أطرافها الدنيا لأنها كما تسيل هكذا باستمرار تتجدد أيضا باستمرار ، ولولا هذه الظاهرة العجيبة لجفت الأنهار التى تجرى فى وديان تحفها الصحراء إذا انقضت فصول الأمطار عند منابعها .

وينبغى أن نتذكر أن الرياح التى تضع حمولتها من الماء على شوامخ الجبال تهب على ماوراءها ولا ماء فيها ، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرسل الغيث على ماوراءها عن طريق آية أخرى له فى الخلق ، هى الكهربائية الجوية التى يلفت الله عباده إلى ما أودعه فيها من مظاهر قدرته ورحمته فى الآيات التى تذكر الرعد والبرق فى كتابه العزيز .

ويتبين طرف من هذا الموضوع عندما نتأمل الآية ٤٣ من سورة النور ، لكن لايفوتنا التنبيه هنا إلى أن العموم الذى أفاده تنكير الماء فى آية المرسلات يشمل ماء الطريقين جميعا ، طريق الكهربائية الجوية وطريق شوامخ الجبال .

وقد تكرر ضمير الجلالة للمتكلم ثلاث مرات فى آية المرسلات عند ذكر الأرض ، وعند ذكر الرواسى الشامخات ، وعند ذكر الماء الفرات ، للدلالة على جلال ماأودع الله فى كل من أسرار قدرته وحكمته ورحمته ، مما ذكرنا بعضه ومما لايستطيع استقصاءه أحد ، ولكيلا يستكثر أحد على الآية منها أن تدل على ماعلم الله أنه سيهدى أهل العلم الحديث إليه من أسرارها ، وماكشف أو يكشفه العلم الحديث من تلك الأسرار ، إن هو إلا تفصيل لما أجملته كل آية من حجة الله على الناس ألا يعبدوا إلا إياه .

أما آية النمل (٦١) **﴿ أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ﴾** فقد أقام الله حجته على عباده فيها بالأرض أيضا ، ولكن من حيث أنها قرار ، وبالماء ولكن من حيث أنه أنهار ، وبالرواسى من غير تخصيص بالشامخ منها ، وبآية رابعة له سبحانه فى الخلق تتصل اتصالا وثيقا بالأنهار ، وهى الحجز بينها وبين البحار الأجاج ، التى تصب فيها حتى

لاتطغى البحار عليها ؛ لأن البحرين المذكورين فى غير وصف فى قوله :
﴿ وجعل بين البحرين حاجزا ﴾ هما عين البحرين المذكورين فى قوله من سورة الفرقان ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾[١]

وسورة الفرقان قد نزل بها الوحى قبل سورة النمل .

وهذا يفسر ذكر البحرين فى آية النمل من غير وصف ، بعد أن تبين وصفها فى آية الفرقان .

وكذلك الأمر فى ذكر حاجز بين البحرين مجردا فى آية النمل ، كأنه تلخيص للبرزخ والحجر المحجور ، وبيان لحكمة الله فيه .

وليس هذا موضع بيان كيف أن سنة الله فى جذب الأرض لما عليها إلى أقرب نقطة من مركزها هو الحاجز بين البحر أن يطغى على النهر ؛ لأن سطح البحر أقرب إلى مركز الأرض من سطح اليابسة الذى يجرى عليه النهر ، فبسنة الله العامة فى الجاذبية ينزل الله الأمطار ، ويجرى الأنهار ، ويحفظها من أن تطغى عليها البحار .

وللأنهار تاريخ طويل فى ماضيها وحاضرها يبحث عنها كيف نشأت وشقت مجاريها وتشقها فى الأرض ، وعلماء طبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية هم الذين يدركون جلال ماتدل عليه هذه الكلمة القرآنية الفذة .

أما الرواسى فى الآية فينبغى تقدير آيات الله فيها من حيث علاقتها بجعله سبحانه الأرض قرارا لمن عليها ، وذلك ليس فقط ؛ لأن السياق يقتضى هذا ، ولكن أيضا بقرينة لفظة فى الآية قليلة الحروف كبيرة الدلالة هى قوله تعالى :

(لها) بدلا من (فيها) فى الآية الكريمة ﴿ وجعل لها رواسى ﴾ .

وأول ذلك ماتبين هنا من صلتها بالأنهار ، أو صلة الشوامخ منها ، وثانى ذلك حفظ الله الأرض بها أن تميد بالناس ، أما علاقة الرواسى بمد الله الأرض فقد تأملنا آياتها أيضا فيما مضى ، وهو فيما تبين هناك موضوع إنشاء الجبال فى أهم أنواعها .

وتبقى آية فصلت من الآيات الثلاث المذكورة فى صدر هذا الحديث ، وواضح فيها ومن الآية قبلها أن ذكر الرواسى فيها كان طورا من أطوار خلق الأرض ، تمهيدا للطور الرابع الذى بارك الله فيه الأرض ، وقدر فيه أقواتها ، والدليل على الأمرين جميعا جمعه سبحانه يومى الطورين الأول والثانى مع يومى الطورين الثالث والرابع فى قوله :
﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ﴾[٢] بعد قوله :
﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾[٣]

وقوله فى ثانية آيتين بعدها ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾[٤] .

فهذه ثمانية أيام فى مجموعها ، لو أخذت مستقلا بعضها عن بعض . لكن الله سبحانه قد أخبر

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الفرقان .
(٢) من الآية ١٠ من سورة فصلت
(٣) من الآية ٩ من سورة فصلت
(٤) من الآية ١٢ من سورة فصلت

فى آيات متعددة أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

فلا مناص من أن الأربعة الأيام فى ثانية آيتى فصلت تشمل حتما اليومين فى أولاهما ، واليوم هذا ليس من أيام الدنيا ، ولكن من أيام الله ، والله سبحانه يقول : ﴿ **ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ (السجدة ٢٥) ، ويقول :

﴿ **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون** ﴾ (الحج ٤٧) ، ويقول سبحانه : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ (المعارج ٤) .

فالله أعلم بطول اليوم فى كل من أيام خلق الأرض والسموات .

وقد ثبت فى علم الفلك الحديث أن الأرض انفصلت عن الشمس استنادا على الأخص إلى ماثبت فى علم الكيمياء ، من أن المشترك من العناصر بين الأرض والشمس لايقل بل : يزيد على الستين والنيف ، وأن الارتفاع الهائل فى درجة حرارة باطن الشمس كاف فى تحليل مازاد على الستين والنيف من ثقيل عناصر الأرض ، وهى العناصر التى لم يكشفها التحليل الطيفى فى الشمس .

وإذن فاليوم الأول من أيام خلق الأرض هو الحقبة التى تم فيها انفصال جزء من الشمس ، الذى صار فيما بعد أرضا ، واليوم الثانى هو الحقبة التى تم فيها تبريد نفس الجزء حتى جمعه ، واليوم الثالث هو الحقبة التى خلق الله فيها الجبال فى الأرض بما على قشرتها من القوى الهائلة التى لايعرف قدرها إلا هو ، والتى عرف علماء طبقات الأرض كثيرا منها .

ومن عجائب الإعجاز العلمى البيانى فى آية فصلت أن دل الله سبحانه على التداخل بين آخر طور التبريد والتجميد ، وأول طور خلق الجبال ، بجمعه يومى الطورين الأول والثانى إلى يومى الطورين الثالث والرابع ، ودل عليها جميعا بقوله : ﴿ **فى أربعة أيام** ﴾ كما دل أيضا على أن خلق الجبال كان ضروريا لخلق الحياة ، وتقدير الأقوات فى الأرض ، فقد أخبر سبحانه فى سورة الأنبياء أنه جعل من الماء كل شىء حى ، ودل بذكر الأنهار أو الزروع فى أكثر آيات الجبال فى القرآن على أن الجبال ضرورية لسقيا الأرض وأهلها وزروعهاوحيواناتها بالماء الفرات ، وهذا فيما يتعلق بالإنسان هو الحكمة الأولى الكبرى فى خلق الجبال الرواسى .

* الجزاء العادل *

قوله تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون** ﴾

قد يراد بالحسنة هنا الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقد يقصد بها الإخلاص لله تعالى ، وقد يراد بها قول « لاإله إلا الله » أو كل عمل طيب كالبر والصلة والصدق والأمانة وقد فصل الله تعالى ـ هذه الخيرية ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾[1] وفى قوله : ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء** ﴾[2] . ثم يأتى الفضل العظيم متمثلا فى الأمن من الفزع يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى**

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة

أولئك عنها مبعدون * لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون * لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾[٢] .

إن نعمة الأمن من أعظم ماينعم الله به على العبد بعد نعمة الإسلام قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ماكنتم تعملون ﴾

وعلى الجانب الآخر يأتى الحديث عن الذين جاءوا بالأعمال السيئة : وهكذا يقترن الوعد بالوعيد . قال تعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٤] . . وقد تفسر السيئة بالشرك والمعنى يشمل كل هذا . جزاء هؤلاء أن يكبوا على وجوههم فى النار كما قال تعالى :﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون ﴾[٥] . ويقال لهم : ﴿ هل تجزون إلا ماكنتم تعملون ﴾[٦] ﴿ إن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٧] .

سبحانك ربى يامن قلت : ﴿ وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٨] وقلت : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا . أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير ﴾[٩] . ويامن قلت عن هؤلاء :﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾[١٠] ثم قلت : ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم . بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾[١١].

قوله تعالى : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ .

---

(١) الآيات من ١٠١ إلى ١٠٣ من سورة الانبياء
(٢) الآية ٣٧ من سورة سبأ
(٣) الآيات من ٥١ إلى ٥٧ من سورة الدخان
(٤) الآية ٢٧ من سورة يونس
(٥) الآيتان : ٩٤ - ٩٥
(٦) من الآية ٩٠ من سورة النمل
(٧) الآية ٤٤ من سورة يونس
(٨) الآية ٧٦ من سورة الزخرف
(٩) الآية ٤٠ من سورة فصلت
(١٠) الآيتان : ٧٤ - ٧٥ من سورة الزخرف .
(١١) الآيات : ٧٧ - ٨٠ من سورة الزخرف .

وبعد بيان الجزاء العادل يأمر الله تعالى رسوله ومصطفاه أن يقول للأمة :

﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ﴾ والمقصود بها مكة المكرمة . وإضافتها إلى الرب سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتكريم ـ زادها الله تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وعظمة ـ إن هذا الأمر فيه التوحيد الخالص ﴿ قل ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولاتكونن من المشركين ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلاراد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وماأنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ (١). وقال تعالى : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين.وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصا له دينى ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين.لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾(٣) .

وقد بين رسول الله ﷺ حرمة البلد الحرام فى قوله الذى جاء فى الصحيحين عن ابن عباس يوم فتح مكة : (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولايختلى خلاها)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وله كل شىء ﴾ فلا يخرج شىء عن إرادته وعلمه ومشيئته وقدرته فاللهم أنت ربى لاإله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . أعلم أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفس ومن شر كل دابة ، أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم . سبحانك جعلت لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما من دخل هذا البيت كان آمنا قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴾(٥) . وكما أمر الله تعالى رسوله أن يعبد رب هذه البلدة أمره أن يكون من المسلمين . فصلوات ربى وسلامه عليه هو أول المسلمين المبعوث رحمة للعالمين . شمس الهداية الربانية

---

(١) الآيات ١٠٤ إلى ١٠٩ من سورة يونس
(٢) الآيات ١١ : ١٤ من سورة الزمر
(٣) الآيات ١٦١ إلى ١٦٤ من سورة الأنعام
(٤) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الحج ج ٢ ص ٩٨٦
(٥) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت

ومبعوث العناية الإلهية ، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . . كما أمره سبحانه أن يتلو القرآن عليهم فقال : ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ امتثالا لقوله عز وجل ﴿ واتل ماأوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾(١) . وقوله : ﴿ اتل ماأوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون ﴾(٢) وقوله : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾(٣) فمن اهتدى واتبع سبيل المتقين فلنفسه . ومن ضل فإنما يضل عليها قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد ﴾(٤) وقال : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾(٥) .

وقال : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾(٦) .

وهنا يقول تعالى : ﴿ ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ كقوله جل شأنه :

﴿ فذكر إنما أنت مذكر.لست عليهم بمسيطر ﴾(٧) وقوله : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل * لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾(٨)

قوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وماربك بغافل عما تعملون ﴾(٩)) .

قال الإمام ابن القيم فى الحمد : المقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل مايحدث من إحسان ونعمة وامتحان وبلية . ومايقضيه من طاعة ومعصية . والله تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر ، أما حمد المدح فالله محمود على كل ماخلق إذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين . وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة فى حق المؤمن إذا اقترن بواجبه من الإحسان ، والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة ، والطاعة من أجل نعمه .

وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ماهو نعمة أيضا وإن كان سببها مسخوطا مبغوضا للرب سبحانه ، ولكنه يحب مايترتب عليها من التوبة والاستغفار ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل إذا ضلت راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها ومن الحياة فنام ثم استيقظ فإذا بها قد تعلق خطامها فى أصل شجرة فجاء حتى أخذها . فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الكهف
(٢) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت
(٣) الآية ٤٥ من سورة ق
(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت
(٥) الآية ١٥ من سورة الاسراء
(٦) الآية ١٠٤ من سورة الأنعام
(٧) الأيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الغاشية
(٨) الآيتان ٦٦ ، ٦٧ من سورة الأنعام
(٩) الآية ٩٣ من سورة النمل

فهذا الفرح العظيم الذى لايشبهه شىء أحب إليه سبحانه من عدمه ، وله أسباب ولوازم لابد منها ، ومايحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبا له فهذا الفرح أحب إليه بكثير ، ووجوده بدون لازمة ممتنع ، فله من الحكمة فى تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة . هذا بالإضافة إلى الرب سبحانه ، وأما بالإضافة إلى العبد فانه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفا على أسباب لاتحصل بدونها . فتقدير الذنب عليه إذا اتصل به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته ومايعقبه ، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه ، والرب سبحانه محمود على الأمرين . فإن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد والاعتبار بكمال النهاية لاينقص البداية ، وإن لم يتصل به ذلك فهذا لايكون إلا من خبث نفسه وشره وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة فى الملأ الأعلى . ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث مافيها . فلابد من خروج ذلك منها من القوة إلى الفعل ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة فى المحل الأسفل . فإن هذه النفوس إذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الأسباب التى توصلها إلى ماهى مهيأة له ولايليق بها سواه ، والرب سبحانه محمود على ذلك أيضا كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له ، فما كل أحد قابلا لنعمته تعالى ، فحمده وحكمته تقتضى ألا لايودع نعمه وإحسانه وكنوزه فى محل غير قابل لها .

قوله تعالى : ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ هذا وعد صادق وعده من لايخلف الميعاد ، فقد أمر سبحانه وتعالى بالنظر فى الآفاق والأنفس . قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض ﴾[١] . وقال : ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾[٢] وقال : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾[٣] وقال : ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وماخلق الله من شىء ﴾[٤] وقال : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾[٥] وقال : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾[٦] وقال : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾[٧] وقال : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت*وإلى السماء كيف رفعت*وإلى الجبال كيف نصبت*وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[٨] . لقد صدق الله وعده إذ يقول : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط ﴾[٩] .

سبحانك ربى أنت القائل : ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ وكيف لايكون ذلك كذلك وأنت الله الحى القيوم لاإله إلا أنت ، الوجود ملكك والقضاء حكمتك وكل الكائنات طوع إرادتك ، علوت

---

١ - من الآية ١٠١ من سورة يونس
٢ - من الآية ٢٥٩ من سورة البقرة
٣ - من الآية ٩٩ من سورة الأنعام
٤ - من الآية ١٨٥ من سورة الأعراف
٥ - الآية ٥ من سورة الطارق
٦ - الآية ٢٤ من سورة عبس
٧ - الآية ٦ من سورة ق
٨ - الآيات ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية
٩ - الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة فصلت

فقهرت ، وبطنت فخبرت،وملكت فقدرت ، وحكمت فعدلت ، خلقتنا فأنت على كل شيء قدير ، ورزقتنا فأنت أكرم الأكرمين ، وتميتنا فأنت الجبار ذو القوة المتين،وتحيينا فأنت أسرع الحاسبين ، وأحكم الحاكمين،وأعدل العادلين .

سورة القصص

قال صاحب البصائر فى تلك السورة :

السورة مكية بالاتفاق . عدد آياتها ثمان وثمانون وكلماتها ألف وأربعمائة وواحدة وحروفها خمسة آلاف وثمانمائة . وسميت سورة القصص لاشتمالها عليها فى قوله ﴿ وقص عليه القصص ﴾ أى قص موسى على شعيب .

مقصود السورة : بيان ظلم فرعون بنى إسرائيل ، وولادة موسى ، ومحبة آسية له،ورد موسى على أمه ، وحديث القبطى والإسرائيلى ، وهجرة موسى من مصر إلى مدين وسقيه لبنات شعيب ، واستئجار شعيب موسى ، وخروج موسى من مدين ، وظهور آثار النبوة ، واليد البيضاء ، وقلب العصا ، وإمداد الله تعالى له بأخيه هارون،وحيلة هامان فى معارضة موسى ، وإخبار الله تعالى عما جرى فى الطور ، ومدح مؤمنى أهل الكتاب ، وقصة إهلاك القرون الماضية ، ومناظرة المشركين يوم القيامة ، واختيار الله ـ تعالى ـ ماشاء ، وإقامة البرهان على وجود الحق إياه بالقهر ، ووعد الرسول ﷺ بالرجوع إلى مكة ، وبيان أن كل مادون الحق فهو فى عرضة الفناء والزوال ، وأن زمام الحكم بيده (تعالى) فى قوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه ﴾ أى كمل أربعين سنة . وقيل : كمل عقله وقيل : خرجت لحيته . وفى يوسف ﴿ بلغ أشده ﴾ فحسب ؛ لأنه أوحى إليه فى صباه . قوله : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ وفى يس : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل ﴾ قيل : اسمه خزبيل مؤمن من آل فرعون وهو النجار . وقيل شمعون وقيل : حبيب وفى يس هوهو . قوله : ﴿ من أقصى المدينة ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن يكون ﴿ من أقصى المدينة ﴾ صفة لرجل . والثانى أن يكون صلة لجاء ، والثالث أن يكون صلة ليسعى . والأظهر فى هذه السورة أن يكون وصفا ، وفى يس أن يكون صلة . وخصت هذه السورة بالتقديم لقوله تعالى قبله : ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ ثم قال : ﴿ وجاء رجل ﴾ وخصت سورة يس بقوله : ﴿ وجاء من أقصى المدينة ﴾ ولما جاء بالتفسير أنه كان يعبد الله فى جبل ، فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلا . قوله ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ وفى الصافات ﴿ من الصابرين ﴾ لأن ماهنا من كلام شعيب . والمعنى : ﴿ ستجدنى من الصالحين ﴾ فى حسن العشرة والوفاء بالعهد ، وفى الصافات من كلام إسماعيل حين قال له أبوه ﴿ أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ فأجاب ﴿ ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ أى على الذبح .

قوله : ﴿ ربى أعلم بمن جاء ﴾ وبعده : ﴿ من جاء ﴾ بغير باء . الأول هو الوجه ، لأن ﴿ أعلم ﴾ هذا فيه معنى الفعل ، ومعنى الفعل لايعمل فى المفعول به ، فزيد بعده باء ، تقوية للعمل . وخص الأول بالأصل ثم حذف من الآخر الباء اكتفاء بدلالة الأول عليه . ومحله نصب بفعل آخر ، أى يعلم من جاء بالهدى ولم يقتض تغييرا ؛ لأن دلالة الأول قام مقام التغيير ، وخص الثانى لأنه فرع .

قوله : ﴿ لعلى أطلع إلى إله موسى ﴾ وفى المؤمن ﴿ لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ﴾ لأن قوله : ﴿ أطلع إلى إله موسى ﴾ فى هذه السورة خبر لعل . وفى المؤمن عطف على خبر (لعلى) وجعل قوله ﴿ أبلغ الأسباب ﴾ خبر لعل ، ثم أبدل منه ﴿ أسباب السماوات ﴾ وإنما زاد ليقع فى مقابلة قوله : ﴿ أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ ؛ لأنه زعم أنه إله الأرض ، فقال : ﴿ ماعلمت لكم من إله غيرى ﴾ أى : فى الأرض ، ألا ترى أنه قال : ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ فجاء فى كل سورة على مااقتضاه ماقبله .

قوله : ﴿ وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ وفى المؤمن ﴿ كاذبا ﴾ ؛ لأن التقدير فى هذه السورة : وإنى لأظنه كاذبا من الكاذبين ، فزيد ﴿ من الكاذبين ﴾ لرءوس الآية ثم أضمر ﴿ كاذبا ﴾ لدلالة ﴿ الكاذبين ﴾ عليه . وفى المؤمن جاء على الأصل ، ولم يكن فيه موجب تغيير .

قوله : ﴿ وما أوتيتم من شىء ﴾ بالواو . وفى الشورى ﴿ فما أوتيتم من ﴾ بالفاء ؛ لأنه لم يتعلق فى هذه السورة بما قبله أشد تعلق ، فاقتصر على الواو ، لعطف جملة على جملة ، وتعلق فى الشورى بما قبلها أشد تعلق ؛ لأنه عقب مالهم من المخافة بما أوتوه من الأمنة ، والفاء حرف التعقيب .

قوله ﴿ وزينتها ﴾ وفى الشورى ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ فحسب ؛ لأن فى هذه السورة ذكر جميع ما بسط من الرزق وأعراض الدنيا كلها مستوعبة بهذين اللفظين .

فالمتاع : مالا غنى عنه فى الحياة : من المأكول والمشروب والملبوس والملبس والمنكوح . والزينة : مايتجمل به الإنسان ، وقد يستغنى عنه كالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة ، والدور المجصصة ، والأطعمة الملبقة . وأما فى الشورى فلم يقصد الاستيعاب ، بل ماهو مطلوبهم فى تلك الحالة : من النجاة والأمن فى الحياة ، فلم يحتج إلى ذكر الزينة .

قوله ﴿ إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ﴾ وبعده ﴿ إن جعل الله عليكم النهار سرمدا ﴾ قدم الليل على النهار ؛ لأن ذهاب الليل بطلوع الشمس أكثر فائدة من ذهاب النهار بدخول الليل ، ثم ختم الآية الأولى بقوله : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ بناء على الليل وختم الأخرى بقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ بناء على النهار ، والنهار مبصر ، وآية النهار مبصرة .

قوله : ﴿ ويكأن ﴾ ﴿ ويكأنه ﴾ ليس بتكرار ؛ لأن كل واحد منهما متصل بغير ما اتصل به الآخر . قال ابن عباس : وى صلة . وإليه ذهب سيبويه . فقال : وى : كلمة يستعملها النادم بإظهار ندامته . وهى مفصولة من (كأنه ﴾ . وقال الأخفش : أصله ويك (وأن) بعده منصوب بإضمار العلم ، أى : أعلم أن الله . . وقال بعضهم أصله : ويلك وفيه ضعف . وقال الضحاك : الياء والكاف صلة . وتقديره وأن الله .

وجه المناسبة

ووجه مناسبتها لما قبلها أمور :

١) أنه سبحانه بسط فى هذه السورة ماأوجز فى السورتين قبلها من قصص موسى عليه السلام وفصل ماأجمله هناك ، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء بنى إسرائيل الذى أوجد إلقاء موسى حين ولادته فى اليم خوفا عليه من الذبح ، ثم ذكر قتله القبطى ، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه بنته ، ثم مناجاته لربه .

٢) أنه أجمل فى السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة ، وبسط هنا أتم البسط .

٣) أنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط ، وأجمله هنا فى قوله ﴿ وكم أهلكنا من قرية ﴾ الآيات .

٤) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز ذلك هنا ، وهكذا من المناسبات التى تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٧) فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ (٨) وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ

لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

تفسير المفردات

نتلو عليك : أى ننزل عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تجبر واستكبر ، شيعا : أى فرقا يستخدم كل صنف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ويغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لايتفقوا . يستضعف : أى : يجعلهم ضعفاء مقهورين . والطائفة هنا هم بنو اسرائيل . ونمن : أى : نتفضل .

الأئمة : واحدهم إمام وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا

ويقال : مكن له إذا جعل له مكانا موطأ ممهدا يجلس عليه .

والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها .

وهامان :وزير فرعون

يحذرون : أى : يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود من بنى اسرائيل .

الوحى : الإلهام كما جاء فى قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾[1]

والخوف : غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث فى المستقبل .

والحزن : (بفتحتين ويضم فسكون كالرشد والرشد والسقم والسقم) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل .

واليم : البحر والمراد هنا نهر النيل .

والالتقاط : أخذ الشىء فجأة من غير طلب له .

والمراد من الخطأ هنا : الخطأ فى الرأى وهو حق الصواب والمراد به الشرك والعصيان لله وقرت به العين : فرحت به وسرت

فارغا : أى خاليا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه نحو ماجاء فى قوله : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾[2] أى خلاء لاعقول بها . والإبداء : إظهار الشىء

والربط على القلب : شده والمراد هنا تثبيته .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل

(٢) من الآية ٤٣ من سورة ابراهيم

وقصيه : أى : اقتفى أثره وتتبعى خبره .
فبصرت به : أى : بصرته
عن جنب : أى : عن بعد . لايشعرون : أى : لايدرون أنها أخته . حرمنا : أى : منعنا .
يكفلون : أى : يضمنون رضاعه والقيام بشئونه . والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون ماينفعه فى غذائه وتربيته ولايقصرون فى خدمته .
واحدة الأشد : شدة كأنعم ونعمة
والشدة : القوة والجلادة
وبلوغ الأشد : استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتد به .
والاستواء : اعتدال العقل وكماله ويختلف باختلاف الاقاليم والأزمان والأحوال
والحكم : الحكمة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ﴾
الطاء والسين والميم بعض حروف الهجاء التى تشير إلى إعجاز هذا الكتاب المبين وحقا أنه معجز **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾**[1] .

* كلمة عن الإعجاز *

قال صاحب البصائر : إعلم أن الإعجاز إفعال من العجز الذى هو زوال القدرة عن الإتيان من عمل أو رأى أو تدبير . والذى يظهر على الخلق من هذا المعنى ثلاث درجات : مخرقة وكرامة (ومعجزة) وبين المخرقة والمعجزة فروق كثيرة .

منها أن المخرقة لابقاء لها ، كعصى سحرة فرعون ، والمعجزة باقية كعصا موسى . ومنها أن المخرقة لاحقيقة لها ، ولا معنى ، لأن بناءها على الآلات والحيل ، والمعجزة لا آلة لها ، ولا حيلة ، ومنها أن العوام يعجزون عن المخرقة ، وأما الحذاق والأذكياء فلا يعجزون عنها . وأما المعجزة فالخواص والعوام على درجة واحدة فى العجز عنها .

ومنها أن المخرقة متداولة بين الناس فى جميع الأزمان غير مختصة بوقت دون وقت ، وأما المعجزة فمختصة بزمان النبوة ، خارجة عن العرف ، خارقة للعادة .

ومنها أن المخرقة يمكن نقضها بأضدادها ، ولا سبيل للنقض إلى المعجزة .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

وأما الفرق بين المعجزة والكرامة فهو أن المعجزة مختصة بالنبى دائما .

وقت إظهارها مردد بين الجواز والوجوب ، ويقرن بالتحدى ، وتحصل بالدعاء ، ولاتكون ثمرة المعاملات المرضية ولا يمكن تحصيلها بالكسب والجهد ويجوز أن يحيل النبى المعجزة إلى نائبه لينقلها من مكان إلى مكان كما فى شمعون الصفا الذى كان نائبا عن عيسى فى إحياء الموتى ، وأرسله إلى الروم ، فأحيا الموتى هناك . وأيضا يكون أثر المعجزة باقيا بحسب إرادة النبى ، وأما الكرامة فموقوفة على الولى ، ويكون كتمانها واجبا عليه ، وإن أراد إظهارها وإشاعتها زالت وبطلت .

وربما تكون موقوفة على الدعاء والتضرع . وفى بعض الأوقات يعجز عن إظهارها .

وبما ذكرنا ظهر الفرق بين المعجزة والكرامة والمخرقة .

وجملة المعجزات راجعة إلى ثلاثة معان : إيجاد معدوم،أو إعدام موجود ، أو تحويل حال موجود .

إيجاد معدوم كخروج الناقة من الجبل بدعاء صالح عليه السلام .

وإعدام الموجود كإبراء الأكمه والأبرص بدعاء عيسى عليه السلام .

وتحويل حال الموجود كقلب عصى موسى ثعبانا .

وكل معجزة كانت لنبى من الأنبياء فكان مثلها لرسول الله - ﷺ - ، وكان إظهارها له ميسرا مسلما .

وأفضل معجزاته وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذى نزل عليه بأفصح اللغات ، وأصحها ، وأبلغها ، وأوضحها،وأثبتها ، وأمتنها ، بعد أن لم يكن كاتبا ولا شاعرا ولا قارئا ، ولا عارفا بطريق الكتابة ، واستدعاء من خطباء العرب العرباء وبلغائهم وفصحائهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فأعرضوا عن معارضته ، عجزا عن الإتيان بمثله . فتبين بذلك أن هذه المعجزة أعجزت العالمين عن آخرهم .

ثم اختلف الناس فى كيفية الإعجاز .

فقيل : لم يكونوا عاجزين عن ذلك طبعا ، إلا أن الله صرف همتهم ، وحبس لسانهم ، وسلبهم قدرتهم ، لطفا بنبيه ﷺ ، وفضلا منه عليه . وذلك قوله : ﴿ وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾[1] . وهو قول مردود غير مرضى .

وقال آخرون : لم يكن عجزهم عن الإتيان بمثل لفظه ، وإنما كان عن الإتيان بمثل معناه .

وقيل : لم يعجزوا عنها ، وإنما عجزوا عن نظم مثل نظمه ، فإن أنواع كلامهم كانت منحصرة فى الأسجاع ، والأشعار ، والأراجيز ، فجاء نظم التنزيل على أسلوب بديع لايشبه شيئا من تلك الأنواع ، فقصرت أيدى بلاغاتهم عن بلوغ أدنى رتبة من مراتب نظمه .

ومذاهب أهل السنة أن القرآن معجز من جميع الوجوه : نظما ، ومعنى ، ولفظا ، لا يشبهه شىء من كلام المخلوقين أصلا ، مميز عن خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، باثنى عشر معنى لو لم يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعانى لكان معجزا ، فكيف إذا اجتمعت فيه جميعا .

---

(١) من الآية ١١٣ من سورة النساء

ومجملها إيجاز اللفظ ، وتشبيه الشيء بالشيء ، واستعارة المعانى البديعة ، وتلاؤم الحروف ، والكلمات ، والفواصل ، والمقاطع فى الآيات ، وتجانس الصيغ والألفاظ ، وتعريف القصص والأحوال ، وتضمين الحكم والأسرار ، والمبالغة فى الأمر والنهى ، وحسن بيان المقاصد والأغراض ، وتمهيد المصالح والأسباب ، والإخبار عما كان ، وعما يكون .

أما إيجاز اللفظ مع تمام المعنى فهو أبلغ أقسام الإيجاز . ولهذا قيل : الإعجاز فى الإيجاز نهاية إعجاز . وهذا المعنى موجود فى القرآن إما على سبيل الحذف ، وإما على سبيل الاختصار .

فالحذف مثل قوله تعالى : ﴿ **واسأل القرية** ﴾[1] أى أهلها ﴿ **ولكن البر من آمن بالله** ﴾[2] أى بر من آمن . والاختصار ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾[3]

هذه أربع كلمات وستة عشر حرفا يتضمن ما ينيف على ألف ألف مسألة ، قد تصدى لبيانها علماء الشريعة ، وفقهاء الإسلام فى مصنفاتهم ، حتى بلغوا ألوفا من المجلدات ، ولم يبلغوا بعد كنهها وغايتها .

وأما تشبيه الشيء بالشيء فنحو قوله تعالى : ﴿ **أعمالهم كسراب بقيعة** ﴾[4] وقوله ﴿ **أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف** ﴾[5] وقوله ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق** ﴾[6] وكل مثل من هذه الأمثال ورج جواهر ، وبرج زواهر ، وكنز شرف ، وعالم علم . وحق حقائق ، وبحار درر دراية ، ومصابيح سالكى مسالك السنة . ولهذا يقال : الأمثال سرج القرآن .

وأما استعارة المعنى فكالتعبير عن المضى والقيام بالصدع ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾[7] . أى قم بالأمر ، وكالتعبير عن الهلاك ، والعقوبة بالإقبال والقدوم ﴿ **وقدمنا إلى ماعملوا من عمل** ﴾[8] وكالتعبير عن تكوين الليل والنهار بالسلخ ﴿ **وءاية لهم الليل نسلخ منه النهار** ﴾[9]

ولايخفى مافى أمثال هذه الاستعارات من كمال البلاغة ، ونهاية الفصاحة ، يحكى أن أعرابيا سمع ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ فلم يتمالك أن وقع على الأرض وسجد ، فسئل عن سبب سجدته فقال : سجدت فى هذا المقام ، لفصاحة هذا الكلام .

وأما تلاؤم الكلمات والحروف ففيه جمال المقال ، وكمال الكلام ، نحو قوله تعالى : ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾[10] ﴿ **وأسلمت مع سليمان لله** ﴾[11] ﴿ **ياأسفى على يوسف** ﴾[12] ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم** ﴾[13] ﴿ **فأدلى دلوه** ﴾[14]

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف
(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة
(٣) الآية ١٧٩ من سورة البقرة
(٤) الآية ٣٩ من سورة النور
(٥) الآية ١٨ من سورة ابراهيم
(٦) الآية ١٩ من سورة البقرة
(٧) الآية ٩٤ من سورة الحجر
(٨) الآية ٢٣ من سورة الفرقان
(٩) الاية ٣٧ من سورة يس
(١٠) الآية ٢٤ من سورة البقرة
(١١) الآية ٤٤ من سورة النمل
(١٢) الآية ٨٤ من سورة يوسف
(١٣) الآية ٤٣ من سورة الروم
(١٤) الآية ١٩ من سورة يوسف

﴿ فروح وريحان ﴾[١] ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾[٢] ونظائرها . وأما فواصل الآيات ومقاطعها فعلى نوعين : أما على حرف كطه ، فإن فواصل آياتها على الألف ، وكاقتربت ، فإن مقاطع آياتها على الراء ، وإما على حرفين كالفاتحة ؛ فإنها بالميم والنون ، :
﴿ الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾ ونحو ﴿ ق ، والقرآن المجيد ﴾ فإنها بالباء والدال .

وأما تجانس الألفاظ فنوعان أيضا : إما من قبيل المزاوجة ، كقوله ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾[٣] ﴿ إنما نحن مستهزءون الله يستهزىء بهم ﴾[٤] ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾[٥] ﴿ يكيدون كيدا وأكيد كيدا ﴾[٦] ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾[٧] ﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾[٨] ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[٩] وإما من قبيل المناسبة كقوله :
﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾[١٠] ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[١١]

وأما تصريف القصص والأحوال فهو أن الله تعالى ذكر بحكمه البالغة أحوال القرون الماضية ، ووقائع الأنبياء ، وقصصهم ، بألفاظ مختلفة وعبارات متنوعة ، بحيث لو تأمل غواصو بحار المعانى ، وخواضو لجج الحجج ، وتفكروا فى حقائقها ، وتدبروا فى دقائقها ، لعلموا وتيقنوا (وتحققوا) وتبينوا أن مافيها من الألفاظ المكررة المعادات ، إنما هى لأسرار ولطائف لايرفع برقع حجابها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، ولا يكشف ستر سرائرها من النحارير إلا واسطتهم وقصهم .

وأما تضمين الحكم والأسرار فقولنا فى الفاتحة :

إن فى (بسم) إلتجاء الخلق إلى ظل عنايته ، وكلمة الجلالة تضمن آثار القدرة والعظمة ، وكلمة الرحمن إشارة إلى أن مصالح الخلق فى هذه الدار منوط بكفايته . وكلمة الرحيم بيان لإحتياج العالمين إلى فيض من خزائن رحمته . والنصف الأول من الفاتحة يتضمن أحكام الربوبية . والنصف الثانى يقتضى أحكام العبودية . وخذ على هذا القياس . فإن كل كلمة من كلمات القرآن كنز معان ، وبحر حقائق ومن جوامع ايات القرآن قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[١٢] فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق ، وقوله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[١٣] مستجمعة لجميع أسباب السياسة والإيالة . وقوله : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾[١٤] محتوية على حاجات الحيوانات

---

١ - الآية ٨٩ من سورة الواقعة
٢ - الآية ٥٤ من سورة الرحمن
٣ - الآية ١٩٤ من سورة البقرة
٤ - الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة البقرة
٥ - الآية ١٤٢ من سورة النساء
٦ - الآية ١٥ من سورة الطارق
٧ - الآية ٥٤ من سورة آل عمران
٨ - الآية ٤٠ من سورة الشورى
٩ - الآية ٦٠ من سورة الرحمن
١٠ - من الآية : ١٢٧ من سورة التوبة
١١ - من الآية : ٣٧ من سورة النور
١٢ - الآية ١٩٩ من سورة الأعراف
١٣ - الآية ٩٠ من سورة النحل
١٤ - الآية ٣١ من سورة النازعات

كافة وقوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ﴾[١] إلى آخر ثلاث آيات الجامعة لجميع الأوامر والنواهى ، ومصالح الدنيا والآخرة . وقوله : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ يشتمل على أمرين ، ونهيين وخبرين ، وبشارتين .

وأما المبالغة فى الأسماء والأفعال فالأسماء ﴿ فعال لما يريد ﴾[٢] ، ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾[٣] ، ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٤] ، ﴿ الملك القدوس ﴾[٥] .

﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾[٦] ، ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾[٧] ، ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾[٨] . والأفعال : ﴿ أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾[٩] ، ﴿ ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾[١٠] ، ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمما ﴾[١١] ، ﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾[١٢] ، ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[١٣] ، ﴿ وكلا تبرنا تتبيرا ﴾[١٤] ، ﴿ قدروها تقديرا ﴾[١٥]

وأما حسن البيان فلتمام العبارة : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾[١٦] ، ولبيان فصل الخصومة والحكومة ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾[١٧] وللحجة للقيامة ﴿ يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[١٨] ، وللنصيحة والموعظة ﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾[١٩] ولثبات الإيمان والمعرفة : ﴿ كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾[٢٠] ، ولبيان النعت والصفة ﴿ بكل شىء عليم ﴾[٢١] ، ﴿ على كل شىء قدير ﴾[٢٢] ، ودليلا لثبوت الرسالة ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾[٢٣] وإظهارا للعلم والحكمة ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾[٢٤] ، وللرحمة السابقة واللاحقة ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[٢٥] ، وبرهانا على الوحدانية والفردانية ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[٢٦] ، وتحقيقا للجنة والنار : ﴿ أعدت للمتقين ﴾[٢٧] ، ﴿ أعدت للكافرين ﴾[٢٨] ، وتحقيقا للرؤية واللقاء ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾[٢٩] وتمهيدا لمصالح الطهارات ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾[٣٠] وللصلاة ﴿ أقيموا الصلاة ﴾[٣١] وللزكاة والصيام والحج ﴿ وءاتوا الزكاة ﴾[٣٢] ، ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾[٣٣] ، ﴿ ولله

---

١ - الآية ١٥١ من سورة الأنعام
٢ - الآية ١٠٧ من سورة هود
٣ - الآية ٨٢ من سورة طه
٤ - الآية ٤٦ من سورة فصلت
٥ - الآية ٢٣ من سورة الحشر
٦ - الآية ١١١ طه
٧ - الآية ٣٤ النساء
٨ - الآية ٤٦ يوسف
٩ - الآية ٦١ الأحزاب
١٠ - الآية ٦ ابراهيم
١١ - الآية ١٦٨ الأعراف
١٢ - الآية ٣٢ الفرقان
١٣ - الآية ١٢ الاسراء
١٤ - الآية ٣٩ الفرقان
١٥ - الآية ١٦ الانسان
١٦ - الآية ٢٥ الدخان
١٧ - الآية ١٧ النبأ
١٨ - الآية ٧٩ يس
١٩ - الآية ٥٧ يونس
٢٠ - الآية ٢٢ المجادلة
٢١ - الآية ٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٨٢ البقرة ، ١٧٦ النساء ، ٩٧ المائدة
٢٢ - الآية ١٧ ، ١٩ ، ٤٠ المائدة ، ١٧ الأنعام
٢٣ - الآية ٤٥ الزخرف
٢٤ - الآية ١٧ النساء
٢٥ - الآية ٤٣ الأحزاب
٢٦ - الآية ٢٢ الأنبياء
٢٧ - الآية ١٣٣ آل عمران
٢٨ - الآية ١٣١ آل عمران
٢٩ - الآية ٢٢ من سورة القيامة
٣٠ - الآية ٤٨ من سورة الفرقان
٣١ - الآية ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ من سورة البقرة ، ٧٧ ، ١٠٣ من سورة النساء ٧٣ ، الأنعام ، ٢٩ الأعراف ، ٨٧ يونس ، ٧٨ الحج ، ٥٦ النور ، ١٣١ الروم
٣٢ - ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ البقرة ، ٧٧ النساء ، ٧٨ الحج ، ٥٦ النور
٣٣ - الآية ١٨٣ البقرة

على الناس حج البيت ﴾[١] ، وللمعاملات ﴿ أحل الله البيع ﴾[٢] وللصيانة والعفة ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾[٣] ، وللطلاق والفراق بشرط العدة ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾[٤] ولرعاية مصلحة النفوس ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾[٥] ولكفارة النذور والأيمان ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين ﴾[٦] .

وعلى هذا القياس جميع أحكام الشريعة تأيدت بالآيات القرآنية .

وأما الإخبار عما كان وعما يكون : أما المتقدم فكتخليق العرش ، والكرسى ، وحال الحملة والخزنة . وكيفية اللوح والقلم ، ووصف السدرة ، وطوبى،وسير الكواكب ، ودور الأفلاك ، وحكم النيرين ، والسعدين ، والنحسين ، وقرآن العلويين والسفليين ، ورفع السماء ، وتمهيد الأرض ، وتركيب الطبائع والعناصر ، وترتيب الأجسام والأجرام،وحكم المشرق والمغرب من الأفق الأعلى إلى ماتحت الثرى مما كان ، ومما هو كائن ، ومما سيكون : من أحوال آدم ، وعالمى الجن والإنس ، والملائكة ، والشياطين ، ففى القرآن من كل شىء إشارة وعبارة تليق به .

وأما المتأخر فكأخبار الموت ، والقبر ، والبعث ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، والعقاب ، والعرض ، والحوض-والسؤال ، ووزن الأعمال ، والميزان،والصراط،والجنة ، والنار،وأحوال المتنعمين ، والمعذبين فى الدركات ، وأحوال المقربين فى الدرجات ، ما بين مجمل ومفصل ، لا إجمالا يعتريه شك ولا تفصيلا يورث كلالة وملالة .

كل ذلك على هذا الوجه مذكور فى القرآن ، فلا غرو أن يترقى هذا الكلام عن إدراك الأفهام ، وتناول الأوهام ، ويعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته ومقابلته .

وبلغنى عن الأئمة الراسخين ، والعلماء المحققين أن الذى اشتمل عليه القرآن من الدقائق ، والحقائق والمبانى ، والمعانى ، سبعون قسما .

وهى المحكم ، والمتشابه ، والناسخ ،والمنسوخ ، والحقيقة ، والمجاز ، والمنع ، والجواز ، والحذف، والزيادة ، والبيان، والكناية، والمقلوب ، والمستعار ، والإظهار ، والإضمار ، والإيجاز ، والاختصار، والاخبار ، والاستخبار ، والخاص ، والعام ، والحدود ، والأحكام ، والتحليل ، والتحريم ، والسبر، والتقسيم ، والأمر ، والنهى ، والجحد ، والنفى ، والقصص ، والأمثال ، والتفصيل ، والإجمال ، والزجر ، والتأديب ، والترغيب، والترهيب ، والوعد ، والوعيد ، والعطف والتوكيد، والتحكم ، والتهديد، والوصف ، والتشبيه ، والكشف ، والتنبيه ، والتقديم، والتأخير ، والتأويل والتفسير ، والتكرار، والتقرير ، والتعريض، والتصريح ، والإشارة، والتلويح ، والتجنيس، والتقريب والتعجيب ، والسؤال، والجواب، والدعاء ، والطلب، والبشارة ، والنذارة، والفاتحة، والخاتمة ، ولكل قسم من ذلك نظائر وشواهد فى القرآن لا نطول بذكرها .

والغرض من ذكر هذا المجمل التنبيه على أن الكلمات القرآنية كل كلمة منها بحر لا قعر له ، ولا

---

١ - الآية ٨٧ آل عمران
٢ - الآية ٢٧٥ البقرة
٣ - الآية ٣٢ النور
٤ - الآية ١ الطلاق
٥ - الآية ١٧٩ البقرة
٦ - الآية ٨٩ المائدة

ساحل ، فأنى للمعارض الماحل (الماكر) يحكى أن جماعة من أهل اليمامة قدموا على الصديق الأكبر - رضى الله عنه - فسألهم عن مسيلمة وعما يدعيه أنه من الوحى النازل عليه ، فقرأوا عليه منه هذه السورة .

(ياضفدع نقى نقى إلى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الطين تفارقين ، ولا العذوبة تمنعين) .

فقال الصديق - رضى الله عنه - والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل (**من قبل الله سبحانه وتعالى**) .

ويحكى عن بعض الأشقياء أنه سمع قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** ﴾[١] . فقال مستهزئا : انظر إلى (هذا الدعوى المعرى) عن المعنى . الذى يدعيه محمد يأتينا به المعول والفئوس . فانشقت فى الحال حدقتاه ، وتضمخت بدم عينيه خداه ، ونودى من أعلاه ، قل للمعول والفئوس ، يأتيان بماء عينيك .

وذكر أن بعض البلغاء قصد معارضة القرآن وكان ينظر فى سورة هود ، إلى أن وصل إلى قوله تعالى : ﴿ **ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى** ﴾[٢] الآية فانشقت مرارته من هيبة هذا الخطاب . ومات من حينه . ودخل الوليد بن عقبة على النبى ﷺ وقال : يامحمد اقرأ على شيئا مما أنزل عليك فقرأ قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[٣] الآية فقال الوليد : إن لهذا الكلام لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن لى فيه نظرا ، ولا يقول مثل هذا بشر .

وفى الآثار أنه مانزل من السماء آية إلا سمع من السماء صلصلة كسلسلة جرت فى زجاجة ، ولم يبق فى السماء ملك مقرب إلا خروا لله ساجدين . وأغمى على النبى ﷺ من ثقل برحاء الوحى . وكان إذا سرى عنه ارتعدت مفاصله فرقا ، وتصبب وجهه عرقا فهذا طرف مما ذكر فى إعجاز لفظ القرآن .

* قوله تعالى :﴿ **نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون** ﴾

يخبر تعالى فى هذه الآيات بأنه يتلو على نبيه ومصطفاه ﷺ خبر موسى وفرعون وذلك كقوله جل شأنه ﴿ **ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم** ﴾[٤] وقوله : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ ؛ لأن أهل الإيمان هم أهل العبرة والإمتثال فهم المنتفعون بهذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ **نتلو** ﴾ بأسلوب المضارع هكذا يفيد ذكر الأمر على ماكان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى : ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض** ﴾ أى تكبر وتجبر وطغى ﴿ **وجعل أهلها**

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الملك
(٢) الآية ٤٤ من سورة هود
(٣) الآية ٩٠ من سورة النحل
(٤) الآية ٥٨ من سورة آل عمران
(٥) الآية ٣ من سورة يوسف

شيعا ﴾ أى أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى :

﴿ **يستضعف طائفة منهم** ﴾ يعنى بنى إسرائيل وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ، ويكدهم ليلا ونهارا فى أشغاله وأشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم إهانة لهم وإحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكان القبط قد تلقوا هذا من بنى اسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ماجرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر ابراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك فرعون على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لايؤخر . فالله تعالى يقول : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾[1] ويقول : ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾[2] ويقول : ﴿ **ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون** ﴾[3] وفى هذه الآية يعرض علينا الكتاب العظيم الصحيفة الجنائية لطاغية من طغاة الأرض، فقد أتى أفعالا جساما .

علا فى الأرض واستكبر حتى قال : أنا ربكم الأعلى . وقال : ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى.ثم : التفرقة بين الرعية . يستضعف طائفة منهم.ثم : سفك الدماء بغير حساب وإزهاق الأرواح البريئة بغير ما جرم ولا ذنب يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . ثم : يمركز تلك الجنايات وغيرها فى قوله : ﴿ **إنه كان من المفسدين** ﴾ وكلمة المفسدين تتسع لوجوه الفساد والشر وهكذا أطلقها القرآن الكريم لتذهب النفس فيها كل مذهب .

وأراد ربك ولا راد لما أراد وقضى وإذا قضى فلا نقض لقضائه ولا استئناف ، وحكم وإذا حكم فلا معقب لحكمه . بماذا حكم وماذا أراد . قال : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون** ﴾ .

وقد نفذ وعد الله . قال سبحانه : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون** ﴾[4] . **قال تعالى** : ﴿ **واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون *وزروع ومقام كريم.ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين** ﴾[5] وقال جل شأنه : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون.وكنوز ومقام كريم.كذلك وأورثناها بنى إسرائيل** ﴾[6]

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى . فما نفعه ذلك مع قدرة المالك العظيم الذى

---

١ - الآية ٨٢ من سورة يس
٢ - الآية ٣٨ من سورة الرعد
٣ - الآية ١١ من سورة المنافقون
٤ - الآية ١٣٧ من سورة الأعراف
٥ - الآية ٢٨ من سورة الدخان
٦ - الآيات ٥٧ إلى ٥٩ من سورة الشعراء

لايخالف أمره القدرى ولا يغلب،بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن .

عبدى : أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ماأريد . فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد . وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ماأريد . سبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق : **﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود ﴾**(١) .

ويامن قلت:**﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد* إرم ذات العماد* التى لم يخلق مثلها فى البلاد* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد* فصب عليهم ربك سوط عذاب* إن ربك لبالمرصاد ﴾**(٢) ويا من قلت : **﴿ ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾**(٣)

إن الله تعالى لايعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرأوا إن شئتم **﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾**(٤) وسبحانه عز من قائل : **﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾**(٥) سبحانك ربى يامن تمهل ولا تهمل .

قال تعالى : **﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون ﴾**

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل فيلون هم ماكانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون،إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون ، ونساؤهم لايمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما ، فولد هارون عليه السلام فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لايقبلها إلا نساء القبط فإن ولدت

---

١ ـ الآيات ١٢ إلى ١٨ من سورة البروج
٢ ـ الآيات ٦ إلى ١٤ من سورة الفجر
٣ ـ الآية ٤٢ من سورة ابراهيم
٤ ـ الآية ١٠٢ من سورة هود
٥ ـ الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القلم

المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاما دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى .

فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعا وخافت عليه خوفا شديدا وأحبته حبا زائدا وكان موسى عليه السلام لايراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحب طبعا وشرعا ، قال الله تعالى : ﴿ **وألقيت عليك محبة منى** ﴾[1] فلما ضاقت به ذرعا ألهمت فى سرها وألقى فى خلدها ونفث فى روعها كما قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وسيرته فى البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل من تخافه فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وأرسلته فى البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولايدرين مافيه وخشين أن يفتتن عليها فى فتحه دونها ، فلما كشف عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وماأراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ولهذا قال : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا** ﴾ الآية .

وفى قوله تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى** ﴾ خبران هما : أوحينا وخفت . وأمران هما : أرضعيه وألقيه . ونهيان هما : ولاتخافى ولا تحزنى . وبشارتان هما : إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

وسبحان من هذا كلامه ، قوله تعالى : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا** ﴾ .

قال محمد بن إسحق وغيره : اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولاشك أن ظاهر اللفظ يقتضى ماقالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه ، ولهذا قال تعالى :

﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ . إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها . وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ أنه كتب كتابا إلى قوم من القدرية فى تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة فى علمه السابق ، وموسى فى علم الله السابق لفرعون عدو وحزن قال الله تعالى ﴿ **ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون** ﴾ وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون وليا وناصرا والله تعالى يقول : ﴿ **ليكون لهم عدوا وحزنا** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك** ﴾ الآية يعنى أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من أن يكون من بنى اسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون فقالت ﴿ **قرة عين لى ولك** ﴾ فقال فرعون أمالك فنعم وأمالى فلا ، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه .

---

١ ـ الآية ٣٩ من سورة طه .

وقوله ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه . وقوله : ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ أى أرادت أن تتخذه ولدا وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى : ﴿ وهم لايشعرون ﴾ أى لايدرون ماأراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة .

قوله تعالى : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغا** ﴾ أى من كل شأن من شئون الدنيا بل أصبح شغلها الشاغل وليدها الرضيع الذى ألقته بين معترك الأمواج وحسبك أن تعلم أن للأم قلبا أرق من النسيم وأنضر من صفحة الروض الوسيم سداه الرحمة ولحمته الرأفة .

قوله تعالى : ﴿ **إن كادت لتبدى به** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقتادة وغيرهم أى إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى : ﴿ **لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه** ﴾

أى أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعى مايقال لها فقالت لها (قصيه) أى اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحى البلد فخرجت لذلك ﴿ **فبصرت به عن جنب** ﴾ .

قال ابن عباس : عن جانب ، وقال مجاهد : بصرت به عن جنب عن بعيد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لاتريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليها المراضع التى فى دارهم فلم يقبل منها ثديا وأبى أن يقبل شيئا من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال الله تعالى :

﴿ **وحرمنا عليه المراضع من قبل** ﴾ أى تحريما قدريا وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدى أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهى آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه : ﴿ **قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾ قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها ومايدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعته فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلا وهى لاتعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها .

ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت : إن لى بعلا وأولادا ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت،فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها

النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا فى عز وجاه ورزق دار . ولهذا جاء فى الحديث :

(مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها)[١] ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الأمر ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجا وبعد كل ضيق مخرجا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فرددناه إلى أمه كى تقر عينها** ﴾ أى به ﴿ **ولاتحزن** ﴾ أى عليه ﴿ **ولتعلم أن وعد الله حق** ﴾ أى فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته فى تربيته ماينبغى له طبعا وشرعا . وقوله تعالى : ﴿ **ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ أى حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة فى نفس الأمر كما قال تعالى : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهم خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ **ولما بلغ أشده واستوى ءاتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ . وهكذا ذكر لنا القرآن الكريم مولده ، كما ذكر مولد إسحق ويحيى وعيسى ؛ لأن موسى ولد فى عصر رجل كان يقتل الأبناء ويستحيى النساء فنجاه الله منه بل رباه فى قصره وتلك إرادة الله ولا غالب لإرادته بل هو غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون كما نص على ولادة اسحق ؛ لأنه ولد من أبوين كبيرين قالت أمه لما بشرت بمولده ﴿ **ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾ كما نص القرآن على مولد يحيى ؛ لأنه أيضا ولد من أبوين قد بلغا من الكبر عتيا لذا قال أبوه زكريا : ﴿ **أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾[٤].

كما نص على مولد المسيح ؛ لأنه ولد من غير أب . حتى قالت أمه مريم لما بشرت بمولده : ﴿ **أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا** ﴾[٥] كما قاس القرآن ولادة المسيح بخلق آدم ؛ لأنهما خلقا بالكاف والنون فقال : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[٦] وكل المخلوقات خلقت بكن فيكون إلا أن النص هنا يفيد أن الله لايعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض فإذا كان

---

(١) الحديث بمعناه فى فيض القدير شرح الجامع الصغير رقم ٨١٤٣ بلفظ : (مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل يتقوون به على عدوهم مثل أم موسى : ترضع ولدها وتأخذ أجرها) من رواية أبى داود فى مراسيله ، والبيهقى فى السنن الكبرى عن جبير بن نفير مرسلا ورمز له بالصحة .

(٢) الآية ٢١٦ من سورة البقرة

(٣) الآية ١٩ من سورة النساء .

(٤) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة مريم

(٥) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة مريم

(٦) الآية ٥٩ من سورة آل عمران

خلق آدم بلا أب ولا أم فأى غرابة فى خلق المسيح من أم بلا أب ؟ إنه لاغرابة وكان ربك قديرا ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين . لكنه لما أراد أن يحدثنا عن مولد المصطفى ﷺ قال : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾[1] .

مشيرا إلى أن حياة الأب أو موته لايغير من مقادير الله شيئا بل قدرة الله ماضية وأمره نافذ لا محالة . فقد ولد يوسف تحوطه عناية أبيه ورعايته فلم يغن ذلك عنه شيئا وفرق بينهما

بينما ولد محمد يتيما فكان اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين والقائد العظيم الذى علم المتعلمين وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى مرفأ الأمان وشاطىء الله رب العالمين : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[2] . ولما حدثتنا سورة القصص عن مولد موسى بلغت بنا الآيات إلى قوله جل شأنه : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ أى قوى عوده واستوى على سوقه ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ قال مجاهد : المقصود بالحكم : النبوة . وقد يراد بالحكم الحكمة وهى حكم صواب وعلم غزير وعمل موفق .

ومثل ذلك الجزاء الحسن يجزى الله المحسنين وأهل الفضل ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولو الألباب ﴾[3] . ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[4] فسبحانه من إله منعم متفضل . ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ماتسرون وما تعلنون ﴾[5] .

* أحداث فى حياة موسى *

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ

---

(١) الآية ٦ من سورة الضحى
(٢) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة
(٤) الآية ٧٤ من سورة آل عمران
(٥) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة النحل

لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

معانى المفردات

المدينة: هى مصر

على حين غفلة : أى : وقت لايتوقعون دخولها فيه

من شيعته : أى : ممن شايعه وتابعه فى الدين وهم بنو اسرائيل

من عدوه : أى : من مخالفيه فى الدين وهم القبط

فاستغاثه : أى : طلب غوثه ونصره

فوكزه : أى :فضربه بجمع يده أى بيده مجموع الأصابع

فقضى عليه : أى : فقتله وأنهى حياته

من عمل الشيطان : أى : من تزيينه
مبين : أى : ظاهر العداوة والاضلال
فاغفر لى :أى : فاستر ذنوبى
بما أنعمت على: أى : اقسم بنعمك على
ظهيرا :أى : معينا
يترقب : أى : ينتظر مايناله من أذى
استنصره : أى : طلب نصره ومعونته
يستصرخه :أى : يطلب الاستغاثة برفع الصوت
غوى : أى : ضال
يبطش : أى: يأخذ بصولة وسطوه
والجبار: هو الذى يفعل مايفعل دون نظر فى العواقب . من المصلحين : أى : ممن يبغون الإصلاح بين الناس ويدفعون التخاصم بالحسنى .
أقصى المدينة : أى : أبعدها مكانا .
يسعى : أى : يسرع
الملأ: أشراف الدولة ووجوهها .
يأتمرون بك : أى :يتشاورون فى أمرك
يترقب أى :يلتفت يمنة ويسرة
توجه إلى الشىء : صرف وجهه إليه
تلقاء مدين أى :جهتها
ورد: أى : وصل والمراد بماء مدين البئر التى كانوا يستقون منها
أمة: أى : جماعة
تذودان : أى : تطردان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء .
ماخطبكما أى : ماشأنكما ولما لاتردان مع هؤلاء ؟ قال رؤية ياعجبا ماخطبه وخطبى ؟

يصدر الرعاء : أى : يصرفون مواشيهم عن الماء والرعاء : واحدهم راع
تولى : أى : انصرف
والظل : ظل شجرة كانت هناك
والخير: يكون بمعنى الطعام كما فى الآية. وبمعنى المال كما قال : ﴿ إن ترك خيرا ﴾[1] .
وبمعنى القوة كما قال : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾[2]
وبمعنى العبادة كقوله : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾[3] .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة البقرة
(٢) الآية ٣٧ من سورة الدخان
(٣) الآية ٧٣ من سورة الأنبياء

فقير : أى محتاج
الاستحياء : شدة الحياء
ليجزيك : أى : ليثيبك
القصص : الحديث المقصوص أى : المخبر به
أنكحك : أزوجك
ويقال أجرته أى : كنت له أجيرا كما تقول أبوته أى كنت له أبا
والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة . أشق عليك أى : أدخل عليك مشقة
الأجلين : أى : الأطول أو الأقرب
فلا عدوان : أى :فلا حرج
وكيل : أى :شهيد

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ماأفاض به على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من الهلاك بعد وضعه فى التابوت وإلقائه فى النيل وإنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى إسرائيل أردفه ذكر ماأنعم به عليه فى كبره من إيتائه العلم والحكمة ثم إرساله رسولا ونبيا إلى بنى إسرائيل والمصريين ثم ذكر ماحصل منه من قتل المصرى الذى اختصم مع اليهودى فوكزه بجمع يده وكان ذلك سببا فى موته ثم طلبه المغفرة من ربه على مافعل ثم تصميمه وعزمه ألا يناصر غويا مجرما ثم أعقب ذلك بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودى وقبطى آخر وقد هم موسى بإغاثته أيضا فقال له المصرى : أتريد الإصلاح فى الأرض أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين.واعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون وبطانته إليه فأتمر هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه فأسرع إليه يخبره الخبر وينصحه بالهرب فانتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ماقصه الله علينا فى هذه الآيات إلى أن رجع إلى مصر وقد أوتى النبوة وهو قافل فى طريقه .

التفسير

﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾
أى:دخل مصر آتيا من عين شمس فى وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة روى أنه دخلها مستخفيا من فرعون وقومه ؛ لأنه كان قد خالفهم فى دينهم وعاب ماكانوا عليه ثم أبان ماحدث منه حينئذ فقال :
(فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان)
أى فوجد فى مصر رجلين أحدهما من بنى إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباخ فرعون وكان قد

طلب منه أن يحمل حطبا للمطبخ فأبى فطلب الاسرائيلى من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى فضربه موسى بجمع يده فى صدره وحنكه فقتله فقال : إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزيين الشيطان ووسوسته .

ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه فقال ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾

أى : أنه عدو فينبغى الحذر منه مضل فلا يقود إلى خير بين العداوة والضلال .

ثم أخبر بندم موسى على قتله نفسا لم يؤمر بقتلها بقوله ﴿ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ﴾

أى:قال رب إنى ظلمت نفسى بقتل نفس لايحل قتلها فاغفر لى ذنبى واستره ولا تؤاخذنى بما فعلت . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ا . هـ . ثم لم يزل - ﷺ - يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له حتى أنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها وإنما عده ذنبا وقال : ﴿ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ﴾ من أجل أنه لاينبغى لنبى أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .

وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياأهل العراق : ماأسألكم واركبكم للكبيرة سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ - يقول (إن الفتنة تجىء من هاهنا - وأومأ بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل

﴿ وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ﴾[(١)]

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال : فغفر له أى فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه وبعدئذ ذكر ماهو العلة لما قبله فقال : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾

أى : أنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه المتفضل عليه بالعفو عنها الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ورجع عن حوبته

ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال :

﴿ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾

أى:قال رب اعصمنى بحق ماأنعمت على بعفوك عن قتل هذه النفس . لأمتنعن عن مثل هذا الفعل ولن أكون معينا للمشركين فأصحبهم وأكثر سوادهم وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون وقد يكون المراد لأمتنعن عن مظاهرة من تؤول مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الاسرائيلى التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به ونحو الآية قوله : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾[(٢)]

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال :

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة ج ٤ ص ٢٢٢٩ رقم ٤٧

(٢) الآية ١١٣ من سورة هود

﴿ فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ﴾

أى : فصار موسى فى تلك المدينة التى قتل فيها القبطى خائفا من جنايته التى جناها بقتله النفس التى قتلها وصار يتحسس الأخبار ويسأل عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطى وماهم بالغوه به وداخلته الهواجس خيفة أن يقتلوه به وإذا الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على المصرى يطلب منه الغوث والعون على مصرى آخر فقال له موسى : إنك لذو غواية وضلال لاشك فيه وقد تبينت ذلك بقتالك أمس رجلا واليوم آخر ثم دنا منهما .

﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ﴾ أى فلما أراد موسى أن يأخذ الفرعونى عدوهما بالشدة والعنف قال له منكرا:أتريد أن تفعل معى كما فعلت بالأمس وتقتلنى كما قتلت من قتلت وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

﴿ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾

أى : ماتريد إلا أن تكون قاهرا عاليا فى الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر فى العواقب ولاتريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيه صلاح أهلها ودفع تخاصمهم بالحسنى

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ﴾

أى : وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم يسرع للحاق بموسى إشفاقا وخوفا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : ياموسى إن الملك وبطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكايد وينصبون لك الحبائل يريدون أن يقتلوك فالبدار البدار والهرب الهرب قبل أن يقبضوا عليك وينفذوا مادبروه ويقتلوك فاخرج من المدينة مسرعا وإنى لك لناصح أمين فانتصح بنصحه وتقبل قوله **﴿ فخرج منها خائفا يترقب ﴾** أى : فخرج من مدينة فرعون خائفا يترقب لحوق الطالبين ويتلفت يمينا ويسارا وينظر أيتبعه أحد ؟

ثم لجأ إلى الله ـ تعالى ـ علما منه أن لاملجأ إلا إليه **﴿ قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾**

أى : قال رب نجنى من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور فى غير مواضعها فيقتلون من لايستحق القتل ومن لايجرم إلى أحد فاستجاب الله دعاءه ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين .

روى أن فرعون لما بعث فى طلبه قال :

﴿ اركبوا بنيات الطريق ﴾ فانبثوا فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالا ففاتهم ونجا من بغيهم ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ﴾

أى : ولما اتجه نحو مدين ماضيا إليها شاخصا عن مدينة فرعون قال:رب اهدنى إلى سواء السبيل

وارشدنى إلى الطريق القويم ونجنى من هؤلاء الظلمه.وقد قال هذا توكلا على الله وثقة بحسن توفيقه وقد كان لايعرف الطريق فعن له ثلاث طرائق فسار فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الآخرين وقالوا:المريب لايسلك أعظم الطرق بل يأخذ بنياتها (أضيقها غير المشهور منها) وقد روى أنه بقى ثمانى ليال وهو حاف لايطعم إلا ورق الشجر إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها ثم ذكر سبحانه ماجرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾

أى : ولما وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يرده رعاء الشاء فوجد جماعة منهم يسقون نعمهم ومواشيهم ووجد فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها فلما رآهما موسى كذلك رق لهما ورحمهما قال : **ما خبركما** ثم لاتردان الماء مع هؤلاء القوم ؟

فأجابتاه : قالتا لانسقى غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى وأبونا شيخ كبير لايستطيع السقى بنفسه فنحن نلجأ إلى ماترى نشرب مواشينا فضل الماء .

ثم ذكر مافعله بعد أن سمع هذا القصص فقال :

﴿ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ .

أى : فسقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح وناجى ربه قائلا : إنى لمحتاج إلى شىء تنزله إلى من خزائن جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال :

لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلق الله عليه ولقد افتقر إلى شق ثمرة ولصق بطنه بظهره من شدة الجوع .

فجاء الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه

فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت: (إنأبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) .

أى : فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حيية قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك ليكافئك على ماصنعت من الإحسان وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا فى الأجر .

قوله تعالى : **﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين ﴾** أى:فلما جاء موسى هذا الشيخ وحدثه عن فرعون وآله فى كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله وهربه منهم بعد الذى علمه ـ قال له : لاتخف من حولهم وطولهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لاسلطان لهم علينا ، ولسنا فى دائرة ملكهم .

ولما آمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

(قالت إحداهما ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين)

أى : قالت : إحدى ابنتى هذا الرجل قيل : هى التى ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت

لأبيها (ياأبت استأجره) أى: لرعيه هذه الغنم .

قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وقتادة وغير واحد لما قالت ﴿ **إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ قال لها أبوها وماعلمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التى لايطيق حملها إلا عشرة رجال وإنى لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لى كونى من ورائى فإذا اختلف علىَّ الطريق فاحذفى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه .

﴿ **قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين** ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل إن وجده صالحا كما عرض عمر ابنته حفصة على أبى بكر . وقوله : ﴿ **على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك** ﴾ أى : على أن ترعى غنمى ثمانى سنين فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك وإلا ففى الثمانى كفاية ﴿ **وماأريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** ﴾ أى : لاأشاقك ولاأؤاذيك ولا أماريك . وقد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم فى صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية .

قال له موسى عليه السلام ﴿ **قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على مانقول وكيل** ﴾

قال موسى الأمر على ماقلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين فإن أتممت عشرا فمن عندى فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال ﴿ **أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على** ﴾ أى:فلا حرج على مع أن الكامل وإن كان مباحا لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى : ﴿ **فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه** ﴾[1] هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما وقال البخارى بسنده عن سعيد ابن جبير قال :

سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت لاأدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضى الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذ قال فعل .

وقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:(سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما)[2] .

موسى فى طريقه لتبليغ الرسالة

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ

١ ـ الآية ٢٠٣ من سورة البقرة

٢ ـ الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير رقم ٤٦٠٩ بلفظه ورواية أبى يعلى والحاكم فى المستدرك عن ابن عباس ، ورمز له بالصحة .

لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ
ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ
فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن
رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا
فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا
بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ
أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ
فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ
﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون . . إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون ، قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم. وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ .

وفى سورة يونس جاءت صورة الموقف على هذا الوجه : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ، وقال فرعون إئتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ هذه معارض أربعة ، وقد عرض فيها هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، عرضا مبسوطا، اتسع لأهم الأحداث التى جرت فيه . والتقط أدق الخلجات النفسية التى وقعت فى مجريات الصراع بين شخصياته .

كما قلنا من قبل فيما عرضنا من الصور القرآنية المتعددة للحدث الواحد نقول هنا إن هذه الصورة إذا ضم بعضها إلى بعض قامت فيها صورة واحدة ، هى صورة مكبرة لكل واحدة من هذه الصور على حدة . . فإنك إذ تنظر فى الصورة الكبيرة ثم تنظر فى أى من الصور الصغيرة تجد الملامح هى الملامح ، والصورة هى الصورة ، وإن حملت الصورة الكبيرة ألوانا أكثر . وشغلت مساحة أكبر .

وقد قلنا : إنه يمكن أن يرى ذلك من خلال فهم هذه الصور بعضها إلى بعض ، وتلاوتها فى معرض واحد ، حيث يمضى القارىء فى القراءة أو المرتل فى الترتيل ، دون أن يستشعر أنه يعيد ما قرأ ، أو يكرر مارتل . ونريد هنا أن نصنع صنيعا آخر مع هذه الآيات يتضح لنا منه ـ بصورة أكثر وضوحا ـ خلو القصص القرآنى من التكرار بالمعنى الذى فهم عليه ، والذى كان فى نظر الأغبياء

والادعياء تهمة يرمى بها القرآن فى أعز ما يعتز به من فصاحة وبيان .

ونتظر فى الواقعة ذاتها فنجد أنها تشتمل على العناصر الآتية : ـ

١ ـ موسى ، ومعه أخوه هارون ، وما لقيا به فرعون من آيات ومقولات .

٢ ـ فرعون ، والملأ الذين معه من قومه ، وسحرته ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحديات .

٣ ـ ما كان بين موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم من عجز وتسليم ، وإيمان .

٤ ـ ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره ، وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وموقفهم من هذا الوعيد .

وصنيعنا هنا هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر فى هذه الصور الأربع التى عرض فيها القرآن الواقعة كلها .

(أ) موسى وهارون فى مواجهة فرعون ؛

موسى وهارون : ﴿ **إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾[١] . (من سورة طه)

موسى وهارون : ﴿ **إنا رسول رب العالمين.أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾[٢] . (من سورة الشعراء) .

موسى : ﴿ **يافرعون إنى رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق** قد جئتكم ببينة من ربكم **فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾[٣] .

أما الصورة الرابعة ـ والتى جاءت بها سورة يونس فليس فيها ما يحدث عن الموقف بين موسى وفرعون .

واقرأ هذه المقولات الثلاث ، واحدة بعد أخرى ، تجد أنها تصور الموقف أدق وأصدق وأحكم تصوير ، وأنها قد جاوزت به متلبسا بكل ما كان يجرى فى النفوس من مشاعر وأحاسيس .

فهذه المقولات الثلاث ليست قولا واحدا جاء به القرآن فى ثلاثة معارض من القول . . وإنما هى أقوال ثلاثة فعلا كل قول منها مستقل بنفسه ، قائم بذاته .

ولا نستطيع الجزم بالترتيب الذى بين هذه الأقوال ، وأيهما يسبق صاحبه أو يتأخر عنه . . ومع هذا فإن الترتيب الذى تجتمع عليه فى كل موضع ممكن ، هو ترتيب يتسع له الموقف ويتطلبه .

ويكفى أن ننظر إليها فى وضع واحد من هذه الأوضاع ، وليكن وضعها هذا الذى جاء هنا من غير قصد ولا تدبير .

١ ـ فهذا موسى ومعه أخوه هارون . . يدخلان على فرعون معا ، ويتحدثان بصوت واحد معا . . إذا كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون قبل ان يلقاه ، فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه هارون . فهو أفصح منه لسانا ، فيقولان : ﴿ **إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾[٤] . (سورة طه) .

(١) سورة طه الآية ١٨

(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

(٤) سورة طه الآية ١٨

وهى قوله لا تلقى فرعون لقاء مواجها ، إنها حكم عام . ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾

٢ ـ ثم ها هما ذات قد أخذت تزايلهما رهبة الموقف ، وروعة اللقاء . فيلقيان فرعون لقاء مباشرا ، ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم . فيقولان معا : ﴿ إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾[1] . (سورة الشعراء) ونستشعر من هذا أن موسى لا يزال يجد الرهبة والخوف من فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ولا يزال هارون معه يأخذ مكانه إلى جانبه ، ليشد أزره ، ويثبت جنانه .

٣ ـ ثم ها هو ذا موسى بعد أن تمرس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل الصدمات الأُولى لها .

ـ ها هو ذا يلقى فرعون وحده ، ويسمعه بلسانه مضمون رسالته . فى قوة وصراحة .

﴿ يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأُرسل معى بنى إسرائيل ﴾[2] .

ياللإعجاز الذى تذل لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له الأعناق ، وتعنو الوجوه !

يافرعون !

هكذا يقولها موسى فى وجه فرعون !

أتراه كان يفعل ذلك لأول لقاء ولأول مواجهة ؟ وكيف وهو الذى حسب لهذا الموقف ألف حساب وحساب قبل أن يقدم عليه ؟

إن هذا لا يكون ، إلا بعد ممارسة الموقف ، ومعاودة التجربة !

وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : يافرعون ! ولا أن يقول بعدها : إنى ؟ هذا الضمير المحقق لشخصيته والمؤكد لذاتيته : إنى . . لا أحد غيرى (رسول من رب العالمين) ولحرف الجر (من) هنا ما له من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التى تحملها ، والجهة التى جاءت منها ، ففيها ما ليس فى قوله لو قال : ﴿ رسول رب العالمين ﴾ من الشحنة القوية المليئة بالاعتزاز بهذا السلطان الذى يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين . . ﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ وهذا اعتزاز بعد اعتزاز ، لشخصه الذى يحمل رسالة السماء . . ومن هذا الأفق العالى يتنزل أمر موسى هادرا مدويا فى وجه فرعون : ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ ! ! ولك أن تضع هذا الأمر الصادع إلى هذا الرجاء الذى أسمعاه ـ موسى وهارون ـ لفرعون من قبل ﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ . وسيتضح لك ما بين الحالين من مفارقات وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع ، مما لم يعهد سماعه من أحد من قبل » .

ننظر ونرى !

(ب) فرعون وقومه وسحرته :

وفرعون فى هذا الموقف يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دهشا عجبا لهذا التطاول عليه ، والخروج

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

على المألوف فى حضرته . . ثم إنه مع هذا هو فرعون ! ! يبسط سلطانه على أهل المجلس ، يلقى نظرة هنا ونظرة هناك ، ويرمى بكلمة هنا وكلمة هناك . . إنه هنا المحور الذى تدور به ومن حوله الأحداث وطبيعى ألا يأخذ اتجاها واحدا ، لتعدد الأطراف المشتركة فيه . . فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملأ . .

ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التى عرضها القرآن لهذا الموقف ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون ، وإنما هى (لقطات) مركزة مجمعة لأكثر من لقاء ، إذ من غير الطبيعى أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، وينتهى إلى هذا التحدى الذى حددا موعده ، والذى يلتقى فيه موسى بالسحرة . . ولكن المقدر فى هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما إلى أن ييأس كل منهما من الوصول إلى وفاق مع خصمه فلا يكون بعد هذا إلا التحدى والصراع .

ومع هذا ، فإن اقتدار القرآن ، وإعجازه فى تصوير مشاهد هذا الموقف فى أزمنة مختلفة ، وأحوال مختلفة أيضا قد جعل منها مشهدا واحدا ، تمسك به تلك المشاعر التى كان يعيش بها أصحابها فى هذا الموقف ، دون أن يحدث الانفصال الزمانى أو المكانى فيها خلخلة ، أو ازدواجا . ولهذا ، فإننا سنعرض هذه المشاهد على أنها صورة واحدة ، فى موقف واحد ، وسنرى أنها تقبل مثل هذا العرض وتتلاقى فيه وجوهها ، دون ان تتخالف ، أو تتصادم ، أو تتدافع . ولقد رأينا فى الموقف السابق أن فرعون قد أخذ بالمباغتة التى طلع بها موسى وهارون عليه ، وأنه حين اسمعاه هذا القول الذى قالا . له ، فى قوة وجرأة . وجم ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فاتجه إلى موسى بهذه الكلمات الساخرة الهازئة :

﴿ ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ ؟ (سورة الشعراء) .

وقد قدر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى فى الصميم وإنها ستخفض رأسه فى حضرته . . إذ أنه سيذكر بهذه الكلمات طفولته وضياعه ، ووقوعه ليد فرعون ، ثم إنه سيرى صورة مخيفة لفعلته التى فعلها ، وهى قتل المصرى . . !

ولكن موسى يقف لفرعون ويجيبه قائلا :

﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ؟ ﴾ (سورة الشعراء) .

وهنا يلقاه فرعون سائلا :

﴿ من ربكما ياموسى ؟ ﴾ (سورة طه)

وانظر إلى كيد فرعون فى هذا السؤال الماكر . . إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما فى لسان موسى من حبسة . . وذلك ليحرجه ، أو يفحمه أمام الجميع . ويجيب موسى وقد أطلق الله حبسة لسانه :

﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[١] . (سورة طه) .

ويعاجله فرعون بسؤال آخر :

﴿ فما بال القرون الأولى ﴾[٢] . (سورة طه)

ويرد موسى هذا الرد المفحم :

﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٣] . (سورة طه)

وانظر أيضا كيف عدل موسى عن الجواب عن سؤال فرعون ، والدخول معه فى هذه الجهة التى يكثر فيها اللجاج ، ولا يستطيع أحد المتخاصمين أن ينال موقفا حاسما : ما بال القرون الأولى ؟ طوفان يغرق فيه من يتصدى للجواب عنه . . ثم خلص من هذا إلى العرض الواضح المحسوس الذى لا ينكر لقدرة الله ، ولهذه القدرة من آثار تملأ وجوه الحياة .

ويضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة . . فيجىء إلى موسى من طريق آخر فيسأله :

﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويكون جواب موسى حاضرا :

﴿ رب السموات والأض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾[٤]. (سورة الشعراء)

ويتلفت فرعون حواليه . عجبا ، دهشا ، مستنكرا . . يقول لأهل مجلسه : ﴿ ألا تستمعون ﴾[٥]. سورة الشعراء

وإلى هذه الجبهة الجديدة التى فتحها فرعون يتجه موسى قائلا : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ! (سورة الشعراء) وتثير هذه الجرأة حنق فرعون . . إذ كيف يجرؤ موسى على تخطى فرعون ومخاطبة غيره فى حضرته . . ثم هو يخشى من جهة أخرى أن يكون لقول موسى أثر فى هؤلاء الذين وجه إليهم حديثه فيقول لهم : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾[٦]. (سورة الشعراء)

ويرد موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ما قال من قبل . . فيقول : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾[٧]. (سورة الشعراء)

---

(١) سورة طه الآية ٥٠
(٢) سورة طه الآية ٥١
(٣) سورة طه الآية ٥٢
(٤) سورة الشعراء الآية ٢٤
(٥) سورة الشعراء الآية ٢٦
(٦) سورة الشعراء الآية ٢٧
(٧) سورة الشعراء الآية : ٢٨

وفى قولة موسى هذه تحريض قوى لهؤلاء الأتباع من قوم فرعون أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بعقولهم ، فلا يكون فرعون هو الذى يفكر لهم ، ويقرر مصيرهم .. ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ .

ويجن جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم ـ قوم فرعون ـ من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فيلقاه بهذا الوعيد :

﴿ لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾[1] . (سورة الشعراء)

ويلقى موسى هذا الوعيد بقوله : ﴿ أولو جئتك بشىء مبين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويجيبه فرعون :

﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ (سورة الشعراء)

ويقبل موسى بما معه :

﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ (سورة الشعراء)

ويحسب فرعون أن هذا من عمل موسى ، وسحر من سحره وأنه ليس بين يديه آية ، تشهد له أنه رسول من عند الله ، فيقول له :

﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾[2] . (سورة الأعراف)

وليس بين يدى موسى آية غير تلك الآية التى قدمها من قبل .. فيعرضها مرة اخرى .

﴿ فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[3] . (سورة الأعراف)

إنه نفس المنظر الذى عرضه موسى من قبل ، والذى ذكر فى سورة (الشعراء) .. لم تتغير لمحة من لمحاته .. إنه كلمة من كلمات الله . و ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ ..

وهنا يبدى فرعون رأيه فى هذا العمل الذى قدمه موسى على أنه الآية التى بين يدى دعواه ، ويكثر لغط القوم حول هذه الآية ، وتكثر أقوالهم فيها ، ثم يتكشف هذا اللغط ، وتنتهى هذه الأقوال إلا قول واحد فيها ، هو ما قاله فرعون : ﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ﴾[4] ؟ . (سورة الشعراء)

وتعمل هذه القولة عملها فى حاشيته ، ويلقى بها كل واحد إلى من بجواره ، وإذا بها تتردد على أفواه الجميع .. ويضبطها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ﴾[5]. (سورة الاعراف) .

ويمسك فرعون مرة اخرى بزمام الموقف ، بعد ان أشاع فى قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٩
(٢) سورة الاعراف الآية : ١٠٦
(٣) سورة الاعراف الآية : ١٠٧ ، ١٠٨
(٤) سورة الشعراء الآية : ٣٤ ، ٣٥
(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠

عليم .. ثم يجسد هذه المشاعر فى تلك الكلمات المتحدية المهددة .. يواجه بها موسى :

﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ﴾[١] .

وانظر فى هذا الاعجاز الذى تتقطع دونه الأعناق ! لقد وزع القرآن هذا المشهد فى معرضين ، من صور العرض لهذه القصة ، فجعل قولة فرعون فى سورة ، وجعل قولة الملأ فى سورة أخرى ، حتى لا تتراكم الصور ، وتتراكب ، وحتى لا يقع هذا التكرار على أية صورة ، لفظية أو معنوية . وانظر مرة أخرى فى هذه المقولة : ﴿ فماذا تأمرون ﴾؟ لقد جاءت على لسان فرعون ، كما جاءت على لسان الملأ من حوله .. إنها الكلمة التى كانت تدور على الألسنة فى مثل هذا الموقف كل يسأل صاحبه : (ما العمل ؟) .. ثم يجىء الجواب ممسكا بالاتجاه الغالب ، الذى كاد يستقر عليه الرأى ، وتجتمع عليه الأكثرية ..

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم ﴾[٢] .

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾[٣]

وإذا كان الرأى قد غلب فى إرجاء موسى وأخيه . وفى البحث عن السحرة فى كل مكان ، فإن الرأى كاد يتوازن بين دعوة كل ساحر أو دعوة من مهر فى السحر من السحرة .. فقال فريق بدعوة كل ساحر ، وقال فريق آخر بدعوة كل سحار .. ولهذا أعيد الجواب ، فكان مقترنا بكلمة « ساحر » مرة ، بينما اقترن بكلمة « سحار » فى المرة الاخرى .

هذا مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل ، من تلك الفواصل الزمانية والمكانية بين الآيتين الكريمتين ، ومع ملاحظة أن كلا منهما فى موقف ، وإن كنا قد جمعناهما فى موقف واحد .

(ج) ما كان بين موسى والسحرة :

هذا موقف كان له صدى بعيد فى المجتمع المصرى يومذاك ، فقد وقف موسى وحده ليس معه إلا عصاه ، وإلا هارون أخوه يتحدى فرعون بكل جبروته وسلطانه ، ويلقاه بكل ما أعد له من سحرة وسحر !

وقد اجتمع الناس ، وحشدوا حشدا لهذا الموقف فى اليوم والمكان الموعودين : ﴿ يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ . وكان موسى هو الذى اقترح هذا اليوم ، وهو يوم العيد حيث يفرغ الناس له ، ويخلون أنفسهم من كل عمل إلا ما كان لمرح ولهو ، وليس كهذا المشهد داعيا يدعو الناس إليه ، ويحملهم على أن يتخلوا من كل عمل جاد وهازل من أجله .. و (الضحى) الذى كان موعد اللقاء فى هذا اليوم هو الساعة التى تبلغ فيها حركة الناس ونشاطهم غايتهما ..

---

(١) سورة طه الآية : ٧٠

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢

وإذن فهو موقف مشهور ومشهود ، وما يتكشف عنه هذا الموقف هو مما يسفر به وجه الحق ، وتتجلى فيه آياته ، فى صراعه مع الباطل .. وهو بهذا صورة كريمة من الصور التى ينبغى أن تكون متمثلة دائما فى خاطر أصحاب الدعوات ، ليكون لهم منه عبرة وعظة تخف بها أعباؤهم ، وتشتد عزائمهم فى السير إلى غاياتهم .

ومن أجل هذا فقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف فى مواضع كثيرة منه ، وعرضها عرضا يكشف عن جوانبه ، ويصور أدق خفاياه ، ويلتقط ما تكن الضمائر ، وما تخفى الصدور ، وقبل أن يرفع الستار عن هذا المشهد ، يعلن القرآن عما اتخذ فرعون لهذا الموقف من أهبة ، وما بذل من جهد ، وما حشد من قوى ..

فنحن نعرف فى الموقف الذى كان بين موسى وفرعون أن الرأى قد استقر بين فرعون وملئه على أن يبعث جنده وأعوانه فى المدائن كلها ليجلبوا منها كل من عنده علم من السحر .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ﴾(١) .

﴿ وقالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾(٢) .

ثم انفض المجلس على هذا ، وبدأ فرعون ينفذ خطته ، وها هو ذا القرآن يرصد خطواته ، ويكشف المستور من أمره **﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾**(٣) . (سورة طه)

ثم نراه وقد أصدر أوامره إلى من يراه صالحا لتنفيذ هذه المهمة : **﴿ وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ﴾**(٤) . ثم نرى المحصول الذى اجتمع من هذا التدبير .. فها هم أولاء السحرة قد جىء بهم من كل مكان ، وها هى ذى أبواق الدعاية تنفخ فى كل جهة ، تدعو الناس إلى أن يكونوا من وراء السحرة ، مؤيدين وناصرين .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾(٥) .

لقد بلغ الأمر غايته وأعد له كل شىء !

وها هم أولاء السحرة يجتمعون بين يدى فرعون ، قبل أن يدخلوا المعركة ، ليتلقوا توجيهاته ، وليستعرضوا بين يديه وجوههم ، وما يحملون من معدات القتال .. !

ونلمح من آيات الكتاب الكريم أنه قد كان هناك استعراض أو استعراضات ، قبل الاستعراض الأخير الذى تم فى يومه اللقاء ، والتحم الصراع .

﴿ فلما جاء السحرة .. قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾(٦) .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧
(٢) سورة الاعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢
(٣) سورة طه الآية : ٦٠
(٤) سورة يونس الآية : ٧٩
(٥) سورة الشعراء الآيات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠
(٦) سورة الشعراء الآية : ٤١

فهذا الاسترخاء والمط الذى توحى به كلمة : ﴿ **فلما جاء السحرة فرعون** ﴾ يوحى بأن السحرة كانوا يتوافدون عليه حالا بعد حال ، وأنه كان يلقاهم أفرادا وجماعات ، ليعرف أولا فأولا ماذا يجتمع له من هذه القوى . . ثم يشعرنا هذا الاستفهام المتخاذل المتخافت فى قولهم : ﴿ **أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين** ﴾ أن السحرة لا يزالون مأخوذين برهبة الموقف بين يدى فرعون ، وأنهم يدخلون عليه بهذا الطلب مدخلا متلطفا مستأذنا . . أئن لنا لأجرا ؟ . . إن كنا نحن الغالبين ؟

ويلقى فرعون هذه المنى بوعد غير منجز ، وعد موقوت بالظرف المناسب له ، مقدور بالحالة التى يقع عليها . . ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

وانظر إلى الصورة من جانبيها . . استفهاما ، وجوابا عنه : **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم ، وإنكم إذاً لمن المقربين ؟ ثم انظر إلى الصورة وقد اكتملت ألوانا وظلالا .**

﴿ **وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ۝ قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾[1] .

إنك تجد آيات بينات من إعجاز تلك المعجزة الكبرى التى حملها محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين يديه ، وعلى لسانه وفى قلبه ، هدى ورحمة للعالمين . .

١ ـ فلقد خلت الصورة الثانية من كلمة (فلما) تلك الكلمة التى تشعر بالاسترخاء والمط ـ كما قلنا ـ والتى تدل على ان السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالا بعد حال . .

٢ ـ أخذ الفعل (جاء) مفعوله وهو (فرعون) فى الصورة الثانية ، على حين لم يذكر له مفعول فى الصورة الاولى . .

أ ـ ولما جاء السحرة . . قالوا لفرعون . .

ب ـ وجاء السحرة فرعون . . قالوا . .

وهذا يقوى ما قلناه من قبل من أن الصورة الاولى كانت لقاء غير مباشر مع فرعون ، إذ كان يلقاهم أعوانه وحاشيته ، أو كان لقاء مفرقا لم يحتشد له السحرة ، بينما كانت الصورة الثانية كاشفة عن اللقاء الاخير فى مواجهة فرعون ، وفى تلقى توجيهه الاخير لما أُعدهم له .

٣ ـ فى الصورة الاولى استفهام من السحرة عن الجزاء الذى يجزيهم فرعون به ، إذا هم انتصروا فى هذا الموقف ـ أشبه بالاستجداء ، يقابله وعد مسترخ متعال ، تفوح منه رائحة التصدق من فرعون ! ، بينما يتحول هذا الاستجداء فى اللحظة الاخيرة وقد أزفت الآزفة ، وواجه فرعون الامتحان . . تحول هذا الاستجداء إلى طلب ، واستقضاء لأجر فى مقابل عمل . . ﴿ **إن لنا لأجرا . . إن كنا نحن الغالبين** ﴾ ولا يملك فرعون إلا أن يضع نفسه تحت تصرف السحرة . . ﴿ **قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ بعد أن كان قوله لهم:﴿**نعم وإنكم إذن لمن المقربين** ﴾ .

---

(١) سورة الاعراف الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

فكلمة (إذا) هنا تحمل رنين الوعد الزائف ، أو الساخر أو هما معا .

وها قد عبئت القوى التى أعدها فرعون لموسى .. وها هى ذى تتحرك نحو الميدان ، حيث قد احتشد الناس منذ بكرة الصباح ، وقد باتوا ليلهم ، لهذه الساعة المقتربة ، فى حديث متصل ، وفى تقديرات وتخمينات ، وتهكمات ، ووساوس وآمال وإذن فنحن هنا فى انتظار ان يرفع الستار عن هذا المشهد المشهود .. وبلغة المسرح يمكن أن نقول : الآن أطفئت أنوار (الصالة) وأضيئت أنوار المسرح : وها هى ذى الدقات التقليدية التى تسبق رفع الستار قد بدأت تدق !

إنها ليست دقات ، ولكنها دمدمة جيش كبير وراء الستار ، وقد دعته نفخات (البوق) إلى التأهب والاستعداد !

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ (١) .

هذه هى الاشارة الوحيدة التى ذكرت فى القرآن لتصوير هذه اللحظة التى تجعلنا وجها لوجه امام المعركة ! وما كانت هذه الاشارة لتتكرر مرة أخرى فى أى مساق من مساقات هذه القصة .. لأنها لم تقع الا مرة واحدة ، وعلى وجه واحد . وعلى الذين يرون فى القصص القرآنى تكرارا أن يقفوا طويلا عند هذه (اللقطة) فإن فيها دلالة كافية على أن تكرار هذا القصص هو معارض للأحداث على وجوهها المختلفة ، ومن زواياها المتعددة ! استيفاء للصورة ، ومَلْئاً للفراغات التى تدل عليها الآلات والاحوال ، والتى قد يعرف بعض الناس وجهها ، وقد يخفى على بعضهم .

ويرفع الستار . وإذا السحرة وما جلبوا فى جانب .. وموسى ، وعصاه ، وأخوه فى جانب ! وحين تتلاقى الوجوه ، وينظر كل من الفريقين فى وجه صاحبه ، وما يحمل من وسائل الصراع يتوجه موسى إلى السحرة بتلك الدعوة التى يقودهم بها إلى طريق الحق ، وليعذر إليهم بعد أن يلفتهم إلى هذا الضلال الذى يعملون له ، ويحيون فيه .

﴿ قال لهم موسى .. ويلكم لا تفتروا على الله كذبا .. فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ﴾(٢) .

ويتلقى السحرة هذا القول فيقع منهم مواقع مختلفة .. يثور له بعضهم ، ويتهدد بعض ، ويلين بعض .. وتكاد تكون بينهم فرقة !

ثم يشار عليهم أن ينحازوا إلى ناحية من الميدان يجمعون فيها أمرهم ، ويحكمون رأيهم ..

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ۝ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ۝ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صَفًا ، وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾(٣) .

وهكذا تضيع عند القوم تلك الدعوة الكريمة ، التى كان من شأنها أن تحسم الموقف ، فلا يقع

---

(١) سورة طه الآية : ٦٠

(٢) سورة طه الآية : ٦١

(٣) سورة طه الآيات : ٦٢ ـ ٦٤

بين الفريقين هذا الصراع الذى لابد ان ينجلى عن هزيمة احدهما . . وقد كان ! ويبدأ السحرة المعركة مناوشة بالكلام . .

﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾[1]

وفى صوت خافت مضطرب يجيبهم موسى : ﴿ ألقوا ﴾ ويضيع هذا الصوت الخافت الذى لا يكاد يسمع ، ويعاود السحرة القول ، فى قوة ، ليرهبوا موسى ، وليشهدوا المشاهدين :

﴿ ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ؟ ﴾[2] ويجيب موسى بصوت مسموع مخنوق :

﴿ بل ألقوا ﴾

ويأخذ السحرة يلقون ما بين أيديهم من سحر . . من حبال وعصى تتحرك فى تماوج واضطراب كأنها حيات . . ويضطرب موسى وتأخذه حال من الخوف والدهش ، ولكنه يذكر ما وعد الله ، فيمسك عليه نفسه بتلك الكلمات يرددها وكأنه يريد أن يذهل بها عن الموقف . . فكان كلما تتابعت رميات السحرة لقيها بهذه الكلمات التى ربما لا يسمعها غيره .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون . . . ﴾[3] .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون . . . ﴾[4] .

ويهمهم موسى بهذه الكلمات مختلطة باليأس والرجاء ، فعل من توجه إليه الضربات من يد قوية ، فيقول لضاربه : اضرب ، اضرب ! . . وما به من حاجة إلى طلب المزيد من الضرب ، ولكنه يقوى نفسه ، ويشد عزمه .

وننظر فى الصورة التى صورها القرآن لأفعال السحرة وموقعها من عينى موسى :

١ ـ ﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾[5] .

٢ ـ ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾[6] .

٣ ـ ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾[7] .

فالصورة هنا لم تتسلط على موسى وحده ، وإنما امتدت إلى المشهد كله ، فالتقطت الأثر الذى

---

(١) سورة الاعراف الآية : ١١٥
(٢) سورة طه الآية : ٦٥
(٣) سورة يونس الآية : ٨٠
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٣
(٥) سورة الشعراء الآية : ٤٤
(٦) سورة طه الآيتان : ٦٦ ، ٦٧
(٧) سورة الأعراف الآية : ١١٦

تركه فعل السحرة فى المشاهدين جميعا ..

وفى هذا الكرب الكارب والبلاء العظيم يجىء صوت الحق ليملأ قلب موسى أمنا وسكينة :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾(١)

﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾(٢) ..

فهاتان لقطتان تصوران النداء الذى ألقى إلى موسى من السماء .. فقد جاء النداء الأول هكذا :

﴿ أن ألق عصاك ﴾ وكأن موسى لم يجد فى هذا الأمر القدر من الطمأنينة له .. فجاء الأمر الشارح الواضح :

﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

ويمتلىء كيان موسى أمنا ، وطمأنينة ورجاء . ويحرك موسى عصاه فى يده ، وكأنه ينظر إليها لأول مرة ويتجه بها إلى القوم قائلا :

﴿ ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ، ولوكره المجرمون ﴾(٣) .

ثم يلقى عصاه ..

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون .. ﴾(٤)

وكان ذلك تصديقا لما وعد من قبل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾(٥) .

﴿ وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾(٦) ..

ويتجلى الموقف عن هزيمة منكرة يلقاها السحرة وسحرهم : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾(٥) ..

ثم يجىء لهذا الاجمال تفصيل .. وهذا التفصيل لتلك الخاتمة المسعدة أمر لابد منه ، لأنه المنهل الذى ترتوى منه النفوس التى أظمأها حر الكفاح ، ووهج الصراع ..

﴿ وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾(٨)

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١١٧
(٢) سورة طه الأيتان : ٦٨ ، ٦٩
(٣) سورة يونس الأيتان : ٨١ ، ٨٢
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٥
(٥) سورة الأعراف الآية : ١١٧
(٦) سورة طه الآية : ٦٩
(٧) سورة الأعراف الأيتان : ١١٨ ، ١١٩
(٨) سورة الاعراف الآيات : ١٢٠ ، ١٢٢

﴿ فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾[(١)] .

﴿ فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾[(٢)] .

فهذا التكرار على صورة واحدة فى الصورتين الاولبين إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسعد ، ثم إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جوانب الحشد الكبير ، الذى قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان . . والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانبا ثالثا من جوانب هذا الحشد تجىء بصوت آخر ، غير الصوت الذى تردد مدويا عاليا بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهارون . . فهذا الصوت سمع معلنا عن الإيمان برب موسى وهارون . . إذ أنه من غير الطبيعى ان يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون . . وإذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة ، فإن بعضا من القوم ينظر إلى هارون نفس النظرة ، إذ كان صاحب فصاحة وبيان اكثر من موسى . . أو أن هذا التقديم لهارون هنا إنما كان من الذين قدموه إقرارا قويا مؤكدا بالتسليم والايمان لهارون فضلا عن موسى . . وهذا وذاك يحتمله الموقف ، وتتقبله احتمالاته التى لا يكون من بينها ما يراه بعضهم من أن هذا التقديم لهارون كان لرعاية الفاصلة التى جاءت عليها آيات السورة . . ومعاذ الله أن ينزل بيان القرآن وإعجازه على حكم النظم ، وتعديل الصياغة !

(د) ما كان من فرعون ، ووعيده السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد : وتقع فى أذن فرعون ولعينيه كلمات السحرة المستسلمة ، وسجودهم الخاشع الخاضع . . موقع الصواعق المزلزلة ، فتعروه رعشات الحمى ، وتأخذه حال المحمومين ، فيخبط ويتخبط ، ويهذى ويهدر وإذا الكلمات المحمومة المسعورة تنطلق من فمه . . على غير وعى وبلا حساب .

﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾[(٣)] .

﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾[(٤)] . .

﴿ قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾[(٥)] .

هذه ثلاث مقولات لفرعون ، وقد كربه الكرب ، وأحاط به البلاء ، وحلت به وبجنده تلك الهزيمة المخزية القاصمة على الملأ وتسيطر على فرعون فى هذه اللحظة حال تستبد بكل تفكيره ، وهى خروج احد عن طاعته ، وتحول احد من حال إلى حال من غير إذنه .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٤٦ ، ٤٨
(٢) سورة طه الآية : ٧٠
(٣) سورة طه الآية : ٧١
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٩
(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤

إن ذلك معناه ضياع هيبته ، وسقوط سلطانه ! وماذا بقى لفرعون أو من فرعون بعد هذا ؟ آمنتم له قبل ان آذن لكم ؟ قبل أن آذن لكم ؟ قبل أن أذن لكم ؟

إن الهول الذى يغرق فرعون فى هذا الذهول فيردد هذه الكلمة التى كان فى مدلولها سقوط هيبته ، وضياع سلطانه فى رعيته ، حين يبلغ بهم الحال ان يعملوا عملا بغير إذنه .. وأن ذلك لم يكن إلا عن تدبير بيت بليل .. فهذه هى التشيلة التى يمسك بها الغريق ! ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها** ﴾

﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾

وتلك خيانة عظمى .. لها عقابها المرصود .

(فسوف تعلمون)

﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾

﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين** ﴾

﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾

كلمات يرددها ويهذى بها هذيان المحموم .

ويحسب فرعون أن هذه الكلمات التى يهذر بها أو يهذى ستنال من السحرة منالا ، فيجىء الأمر على خلاف ما يتوقع .. اصرار ، وتحد عنيد ، واستخفاف بكل وعد أو وعيد !

﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر .. والله خير وأبقى** ﴾[1] . (سورة طه)

﴿ **قالوا : لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** ﴾[2]

﴿ **قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** ﴾[3] .

إنه الإيمان الذى يقوم على علم ، وينشأ من حجة وبرهان .. إيمان يمسك بكيان الإنسان كما تمسك أصول الشجرة الطيبة بالأرض الطيبة ، لا تنال منها العواصف ، ولا تزعزعها الأعاصير .

وهذه المقولات ليست على لسان واحد أو جماعة من السحرة ، وإنما هى ومقولات كثيرة غيرها قد سمعت فى هذا الجو العاصف ! ولكن تلك المقولات الثلاث هى الروافد الثلاثة التى صبت فيها جميع المقولات .

ونظرة بعد هذا إلى هذه الصورة التى عرضناها من صور التكرار فى قصة موسى ، وهى أكثر

---

(١) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٥ ، ١٢٦

قصص القرآن دورانا وذكرا ، وقد اخترناها عن قصد لنواجه بها القول بالتكرار فى القرآن ، وبأن هذا التكرار فضول . . أو ما يشبه الفضول !

فهل لهذا القول مكان بعد هذا ؟

قد يكون ! ولكن فى مجال الجدل ! أو فى مقام العناد !

وليس لنا مع المجادلين موقف ، ولا لنا المعاندين سلطان ! هذا ، وهناك صور كثيرة لقصة موسى مع فرعون ، ولكنها صور لا تجىء لعرض القصة ، ولا للكشف عن جانب منها ، وإنما هى (لقطات) للإلفات والذكرى . . تجىء فى مواقف الإلفات والتذكير .

فمن ذلك :

١ ـ ما جاء فى سورة النمل : **﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾**[١] .

إنها قصة موسى وفرعون ، تجمع بين أطرافها جمعا ، فى هذا العرض الموجز السريع .

٢ ـ ومثل هذا ما جاء فى سورة القصص ! **﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾**[٢] .

٣ ـ ومثل ذلك أيضا ما جاء فى سورة النازعات . . وقد جاء عرضا لقصة موسى كلها !

﴿ هل آتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[٣] .

٤ ـ ومثل هذا ما جاء فى سورة الذاريات :

﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾[٤] .

٥ ـ وكذلك ما جاء فى سورة الإسراء :

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لاظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر . . وإنى لأظنك يافرعون مثبورا * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾[٥].

وهكذا جاءت صور كثيرة من هذا القبيل ، لا يراد بها العرض القصصى وإنما غايتها ـ كما قلنا ـ الإلفات والتذكير ، فى مقام الإلفات والتذكير ، فهى ليست من القصص ، وإن كانت تضم فى كيانها احداث القصة كلها .

---

(١) سورة النمل الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة القصص الآيتان : ٣٦ : ٣٧
(٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ ـ ٢٦
(٤) سورة الذاريات الآيات : ٣٨ ـ ٤٠
(٥) سورة الإسراء الآيات : ١٠١ ـ ١٠٣

وأحسب أن القول بأن فى القصص القرآنى تكرارا بعد هذا العرض الذى عرضناه من صور التكرار لأكثر قصص القرآن تكرارا ، وهى قصة موسى ـ أحسب أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال أو التضليل . وإذا كان ذلك هو الشأن فى القصص القرآنى ، فإنه فى غير القصص أظهر وأبين . .

ولا نريد أن نعرض صورا من التكرار فى غير القصص ، فقد عرفنا الوجه الذى يقوم عليه كل تكرار يلحظ فى القرآن ويكفى ان نقف بين يدى الآية الكريمة :

﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون ﴾(1) .

فى هذه الآية ثلاثة مفاهيم لموقف واحد . . هو موقف المشركين من يوم القيامة . . فهؤلاء ليسوا على حال سواء فى أمر هذا اليوم ، وليست مشاعرهم على درجة واحدة فى إنكاره ، بل هم درجات كثيرة ، يكاد يكون لكل واحد من آحادهم شعوره الخاص به ، ومفهومه له . .

ولتصوير هذه المشاعر فى جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ينبغى أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدد له .

ولكن ذلك أمر لا يضبط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة . .

ولو أنه ضبط لما كان له كبير قيمة فى كشف الموقف العام للمشركين منه . . إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة التى يكاد يلمح فيما بينها فرق إلا تحت النظر (الميكروسكوبى) .

وإذن فإن العمل الذى يجدى فى هذه الحال هو ضبط الناس فى (مجاميع) كل مجموعة تمثل اتجاها معينا ، له صفته ، وله وجهه وهذا هو الذى فعله القرآن هنا :

فقد قسم المشركين فى نظرتهم ليوم القيامة ، وفى شعورهم له ـ إلى ثلاث مجموعات ، كما يتبين ذلك فى صريح الآية الكريمة : ﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون ﴾ .

فالمجموعة الأولى من هؤلاء المشركين تأخذ علمها عن الساعة من مدلول النظر العقلى المجرد ، دون التفات إلى مقررات الرسالات السماوية فى هذا . .

وأمر الساعة من الأمور الغيبية التى يؤمن بها على الغيب أولا ، ثم يبحث عنها بالعقل ثانيا ، بحثاً يهتدى بالإيمان ، وبما تقرره الشرائع عن هذا اليوم .

ولهذا ، فإن علم هؤلاء الذين لا يقوم علمهم من وراء الإيمان ، هو علم مضطرب ، غير مستقر ، تتوارد عليه الخواطر المختلفة ، التى لا تدع له فرصة للاستقرار على وجه من الوجوه . . فهم على علم متدارك ينسخ بعضه بعضا .

والمجموعة الثانية . . هى التى انتهى بها هذا العلم العقلى المجرد إلى أودية الضلال والتيه ، فلم يروا إلا أوهاما وخيالات . . فهم فى شك من هذا اليوم .

والمجموعة الثالثة . . هى التى لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تفتح قلبها للإيمان

(1) سورة النمل الآية : ٣٦

جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون . . إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون ، قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم.وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . . قال فرعون آمنتم به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ .

وفى سورة يونس جاءت صورة الموقف على هذا الوجه : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ، وقال فرعون إئتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ هذه معارض أربعة ، وقد عرض فيها هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، عرضا مبسوطا، اتسع لأهم الأحداث التى جرت فيه . والتقط أدق الخلجات النفسية التى وقعت فى مجريات الصراع بين شخصياته .

كما قلنا من قبل فيما عرضنا من الصور القرآنية المتعددة للحدث الواحد نقول هنا إن هذه الصورة إذا ضم بعضها إلى بعض قامت فيها صورة واحدة ، هى صورة مكبرة لكل واحدة من هذه الصور على حدة . . فإنك إذ تنظر فى الصورة الكبيرة ثم تنظر فى أى من الصور الصغيرة تجد الملامح هى الملامح ، والصورة هى الصورة ، وإن حملت الصورة الكبيرة ألوانا أكثر . وشغلت مساحة أكبر .

وقد قلنا : إنه يمكن أن يرى ذلك من خلال فهم هذه الصور بعضها إلى بعض ، وتلاوتها فى معرض واحد ، حيث يمضى القارىء فى القراءة أو المرتل فى الترتيل ، دون أن يستشعر أنه يعيد ما قرأ ، أو يكرر مارتل . ونريد هنا أن نصنع صنيعا آخر مع هذه الآيات يتضح لنا منه ـ بصورة أكثر وضوحا ـ خلو القصص القرآنى من التكرار بالمعنى الذى فهم عليه ، والذى كان فى نظر الأغبياء

والادعياء تهمة يرمى بها القرآن فى أعز ما يعتز به من فصاحة وبيان .

وننظر فى الواقعة ذاتها فنجد أنها تشتمل على العناصر الآتية : ـ

١ ـ موسى ، ومعه أخوه هارون ، وما لقيا به فرعون من آيات ومقولات .

٢ ـ فرعون ، والملأ الذين معه من قومه ، وسحرته ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحديات .

٣ ـ ما كان بين موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم من عجز وتسليم ، وإيمان .

٤ ـ ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره ، وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وموقفهم من هذا الوعيد .

وصنيعنا هنا هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر فى هذه الصور الأربع التى عرض فيها القرآن الواقعة كلها .

(أ) موسى وهارون فى مواجهة فرعون ؛

موسى وهارون : ﴿ **إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾[1] . (من سورة طه)

موسى وهارون : ﴿ **إنا رسول رب العالمين. أن أرسل معنا بنى إسرائيل** ﴾[2] . (من سورة الشعراء) .

موسى : ﴿ **يافرعون إنى رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق** قد جئتكم ببينة من ربكم **فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾[3] .

أما الصورة الرابعة ـ والتى جاءت بها سورة يونس فليس فيها ما يحدث عن الموقف بين موسى وفرعون .

واقرأ هذه المقولات الثلاث ، واحدة بعد أخرى ، تجد أنها تصور الموقف أدق وأصدق وأحكم تصوير ، وأنها قد جاوزت به متلبسا بكل ما كان يجرى فى النفوس من مشاعر وأحاسيس .

فهذه المقولات الثلاث ليست قولا واحدا جاء به القرآن فى ثلاثة معارض من القول . . وإنما هى أقوال ثلاثة فعلا كل قول منها مستقل بنفسه ، قائم بذاته .

ولا نستطيع الجزم بالترتيب الذى بين هذه الأقوال ، وأيها يسبق صاحبه أو يتأخر عنه . . ومع هذا فإن الترتيب الذى تجتمع عليه فى كل موضع ممكن ، هو ترتيب يتسع له الموقف ويتطلبه .

ويكفى أن ننظر إليها فى وضع واحد من هذه الأوضاع ، وليكن وضعها هذا الذى جاء هنا من غير قصد ولا تدبير .

١ ـ فهذا موسى ومعه أخوه هارون . . يدخلان على فرعون معا ، ويتحدثان بصوت واحد معا . . إذا كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون قبل ان يلقاه ، فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه هارون . فهو أفصح منه لسانا ، فيقولان : ﴿ **إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾[4] . (سورة طه) .

---

(١) سورة طه الآية ١٨

(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

(٤) سورة طه الآية ١٨

وهى قوله لا تلقى فرعون لقاء مواجها ، إنها حكم عام . ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾

٢ - ثم ها هما ذات قد أخذت تزايلهما رهبة الموقف ، وروعة اللقاء . فيلقيان فرعون لقاء مباشرا ، ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم . فيقولان معا : ﴿ إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾[1] . (سورة الشعراء) ونستشعر من هذا أن موسى لا يزال يجد الرهبة والخوف من فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ولا يزال هارون معه يأخذ مكانه إلى جانبه ، ليشد أزره ، ويثبت جنانه .

٣ - ثم ها هو ذا موسى بعد أن تمرس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل الصدمات الأُولى لها .

- ها هو ذا يلقى فرعون وحده ، ويسمعه بلسانه مضمون رسالته . فى قوة وصراحة .

﴿ يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾[2] .

ياللإعجاز الذى تذل لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له الأعناق ، وتعنو الوجوه !

يافرعون !

هكذا يقولها موسى فى وجه فرعون !

أتراه كان يفعل ذلك لأول لقاء ولأول مواجهة ؟ وكيف وهو الذى حسب لهذا الموقف ألف حساب وحساب قبل أن يقدم عليه ؟

إن هذا لا يكون ، إلا بعد ممارسة الموقف ، ومعاودة التجربة !

وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : يافرعون ! ولا أن يقول بعدها : إنى ؟ هذا الضمير المحقق لشخصيته والمؤكد لذاتيته: إنى . . لا أحد غيرى (رسول من رب العالمين) ولحرف الجر (من) هنا ما له من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التى تحملها ، والجهة التى جاءت منها ، ففيها ما ليس فى قوله لو قال : ﴿ رسول رب العالمين ﴾ من الشحنة القوية المليئة بالاعتزاز بهذا السلطان الذى يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين . . ﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ وهذا اعتزاز بعد اعتزاز ، لشخصه الذى يحمل رسالة السماء . . ومن هذا الأفق العالى يتنزل أمر موسى هادرا مدويا فى وجه فرعون : ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ ! ! ولك أن تضع هذا الأمر الصادع إلى هذا الرجاء الذى أسمعاه - موسى وهارون - لفرعون من قبل ﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ . وسيتضح لك ما بين الحالين من مفارقات وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع ، مما لم يعهد سماعه من أحد من قبل » .

ننظر ونرى !

(ب) فرعون وقومه وسحرته :

وفرعون فى هذا الموقف يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دهشا عجبا لهذا التطاول عليه ، والخروج

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

على المألوف فى حضرته . . ثم إنه مع هذا هو فرعون ! ! يبسط سلطانه على أهل المجلس ، يلقى نظرة هنا ونظرة هناك ، ويرمى بكلمة هنا وكلمة هناك . . إنه هنا المحور الذى تدور به ومن حوله الأحداث وطبيعى ألا يأخذ إتجاها واحدا ، لتعدد الأطراف المشتركة فيه . . فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملأ . .

ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التى عرضها القرآن لهذا الموقف ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون ، وإنما هى (لقطات) مركزة مجمعة لأكثر من لقاء ، إذ من غير الطبيعى أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، وينتهى إلى هذا التحدى الذى حددا موعده ، والذى يلتقى فيه موسى بالسحرة . . ولكن المقدر فى هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما إلى أن ييأس كل منهما من الوصول إلى وفاق مع خصمه فلا يكون بعد هذا إلا التحدى والصراع .

ومع هذا ، فإن اقتدار القرآن ، وإعجازه فى تصوير مشاهد هذا الموقف فى أزمنة مختلفة ، وأحوال مختلفة أيضا قد جعل منها مشهدا واحدا ، تمسك به تلك المشاعر التى كان يعيش بها أصحابها فى هذا الموقف ، دون أن يحدث الانفصال الزمانى أو المكانى فيها خلخلة ، أو ازدواجا . ولهذا ، فإننا سنعرض هذه المشاهد على أنها صورة واحدة ، فى موقف واحد ، وسنرى أنها تقبل مثل هذا العرض وتتلاقى فيه وجوهها ، دون ان تتخالف ، أو تتصادم ، أو تتدافع . ولقد رأينا فى الموقف السابق أن فرعون قد أخذ بالمباغتة التى طلع بها موسى وهارون عليه ، وأنه حين اسمعاه هذا القول الذى قالا . له ، فى قوة وجرأة . وجم ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فاتجه إلى موسى بهذه الكلمات الساخرة الهازئة :

﴿ ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ ؟ (سورة الشعراء) .

وقد قدر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى فى الصميم وإنها ستخفض رأسه فى حضرته . . إذ أنه سيذكر بهذه الكلمات طفولته وضياعه ، ووقوعه ليد فرعون ، ثم إنه سيرى صورة مخيفة لفعلته التى فعلها ، وهى قتل المصرى . . !

ولكن موسى يقف لفرعون ويجيبه قائلا :

﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ؟ ﴾ (سورة الشعراء) .

وهنا يلقاه فرعون سائلا :

﴿ من ربكما ياموسى ؟ ﴾ (سورة طه)

وانظر إلى كيد فرعون فى هذا السؤال الماكر . . إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما فى لسان موسى من حبسة . . وذلك ليحرجه ، أو يفحمه أمام الجميع . ويجيب موسى وقد أطلق الله حبسة لسانه :

﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾[١] . (سورة طه) .

ويعاجله فرعون بسؤال آخر :

﴿ فما بال القرون الأولى ﴾[٢] . (سورة طه)

ويرد موسى هذا الرد المفحم :

﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٣] . (سورة طه)

وانظر أيضا كيف عدل موسى عن الجواب عن سؤال فرعون ، والدخول معه فى هذه الجهة التى يكثر فيها اللجاج ، ولا يستطيع أحد المتخاصمين أن ينال موقفا حاسما : ما بال القرون الأولى ؟ طوفان يغرق فيه من يتصدى للجواب عنه . . ثم خلص من هذا إلى العرض الواضح المحسوس الذى لا ينكر لقدرة الله ، ولهذه القدرة من آثار تملأ وجوه الحياة .

ويضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة . . فيجىء إلى موسى من طريق آخر فيسأله :

﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويكون جواب موسى حاضرا :

﴿ رب السموات والأض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾[٤]. (سورة الشعراء)

ويتلفت فرعون حواليه . عجبا ، دهشا ، مستنكرا . . يقول لأهل مجلسه : ﴿ ألا تستمعون ﴾[٥]. سورة الشعراء

وإلى هذه الجبهة الجديدة التى فتحها فرعون يتجه موسى قائلا : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ! (سورة الشعراء) وتثير هذه الجرأة حنق فرعون . . إذ كيف يجرؤ موسى على تخطى فرعون ومخاطبة غيره فى حضرته . . ثم هو يخشى من جهة أخرى أن يكون لقول موسى أثر فى هؤلاء الذين وجه إليهم حديثه فيقول لهم : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾[٦]. (سورة الشعراء)

ويرد موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ما قال من قبل . . فيقول : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾[٧]. (سورة الشعراء)

---

(١) سورة طه الآية ٥٠
(٢) سورة طه الآية ٥١
(٣) سورة طه الآية ٥٢
(٤) سورة الشعراء الآية ٢٤
(٥) سورة الشعراء الآية ٢٦
(٦) سورة الشعراء الآية ٢٧
(٧) سورة الشعراء الآية : ٢٨

وفى قولة موسى هذه تحريض قوى لهؤلاء الأتباع من قوم فرعون أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بعقولهم ، فلا يكون فرعون هو الذى يفكر لهم ، ويقرر مصيرهم .. ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ .

ويجن جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم ـ قوم فرعون ـ من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فيلقاه بهذا الوعيد :

﴿ لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾[1] . (سورة الشعراء)

ويلقى موسى هذا الوعيد بقوله : ﴿ أولو جئتك بشىء مبين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويجيبه فرعون :

﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ (سورة الشعراء)

ويقبل موسى بما معه :

﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ (سورة الشعراء)

ويحسب فرعون أن هذا من عمل موسى ، وسحر من سحره وأنه ليس بين يديه آية ، تشهد له أنه رسول من عند الله ، فيقول له :

﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾[2] . (سورة الأعراف)

وليس بين يدى موسى آية غير تلك الآية التى قدمها من قبل .. فيعرضها مرة اخرى .

﴿ فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[3] . (سورة الأعراف)

إنه نفس المنظر الذى عرضه موسى من قبل ، والذى ذكر فى سورة (الشعراء) .. لم تتغير لمحة من لمحاته .. إنه كلمة من كلمات الله . و ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ ..

وهنا يبدى فرعون رأيه فى هذا العمل الذى قدمه موسى على أنه الآية التى بين يدى دعواه ، ويكثر لغط القوم حول هذه الآية ، وتكثر أقوالهم فيها ، ثم يتكشف هذا اللغط ، وتنتهى هذه الأقوال إلا قول واحد فيها ، هو ما قاله فرعون : ﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ﴾[4] ؟ . (سورة الشعراء)

وتعمل هذه القولة عملها فى حاشيته ، ويلقى بها كل واحد إلى من بجواره ، وإذا بها تتردد على أفواه الجميع .. ويضبطها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ﴾[5]. (سورة الاعراف) .

ويمسك فرعون مرة اخرى بزمام الموقف ، بعد ان أشاع فى قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٩
(٢) سورة الاعراف الآية : ١٠٦
(٣) سورة الاعراف الآية : ١٠٧ ، ١٠٨
(٤) سورة الشعراء الآية : ٣٤ ، ٣٥
(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠

عليم .. ثم يجسد هذه المشاعر فى تلك الكلمات المتحدية المهددة .. يواجه بها موسى :

﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ﴾(١) .

وانظر فى هذا الاعجاز الذى تتقطع دونه الأعناق ! لقد وزع القرآن هذا المشهد فى معرضين ، من صور العرض لهذه القصة ، فجعل قولة فرعون فى سورة ، وجعل قولة الملأ فى سورة أخرى ، حتى لا تتراكم الصور ، وتتراكب ، وحتى لا يقع هذا التكرار على أية صورة ، لفظية أو معنوية . وانظر مرة أخرى فى هذه المقولة : ﴿ فماذا تأمرون ﴾؟ لقد جاءت على لسان فرعون ، كما جاءت على لسان الملأ من حوله .. إنها الكلمة التى كانت تدور على الألسنة فى مثل هذا الموقف كل يسأل صاحبه : (ما العمل ؟) .. ثم يجىء الجواب ممسكا بالاتجاه الغالب ، الذى كاد يستقر عليه الرأى ، وتجتمع عليه الأكثرية ..

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم ﴾(٢) .

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾(٣)

وإذا كان الرأى قد غلب فى إرجاء موسى وأخيه . وفى البحث عن السحرة فى كل مكان ، فإن الرأى كاد يتوازن بين دعوة كل ساحر أو دعوة من مهر فى السحر من السحرة .. فقال فريق بدعوة كل ساحر ، وقال فريق آخر بدعوة كل سحار .. ولهذا أعيد الجواب ، فكان مقترنا بكلمة « ساحر » مرة ، بينما اقترن بكلمة « سحار » فى المرة الاخرى .

هذا مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل ، من تلك الفواصل الزمانية والمكانية بين الآيتين الكريمتين ، ومع ملاحظة أن كلا منهما فى موقف ، وإن كنا قد جمعناهما فى موقف واحد .

(ج) ما كان بين موسى والسحرة :

هذا موقف كان له صدى بعيد فى المجتمع المصرى يومذاك ، فقد وقف موسى وحده ليس معه إلا عصاه ، وإلا هارون أخوه يتحدى فرعون بكل جبروته وسلطانه ، ويلقاه بكل ما أعد له من سحرة وسحر !

وقد اجتمع الناس ، وحشدوا حشدا لهذا الموقف فى اليوم والمكان الموعودين : ﴿ يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ . وكان موسى هو الذى اقترح هذا اليوم ، وهو يوم العيد حيث يفرغ الناس له ، ويخلون أنفسهم من كل عمل إلا ما كان لمرح ولهو ، وليس كهذا المشهد داعيا يدعو الناس إليه ، ويحملهم على أن يتخلوا من كل عمل جاد وهازل من أجله .. و (الضحى) الذى كان موعد اللقاء فى هذا اليوم هو الساعة التى تبلغ فيها حركة الناس ونشاطهم غايتها ..

---

(١) سورة طه الآية : ٧٠

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢

وإذن فهو موقف مشهور ومشهود ، وما يتكشف عنه هذا الموقف هو مما يسفر به وجه الحق ، وتتجلى فيه آياته ، فى صراعه مع الباطل .. وهو بهذا صورة كريمة من الصور التى ينبغى أن تكون متمثلة دائما فى خاطر أصحاب الدعوات ، ليكون لهم منه عبرة وعظة تخف بها أعباؤهم ، وتشتد عزائمهم فى السير إلى غاياتهم .

ومن أجل هذا فقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف فى مواضع كثيرة منه ، وعرضها عرضا يكشف عن جوانبه ، ويصور أدق خفاياه ، ويلتقط ما تكن الضمائر ، وما تخفى الصدور ، وقبل أن يرفع الستار عن هذا المشهد ، يعلن القرآن عما اتخذ فرعون لهذا الموقف من أهبة ، وما بذل من جهد ، وما حشد من قوى ..

فنحن نعرف فى الموقف الذى كان بين موسى وفرعون أن الرأى قد استقر بين فرعون وملئه على أن يبعث جنده وأعوانه فى المدائن كلها ليجلبوا منها كل من عنده علم من السحر .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ﴾(١) .

﴿ وقالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾(٢) .

ثم انفض المجلس على هذا ، وبدأ فرعون ينفذ خطته ، وها هو ذا القرآن يرصد خطواته ، ويكشف المستور من أمره **﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾**(٣) . (سورة طه)

ثم نراه وقد أصدر أوامره إلى من يراه صالحا لتنفيذ هذه المهمة : **﴿ وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ﴾**(٤) . ثم نرى المحصول الذى اجتمع من هذا التدبير .. فها هم أولاء السحرة قد جىء بهم من كل مكان ، وها هى ذى أبواق الدعاية تنفخ فى كل جهة ، تدعو الناس إلى أن يكونوا من وراء السحرة ، مؤيدين وناصرين .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾(٥) .

لقد بلغ الأمر غايته وأعد له كل شىء !

وها هم أولاء السحرة يجتمعون بين يدى فرعون ، قبل أن يدخلوا المعركة ، ليتلقوا توجيهاته ، وليستعرضوا بين يديه وجوههم ، وما يحملون من معدات القتال .. !

ونلمح من آيات الكتاب الكريم أنه قد كان هناك استعراض أو استعراضات ، قبل الاستعراض الأخير الذى تم فى يومه اللقاء ، والتحم الصراع .

﴿ فلما جاء السحرة .. قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾(٦) .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧
(٢) سورة الاعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢
(٣) سورة طه الآية : ٦٠
(٤) سورة يونس الآية : ٧٩
(٥) سورة الشعراء الآيات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠
(٦) سورة الشعراء الآية : ٤١

فهذا الاسترخاء والمط الذى توحى به كلمة : ﴿ فلما جاء السحرة فرعون ﴾ يوحى بأن السحرة كانوا يتوافدون عليه حالا بعد حال ، وأنه كان يلقاهم أفرادا وجماعات ، ليعرف أولا فأولا ماذا يجتمع له من هذه القوى . . ثم يشعرنا هذا الاستفهام المتخاذل المتخافت فى قولهم : ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ أن السحرة لا يزالون مأخوذين برهبة الموقف بين يدى فرعون ، وأنهم يدخلون عليه بهذا الطلب مدخلا متلطفا مستأذنا . . أئن لنا لأجرا ؟ . . إن كنا نحن الغالبين ؟

ويلقى فرعون هذه المنى بوعد غير منجز ، وعد موقوت بالظرف المناسب له ، مقدور بالحالة التى يقع عليها . . ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

وانظر إلى الصورة من جانبيها . . استفهاما ، وجوابا عنه : **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم ، وإنكم إذاً لمن المقربين ؟ ثم انظر إلى الصورة وقد اكتملت ألوانا وظلالا .**

﴿ **وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾[1] .

إنك تجد آيات بينات من إعجاز تلك المعجزة الكبرى التى حملها محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين يديه ، وعلى لسانه وفى قلبه ، هدى ورحمة للعالمين . .

١ ـ فلقد خلت الصورة الثانية من كلمة (فلما) تلك الكلمة التى تشعر بالاسترخاء والمط ـ كما قلنا ـ والتى تدل على ان السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالا بعد حال . .

٢ ـ أخذ الفعل (جاء) مفعوله وهو (فرعون) فى الصورة الثانية ، على حين لم يذكر له مفعول فى الصورة الاولى . .

أ ـ ولما جاء السحرة . . قالوا لفرعون . .

ب ـ وجاء السحرة فرعون . . قالوا . .

وهذا يقوى ما قلناه من قبل من أن الصورة الاولى كانت لقاء غير مباشر مع فرعون ، إذ كان يلقاهم أعوانه وحاشيته ، أو كان لقاء مفرقا لم يحتشد له السحرة ، بينما كانت الصورة الثانية كاشفة عن اللقاء الاخير فى مواجهة فرعون ، وفى تلقى توجيهه الاخير لما أُعدهم له .

٣ ـ فى الصورة الاولى استفهام من السحرة عن الجزاء الذى يجزيهم فرعون به ، إذا هم انتصروا فى هذا الموقف ـ أشبه بالاستجداء ، يقابله وعد مسترخ متعال ، تفوح منه رائحة التصدق من فرعون ! ، بينما يتحول هذا الاستجداء فى اللحظة الاخيرة وقد أزفت الآزفة ، وواجه فرعون الامتحان . . تحول هذا الاستجداء إلى طلب ، واستقضاء لأجر فى مقابل عمل . . ﴿ **إن لنا لأجرا . . إن كنا نحن الغالبين** ﴾ ولا يملك فرعون إلا أن يضع نفسه تحت تصرف السحرة . . ﴿ **قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ بعد أن كان قوله لهم:﴿**نعم وإنكم إذن لمن المقربين** ﴾.

---

(١) سورة الاعراف الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

فكلمة (إذا) هنا تحمل رنين الوعد الزائف ، أو الساحر أو هما معا .

وها قد عبئت القوى التى أعدها فرعون لموسى . . وها هى ذى تتحرك نحو الميدان ، حيث قد احتشد الناس منذ بكرة الصباح ، وقد باتوا ليلهم ، لهذه الساعة المقتربة ، فى حديث متصل ، وفى تقديرات وتخمينات ، وتهكمات ، ووساوس وآمال وإذن فنحن هنا فى انتظار ان يرفع الستار عن هذا المشهد المشهود . . وبلغة المسرح يمكن أن نقول : الآن أطفئت أنوار (الصالة) وأضيئت أنوار المسرح : وها هى ذى الدقات التقليدية التى تسبق رفع الستار قد بدأت تدق !

إنها ليست دقات ، ولكنها دمدمة جيش كبير وراء الستار ، وقد دعته نفخات (البوق) إلى التأهب والاستعداد !

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ (١) .

هذه هى الاشارة الوحيدة التى ذكرت فى القرآن لتصوير هذه اللحظة التى تجعلنا وجها لوجه امام المعركة ! وما كانت هذه الاشارة لتتكرر مرة أخرى فى أى مساق من مساقات هذه القصة . . لأنها لم تقع الا مرة واحدة ، وعلى وجه واحد . وعلى الذين يرون فى القصص القرآنى تكرارا أن يقفوا طويلا عند هذه (اللقطة) فإن فيها دلالة كافية على أن تكرار هذا القصص هو معارض للأحداث على وجوهها المختلفة ، ومن زواياها المتعددة ! استيفاء للصورة ، ومَلْئاً للفراغات التى تدل عليها الآلات والاحوال ، والتى قد يعرف بعض الناس وجهها ، وقد يخفى على بعضهم .

ويرفع الستار . وإذا السحرة وما جلبوا فى جانب . . وموسى ، وعصاه ، وأخوه فى جانب ! وحين تتلاقى الوجوه ، وينظر كل من الفريقين فى وجه صاحبه ، وما يحمل من وسائل الصراع يتوجه موسى إلى السحرة بتلك الدعوة التى يقودهم بها إلى طريق الحق ، وليعذر إليهم بعد أن يلفتهم إلى هذا الضلال الذى يعملون له ، ويحيون فيه .

﴿ قال لهم موسى . . ويلكم لا تفتروا على الله كذبا . . فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ﴾ (٢) .

ويتلقى السحرة هذا القول فيقع منهم مواقع مختلفة . . يثور له بعضهم ، ويتهدد بعض ، ويلين بعض . . وتكاد تكون بينهم فرقة !

ثم يشار عليهم أن ينحازوا إلى ناحية من الميدان يجمعون فيها أمرهم ، ويحكمون رأيهم . .

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ۞ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ۞ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صَفًّا ، وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ (٣) .

وهكذا تضيع عند القوم تلك الدعوة الكريمة ، التى كان من شأنها أن تحسم الموقف ، فلا يقع

---

(١) سورة طه الآية : ٦٠
(٢) سورة طه الآية : ٦١
(٣) سورة طه الآيات : ٦٢ ـ ٦٤

بين الفريقين هذا الصراع الذى لابد ان ينجلى عن هزيمة احدهما . . وقد كان ! ويبدأ السحرة المعركة مناوشة بالكلام . .

﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾[1]

وفى صوت خافت مضطرب يجيبهم موسى : ﴿ ألقوا ﴾ ويضيع هذا الصوت الخافت الذى لا يكاد يسمع ، ويعاود السحرة القول ، فى قوة ، ليرهبوا موسى ، وليشهدوا المشاهدين :

﴿ ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ؟ ﴾[2] ويجيب موسى بصوت مسموع مخنوق :

﴿ بل ألقوا ﴾

ويأخذ السحرة يلقون ما بين أيديهم من سحر . . من حبال وعصى تتحرك فى تماوج واضطراب كأنها حيات . . ويضطرب موسى وتأخذه حال من الخوف والدهش ، ولكنه يذكر ما وعد الله ، فيمسك عليه نفسه بتلك الكلمات يرددها وكأنه يريد أن يذهل بها عن الموقف . . فكان كلما تتابعت رميات السحرة لقيها بهذه الكلمات التى ربما لا يسمعها غيره .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون . . . ﴾[3] .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون . . . ﴾[4] .

ويهمهم موسى بهذه الكلمات مختلطة باليأس والرجاء ، فعل من توجه إليه الضربات من يد قوية ، فيقول لضاربه : اضرب ، اضرب ! . . وما به من حاجة إلى طلب المزيد من الضرب ، ولكنه يقوى نفسه ، ويشد عزمه .

وننظر فى الصورة التى صورها القرآن لأفعال السحرة وموقعها من عينى موسى :

١ - ﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾[5] .

٢ - ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾[6] .

٣ - ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾[7] .

فالصورة هنا لم تتسلط على موسى وحده ، وإنما امتدت إلى المشهد كله ، فالتقطت الأثر الذى

---

(١) سورة الاعراف الآية : ١١٥
(٢) سورة طه الآية : ٦٥
(٣) سورة يونس الآية : ٨٠
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٣
(٥) سورة الشعراء الآية : ٤٤
(٦) سورة طه الآيتان : ٦٦ ، ٦٧
(٧) سورة الأعراف الآية : ١١٦

تركه فعل السحرة فى المشاهدين جميعا ..

وفى هذا الكرب الكارب والبلاء العظيم يجىء صوت الحق ليملأ قلب موسى أمنا وسكينة :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾[(١)]

﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾[(٢)] ..

فهاتان لقطتان تصوران النداء الذى ألقى إلى موسى من السماء .. فقد جاء النداء الأول هكذا :

﴿ أن ألق عصاك ﴾ وكأن موسى لم يجد فى هذا الأمر القدر من الطمأنينة له .. فجاء الأمر الشارح الواضح :

﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

ويمتلىء كيان موسى أمنا ، وطمأنينة ورجاء . ويحرك موسى عصاه فى يده ، وكأنه ينظر إليها لأول مرة ويتجه بها إلى القوم قائلا :

﴿ ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ، ولوكره المجرمون ﴾[(٣)] .

ثم يلقى عصاه ..

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون .. ﴾[(٤)]

وكان ذلك تصديقا لما وعد من قبل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾[(٥)] .

﴿ وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾[(٦)] ..

ويتجلى الموقف عن هزيمة منكرة يلقاها السحرة وسحرهم : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾[(٥)] ..

ثم يجىء لهذا الاجمال تفصيل .. وهذا التفصيل لتلك الخاتمة المسعدة أمر لابد منه ، لأنه المنهل الذى ترتوى منه النفوس التى أظمأها حر الكفاح ، ووهج الصراع ..

﴿ وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾[(٨)]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١١٧
(٢) سورة طه الآيتان : ٦٨ ، ٦٩
(٣) سورة يونس الآيتان : ٨١ ، ٨٢
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٥
(٥) سورة الأعراف الآية : ١١٧
(٦) سورة طه الآية : ٦٩
(٧) سورة الأعراف الآيتان : ١١٨ ، ١١٩
(٨) سورة الاعراف الآيات : ١٢٠ ، ١٢٢

﴿ فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾[١] .

﴿ فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾[٢] .

فهذا التكرار على صورة واحدة فى الصورتين الاولتين إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسعد ، ثم إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جوانب الحشد الكبير ، الذى قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان . . والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانبا ثالثا من جوانب هذا الحشد تجىء بصوت آخر ، غير الصوت الذى تردد مدويا عاليا بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهارون . . فهذا الصوت سمع معلنا عن الإيمان برب موسى وهارون . . إذ أنه من غير الطبيعى ان يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون . . وإذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة ، فإن بعضا من القوم ينظر إلى هارون نفس النظرة ، إذ كان صاحب فصاحة وبيان اكثر من موسى . . أو أن هذا التقديم لهارون هنا إنما كان من الذين قدموه إقرارا قويا مؤكدا بالتسليم والايمان لهارون فضلا عن موسى . . وهذا وذاك يحتمله الموقف ، وتتقبله احتمالاته التى لا يكون من بينهما ما يراه بعضهم من أن هذا التقديم لهارون كان لرعاية الفاصلة التى جاءت عليها آيات السورة . . ومعاذ الله أن ينزل بيان القرآن وإعجازه على حكم النظم ، وتعديل الصياغة !

(د) ما كان من فرعون ، ووعيده السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد : وتقع فى أذن فرعون ولعينيه كلمات السحرة المستسلمة ، وسجودهم الخاشع الخاضع . . موقع الصواعق المزلزلة ، فتعروه رعشات الحمى ، وتأخذه حال المحمومين ، فيخبط ويتخبط ، ويهذى ويهدر وإذا الكلمات المحمومة المسعورة تنطلق من فمه . . على غير وعى وبلا حساب .

﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾[٣] .

﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾[٤] . .

﴿ قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾[٥] .

هذه ثلاث مقولات لفرعون ، وقد كربه الكرب ، وأحاط به البلاء ، وحلت به وبجنده تلك الهزيمة المخزية القاصمة على الملأ وتسيطر على فرعون فى هذه اللحظة حال تستبد بكل تفكيره ، وهى خروج احد عن طاعته ، وتحول احد من حال إلى حال من غير إذنه .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٤٦ ، ٤٨
(٢) سورة طه الآية : ٧٠
(٣) سورة طه الآية : ٧١
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٩
(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤

إن ذلك معناه ضياع هيبته ، وسقوط سلطانه ! وماذا بقى لفرعون أو من فرعون بعد هذا ؟ آمنتم له قبل ان آذن لكم ؟ قبل أن آذن لكم ؟ قبل أن أذن لكم ؟

إن الهول الذى يغرق فرعون فى هذا الذهول فيردذ هذه الكلمة التى كان فى مدلولها سقوط هيبته ، وضياع سلطانه فى رعيته ، حين يبلغ بهم الحال ان يعملوا عملا بغير إذنه .. وأن ذلك لم يكن إلا عن تدبير بيت بليل .. فهذه هى التشيلة التى يمسك بها الغريق ! ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾

﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾

وتلك خيانة عظمى .. لها عقابها المرصود .

(فسوف تعلمون)

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾

كلمات يرددها ويهذى بها هذيان المحموم .

ويحسب فرعون أن هذه الكلمات التى يهذر بها أو يهذى ستنال من السحرة منالا ، فيجىء الأمر على خلاف ما يتوقع .. اصرار ، وتحد عنيد ، واستخفاف بكل وعد أو وعيد !

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر .. والله خير وأبقى ﴾[1] . (سورة طه)

﴿ قالوا : لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾[2]

﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾[3] .

إنه الإيمان الذى يقوم على علم ، وينشأ من حجة وبرهان .. إيمان يمسك بكيان الإنسان كما تمسك أصول الشجرة الطيبة بالأرض الطيبة ، لا تنال منها العواصف ، ولا تزعزعها الأعاصير .

وهذه المقولات ليست على لسان واحد أو جماعة من السحرة ، وإنما هى ومقولات كثيرة غيرها قد سمعت فى هذا الجو العاصف ! ولكن تلك المقولات الثلاث هى الروافد الثلاثة التى صبت فيها جميع المقولات .

ونظرة بعد هذا إلى هذه الصورة التى عرضناها من صور التكرار فى قصة موسى ، وهى أكثر

---

(١) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٥ ، ١٢٦

قصص القرآن دورانا وذكرا ، وقد اخترناها عن قصد لنواجه بها القول بالتكرار فى القرآن ، وبأن هذا التكرار فضول .. أو ما يشبه الفضول !

فهل لهذا القول مكان بعد هذا ؟

قد يكون ! ولكن فى مجال الجدل ! أو فى مقام العناد !

وليس لنا مع المجادلين موقف ، ولا لنا المعاندين سلطان ! هذا ، وهناك صور كثيرة لقصة موسى مع فرعون ، ولكنها صور لا تجىء لعرض القصة ، ولا للكشف عن جانب منها ، وإنما هى (لقطات) للإلفات والذكرى .. تجىء فى مواقف الإلفات والتذكير .

فمن ذلك :

١ ـ ما جاء فى سورة النمل : ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾[١] .

إنها قصة موسى وفرعون ، تجمع بين أطرافها جمعا ، فى هذا العرض الموجز السريع .

٢ ـ ومثل هذا ما جاء فى سورة القصص ! ﴿ **فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون** ﴾[٢] .

٣ ـ ومثل ذلك أيضا ما جاء فى سورة النازعات .. وقد جاء عرضا لقصة موسى كلها !

﴿ **هل آتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾[٣] .

٤ ـ **ومثل هذا ما جاء فى سورة الذاريات :**

﴿ **وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم** ﴾[٤] .

٥ ـ **وكذلك ما جاء فى سورة الإسراء :**

﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لاظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر .. وإنى لأظنك يافرعون مثبورا * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا** ﴾[٥].

وهكذا جاءت صور كثيرة من هذا القبيل ، لا يراد بها العرض القصصى وإنما غايتها ـ كما قلنا ـ الإلفات والتذكير ، فى مقام الإلفات والتذكير ، فهى ليست من القصص ، وإن كانت تضم فى كيانها احداث القصة كلها .

---

(١) سورة النمل الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة القصص الآيتان : ٣٦ : ٣٧
(٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ ـ ٢٦
(٤) سورة الذاريات الآيات : ٣٨ ـ ٤٠
(٥) سورة الإسراء الآيات : ١٠١ ـ ١٠٣

وأحسب أنّ القول بأن فى القصص القرآنى تكرارا بعد هذا العرض الذى عرضناه من صور التكرار لأكثر قصص القرآن تكرارا ، وهى قصة موسى ـ أحسب أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال أو التضليل . وإذا كان ذلك هو الشأن فى القصص القرآنى ، فإنه فى غير القصص أظهر وأبين . .

ولا نريد أن نعرض صورا من التكرار فى غير القصص ، فقد عرفنا الوجه الذى يقوم عليه كل تكرار يلحظ فى القرآن ويكفى ان نقف بين يدى الآية الكريمة :

﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون ﴾[1] .

فى هذه الآية ثلاثة مفاهيم لموقف واحد . . هو موقف المشركين من يوم القيامة . . فهؤلاء ليسوا على حال سواء فى أمر هذا اليوم ، وليست مشاعرهم على درجة واحدة فى إنكاره ، بل هم درجات كثيرة ، يكاد يكون لكل واحد من آحادهم شعوره الخاص به ، ومفهومه له . .

ولتصوير هذه المشاعر فى جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ينبغى أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدد له .

ولكن ذلك أمر لا يضبط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة . .

ولو أنه ضبط لما كان له كبير قيمة فى كشف الموقف العام للمشركين منه . . إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة التى يكاد يلمح فيما بينها فرق إلا تحت النظر (الميكروسكوبى) .

وإذن فإن العمل الذى يجدى فى هذه الحال هو ضبط الناس فى (مجاميع) كل مجموعة تمثل اتجاها معينا ، له صفته ، وله وجهه وهذا هو الذى فعله القرآن هنا :

فقد قسم المشركين فى نظرتهم ليوم القيامة ، وفى شعورهم له ـ إلى ثلاث مجموعات ، كما يتبين ذلك فى صريح الآية الكريمة : **﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون ﴾** .

فالمجموعة الأولى من هؤلاء المشركين تأخذ علمها عن الساعة من مدلول النظر العقلى المجرد ، دون التفات إلى مقررات الرسالات السماوية فى هذا . .

وأمر الساعة من الأمور الغيبية التى يؤمن بها على الغيب أولا ، ثم يبحث عنها بالعقل ثانيا ، بحثاً يهتدى بالإيمان ، وبما تقرره الشرائع عن هذا اليوم .

ولهذا ، فإن علم هؤلاء الذين لا يقوم علمهم من وراء الإيمان ، هو علم مضطرب ، غير مستقر ، تتوارد عليه الخواطر المختلفة ، التى لا تدع له فرصة للاستقرار على وجه من الوجوه . . فهم على علم متدارك ينسخ بعضه بعضا .

والمجموعة الثانية . . هى التى انتهى بها هذا العلم العقلى المجرد إلى أودية الضلال والتيه ، فلم يروا إلا أوهاما وخيالات . . فهم فى شك من هذا اليوم .

والمجموعة الثالثة . . هى التى لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تفتح قلبها للإيمان

---

(١) سورة النمل الآية : ٣٦

والتسليم . . هى هذا الصنف من الناس الذين يعيشون كما يعيش الأنعام بلا عقل ، ولا قلب ! . .
﴿ بل هم منها عمون ﴾ !

الحاجة إلى إرسال الرسل مع سوق بعض الأدلة على صدق الرسول :

قوله تعالى : وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

المفردات : ﴿ **الشاهدين** ﴾ الحاضرين ﴿ **قرونا** ﴾ أمما ﴿ **فتطاول عليهم العمر** ﴾ أى: طال عمرهم ﴿ **ثاويا** ﴾ مقيما يقال ثوى بالمكان يثوى به أقام ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك** ﴾ المراد فإن لم يفعلوا ﴿ **تظاهرا** ﴾ تعاونا ﴿ **وصلنا لهم القول** ﴾ اتبعنا بعضه بعضا من الإنزال ليتصل التذكير .

وهذا لون من العبرة بقصة موسى ، ونتيجة عامة لسوقها ، إذ هى من الأدلة على صدق الرسول حيث قص أخبارا صادقة عن قوم لم يشهدهم ولم يكن معهم ، ولم ترد له أخبارهم ، فلم يبق إلا الوحى مصدرا لهذا كله ، وفى ذلك عبرة وعظة ، ودليل على صدق النبى - ﷺ - وهذا أيضا شروع فى بيان أن إنزال القرآن الكريم جاء فى زمن ، الحاجة فيه ماسة وداعية إليه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة تنبيه وإخبار منه تعالى على نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى : ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾[1] الآية أى وما كنت حاضرا لذلك ولكن الله أوحاه إليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ثم قال تعالى : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ الآية . وقال فى آخر السورة : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك** ﴾[2] وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ **الآية وقال فى سورة طه** ﴿ **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق** ﴾[3] الآية وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له ﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾ يعنى ما كنت يامحمد بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى ﴿ **وما كنت من الشاهدين** ﴾ لذلك ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا** ﴾ أى:مقيما فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾[4] الخ القصة .

قوله تعالى : ﴿ **ولكنا كنا مرسلين** ﴾ أى ولكنا أوحينا إليك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا وقوله تعالى : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ أى إذ نادينا موسى كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وأذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا** ﴾ .[5] وكما قال جل شأنه ؛﴿ **وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين** ﴾[6] وقال : ﴿ **هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى** ﴾[7] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٤٤
(٢) سورة هود الآية : ١٠٠
(٣) سورة طه الآية : ٩٩
(٤) سورة هود الآيات : ٨٤ ـ ٨٦
(٥) سورة مريم الآيتان : ٥١ ، ٥٢
(٦) سورة الشعراء الآية : ١٠
(٧) سورة النازعات الآيتان : ١٥ ، ١٦

وقال أبو عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه أخبرنا على بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن على بن مدرك عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ قال نودوا أن ياأمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى وأجبتكم قبل أن تدعونى . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت .

قوله تعالى : ﴿ **ولكن رحمة من ربك** ﴾ أى:ولكن الله تعالى أنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . وقوله تعالى : ﴿ **لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ﴾ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل لعلهم يتذكرون ويهتدون .

﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[1] .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا** ﴾[2] .

﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[3]

قوله تعالى : ﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين** ﴾[4] قال الإمام ابن القيم : فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وهذا صريح فى أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة ، بحيث استحقوا أن يصابوا بها بالمصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل . وهذا هو فصل الخطاب .

وتحقيق القول فى هذا الأصل العظيم ، إن القبح ثابت للفعل فى نفسه ، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد اقامة الحجة بالرسالة . وهذه النكتة هى التى فاتت المعتزلة والكلابية كليهما ، فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى ، لعدم جمعها بين هذين الامرين ! فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل ، وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلى . وأحسنوا فى رد ذلك عليهم .

واستطالت المعتزلة عليهم فى إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة ، وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح ، واستواء الأفعال فى أنفسها وأحسنوا فى رد هذا عليهم .

فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب . وأما من سلك هذا المسلك الذى سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ، ولا الظفر عليه أصلا ، فإنه لوافق لكل طائفة على

---

(١) سورة الفرقان الآية : ١
(٢) سورة الفتح الآية : ٢٨
(٣) سورة سبأ الآية : ٢٨
(٤) سورة القصص : آية ٤٧

ما معها من الحق مقرر له . مخالف لها فى باطنها منكر له .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾[١] أى وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾[٤] الآية . والآيات فى هذا كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والالحاد : ﴿ لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ﴾ الآية . يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله تعالى على يدى موسى ـ عليه السلام ـ حجة وبرهانا له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه بل كفروا بموسى وأخيه هارون كما قالوا لهما : ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾[٦] ولهذا قال ها هنا : ﴿ أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ﴾ أى : أولم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ أى : تعاونا ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أى : بكل منهما كافرون ، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر :

فما أدرى إذا يممت أرضا ... أريد الخير أيهما يلينى

أى : فما أدرى يلينى الخير أو الشر . قال مجاهد : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك فقال الله : ﴿ أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا ﴾ قال يعنى موسى وهارون صلى

---

(١) تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٤ / ٢٥١
(٢) سورة الأنعام الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧
(٣) سورة النساء الآية : ١٦٥
(٤) سورة المائدة الآية : ١٩
(٥) سورة يونس الآية : ٧٨
(٦) سورة المؤمنون الآية : ٤٨

الله عليهما وسلم (تظاهرا) أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين فى قوله : (ساحران) يعنون موسى وهارون وهذا قول جيد قوى والله أعلم ، وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس : (قالوا ساحران تظاهرا) قال : يعنون موسى ومحمدا ﷺ وهذه رواية الحسن البصرى . وقال الحسن وقتادة : يعنى عيسى ومحمد ﷺ وهذا فيه بعد لأن عيسى لم يجر له ذكرهنا والله أعلم . وأما من قرأ (سحران تظاهرا) فقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندى والسدى وعبد الرحمن بن يزيد بن أسلم قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر وقال عكرمة : يعنون التوراة والانجيل وهو رواية عن أبى زرعة واختاره إبن جرير . قال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب والظاهر على قراءة (سحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن لانه قال بعده : ﴿ **قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه** ﴾ وكثيرا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما فى قوله تعالى : ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس (إلى أن قال) وهذا كتاب أنزلناه مبارك** ﴾[٢] وقال فى آخر السورة : ﴿ **ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن** ﴾[٣] الآية وقال : ﴿ **وهذا كتاب أنزلنا مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون** ﴾[٤] وقالت الجن : ﴿ **إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه** ﴾[٥] وقال ورقة ابن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ وهو الكتاب الذى قال الله فيه : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** ﴾ والإنجيل إنما أنزل متمما للتوراة ومحلا لبعض ما حرم على بنى إسرائيل ولهذا قال تعالى : ﴿ **قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين** ﴾[٦] .

أى : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك** ﴾ **أى فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق** ﴿ **فاعلم أنما يتبعون أهواءهم** ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ أى : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ **إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ولقد وصلنا لهم القول** ﴾ قال مجاهد فصلنا لهم القول . وقال السدى بينا لهم القول ، وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ قال مجاهد وغيره : (وصلنا لهم) يعنى قريشا وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن

---

(١) تفسير الطبرى ٢٠/ ٥٣ .
(٢) سورة الانعام الآيتان : ٩١ ، ٩٢
(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٤
(٤) سورة الأنعام الآية : ١٥٥
(٥) سورة الأحقاف الآية : ٣٠
(٦) سورة المائدة الآية : ٤٤

سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعة - رفاعة هذا هو ابن قرظة القرظى - وجعله ابن مندة : رفاعة بن شموال خال صفية بنت حيى وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير - قال : نزلت ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن ابى حاتم من حديثه .

المؤمنون من أهل الكتاب

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

المفردات : ﴿ ويدرأون ﴾ يدفعون يقال درأ عنه كذا أى دفع ﴿ اللغو ﴾ هو ما لا يعتد به من القول أو ما كان فيه أذى من شتم أو سب ﴿ لا نبتغى الجاهلين ﴾ لا نطلب صحبتهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه ، وموافقته لما فى كتبهم من وصف ، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

قال سعيد بن جبير . نزلت هذه الآية فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ فلما ندموا عليه قرأ عليهم ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا .

التفسير

وهذا هو الصنف الذى فى قلبه ميل إلى الخير ، وفى نفسه استعداد لقبول الطيب من الدعوات ، وهم جماعة من أهل الكتاب آمنوا بنبيهم ، ولم يحرفوا كلمهم وبشارة كتبهم بالنبى العربى فهم قد آمنوا به أولا بظهر الغيب ثم آمنوا به ثانيا إيمان مشاهدة وإقرار بما سبق ، وإذا يتلى على هؤلاء القرآن قالوا : آمنا به وصدقناه وصدقنا من جاء على لسانه ، وكأن سائلا سأل وقال لم هذا ؟ فأجابوا إنه الحق من ربنا نعم إنه كلامه الحق الذى لا شك فيه ، ونحن أدرى به من غيرنا ، إنا كنا من قبل نزوله مسلمين ومنقادين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا مرة لإيمانهم بكتابهم ونبيهم ومرة لإيمانهم بالقرآن

والنبى ، وصبرهم على ذلك كله ، وهم يدرأون بالحسنة السيئة ، ويدفعون الشر بالخير وينفقون مما رزقناهم فى سبيل الله .

وإذا سمعوا لغوا من قول المشركين أو أصابهم أذى منهم ، أعرضوا عنهم ، وقالوا لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم سلام ترك وموادعة ، نحن لا نبتغى الجاهلين ، ولا نطلب مصاحبتهم .

رد على بعض مزاعم المشركين

قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

المفردات

الهداية : تارة يراد بها الدعوة والارشاد إلى طريق الخير وهى التى أثبتها الله لرسوله فى قوله : ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب كما جاء فى قوله : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا** ﴾ وهى بهذا المعنى نفيت عن رسول الله ﷺ فى هذه الآية . يجبى إليه : أى يجمع إليه ، يقال جبى الماء فى الحوض : أى جمعه ، والجابية : الحوض العظيم . والخطف : الانتزاع بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد . ونتخطف من أرضنا : ننتزع منها بسرعة . أو لم نمكن لهم حرما آمنا . نجعل مكانهم حرما ذا أمن ـ بطرت معيشتها أى: بغت وتجبرت ولم تحفظ الله . وأمها أكبرها وأعظمها وهى أصلها وعاصمتها ، من

المحضرين : أى الذين يحضرون للعذاب وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال ﴿ **لكنت من المحضرين** ﴾ وقال : ﴿ **إنهم لمحضرون** ﴾ لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والالزام ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس المكاره والمضار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطه وينصره ويقوم فى صفه ويحبه حبا شديدا طبعيا لا شرعيا . فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الايمان والدخول فى الاسلام ، فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة التامة .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب بن حزن المخزومى - رضى الله عنه - قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده ابا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ (**ياعم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : ياأبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)[1] فأنزل الله تعالى : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى** ﴾ وأنزل فى أبى طالب : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ هكذا رواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : (**ياعماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة**) فقال : لولا أن تعيرنى بها قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك لا أقولها إلا لأقر بها عينك)[2] فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت** ﴾ يدل دلالة صادقة وقاطعة على مدى المسئولية الفردية قال تعالى : ﴿ **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾[3] وقال - عز وجل - ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** ﴾[4] وها هو ذا نبى الله نوح يدعو ابنه إلى النجاة فيأبى قال تعالى : ﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾[5] وتأخذ الرأفة قلب نوح

---

(١) أخرجه البخارى - باب قصة أبى طالب ٥ / ٦٥ - ٦٦
ومسلم - كتاب الايمان - باب أول الايمان قوله لا إله إلا الله ١ / ٥٤ رقم ٢٤

(٢) أخرجه مسلم - فى كتاب الايمان - باب أول الايمان قول لا إله إلا الله ١ / ٥٥ رقم ٢٥
والترمذى فى سننه كتاب تفسير القرآن - باب تفسير سورة القصص ٥ / ٣٤١ رقم ٣١٨٨

(٣) سورة النحل الآية : ١١١

(٤) سورة فاطر الآية : ١٨

(٥) سورة هود الآيتان : ٤٢ - ٤٣

وتملك عليه الرحمة جنبات نفسه وتعتلج لواعج الشوق فى فؤاده فينادى ربه : ﴿ رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾[١] فبم أجابه العلى الأعلى جل جلاله ؟ ﴿ قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾[٢].

وها هو ذا نبى الله ابراهيم يدعو أباه إلى الايمان بالله وحده ، فيقول له آزر : ﴿ أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾[٣] ثم يعده بالاستغفار له فيقول : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إن كان بى حفيا ﴾[٤]. ويبر إبراهيم بوعده مع أبيه فيدعو ربه ويقول : ﴿ واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾[٥].

ثم يأتى فصل الخطاب فى قوله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[٦]. نعم ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ . ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ . . وكان رسول الله ﷺ إذا رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل يقول : ﴿ سبحان الله يخرج الحى من الميت ﴾

إذا طاب أصل الشىء طابت فروعه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد
وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله ليظهر فعل الله فى العكس والطرد

قوله تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ لقد أبطل القرآن حجج هؤلاء المعاندين الذين قالوا لرسول الله ﷺ إننا نخاف إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا ما كان عليه الآباء وخرجنا على مألوف الاجداد ـ لو قلنا ذلك لحاربنا هؤلاء وأولئك وتخطفونا من أرضنا . فأبطل الله تعالى قولهم هذا بقوله : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا ﴾ قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[٨].

---

(١) سورة هود الآية : ٤٥
(٢) سورة هود الآيتان : ٤٦ ، ٤٧
(٣) سورة مريم الآية : ٤٦
(٤) سورة مريم الآية : ٤٧
(٥) سورة الشعراء الآية : ٨٦
(٦) سورة التوبة الآية : ١١٤
(٧) سورة التحريم الآيتان : ١٠ ، ١١
(٨) سورة العنكبوت الآية : ٦٧

ومن نعم الله على هذا الحرم الآمن المطمئن أن يجبى إليه ثمرات كل شيء استجابة لدعوة الخليل ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] وقد أصبحت فاكهة الشام تؤكل رطبة فى أرض الحجاز ﴿ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فمن الذى يرزق إلا الله ؟ ومن الذى يجود بالكرم ويهب النعم إلا الله ولكن أكثرهم لا يعلمون أن شكر المنعم واجب فهم معرضون .

قوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين** ﴾ : وهنا إخبار منه تعالى عن كثرة إهلاكه للقرى الطاغية الباغية الظالمة التى بدلت نعمة الله كفرا كما قال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾[2] وكما قال تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا** ﴾[3].

ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لا يهلك أحدا إلا بعد الانذار وقيام الحجة بإرسال الرسل فقال : ﴿ **وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا** ﴾ أى : وما كانت سنته فى عباده أن يهلك القرى حتى يبعث فى كبراها رسولا يتلو عليهم الآيات الناطقة بالحق ، ويدعوهم إليه بالترغيب حينا والترهيب حينا آخر فيكون ذلك أدعى إلى إلزام الحجة وقطع المعذرة . وإنما كان البعث فى أم القرى لأن فى أهلها فطنة وكياسة ، فهم أقبل للدعوة وأعرف بمواقع الحق إلى أن الرسول يبعث للأشراف كما يرسل إلى العامة ، وهم يسكنون المدائن وهى ام ما حولها . ونحو الآية قوله : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ .[4]

ثم بين أنه لا يهلك القرى بعد إرسال الرسل إلا إذا ظلموا أنفسهم وكذبوا رسلهم فقال : ﴿ **وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ أى : ولا نهلك القرى التى نبعث فيها الرسل الذين يدعونهم إلى الحق ، ويرشدونهم إلى سبيل السداد إلا إذا ظلموا بتكذيب الرسول وكفروا بالآيات ، فلا نهلك قرية بإيمان ، ولكن نهلكها بظلمها واجترامها المعاصى وارتكابها الآثام ، وقوله : بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ **وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون** ﴾ .

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٧
(٢) سورة النحل الآيتان : ١١٢ ، ١١٣
(٣) سورة الاسراء الآيتان : ١٦ ، ١٧
(٤) سورة الاسراء الآية : ١٥

قال رسول الله ﷺ (والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر ماذا يرجع إليه) .[١]

وكان رسول الله ﷺ يقول لابن عمر : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور) .

ومهما أوتى الانسان من شىء فى هذه الدنيا فهو متاع إلى زوال ، قال تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾[٢] وقال : ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾[٣] وقال : ﴿ **وما عند الله خير للأبرار** ﴾[٤] وقال : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾[٥] وقال : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾[٦]

وقال تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .[٧]

وقال تعالى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** ﴾[٨] . فيا بن آدم جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير وخفف الحمل فإن العقبة كئود .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ... ألفا من الأعوام مالك أمره
متنعما فيها بكل نفيسة ... متلذذا فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة ... كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى ... بمبيت أول ليلة فى قبره

قال عمر بن عبد العزيز للحسن البصرى : ياتقى الدين عظنا وأوجز . قال : ياأمير المؤمنين صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أى أجننتم فلا تعقلون ؟ يامن تؤثرون الفانية على الباقية والعاجلة على الآخرة :

دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد ياغافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال

(١) مسلم - كتاب الجنة - باب فناء الدنيا
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٤
(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨٥
(٤) سورة آل عمران الآية : ١٩٨
(٥) سورة النحل الآية : ٩٦
(٦) سورة الاسراء الآيات : ١٨ - ٢١
(٧) سورة الحديد الآيتان : ٢٠ ، ٢١
(٨) سورة الأعلى الآيتان : ١٦ ، ١٧
تفسير الطبرى ٢٠ / ٦٢

قوله تعالى : ﴿ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ :

يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذاب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياما قلائل ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة وهذا كقوله تعالى إخبارا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات فقال : ﴿ ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ﴾

بعض مواقف المشركين يوم القيامة

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

المفردات

حق عليهم القول : ثبت ووجب يقال : حق يحق ويحق ثبت ، أغوينا : أى أضللنا يقال : غوى يغوى ضل . فعميت عليهم الأنباء : أى صارت كالعمى لا تهتدى إليهم ، واصل التركيب فعموا عن الأنباء ثم حصل قلب وهذا مألوف فى اللغة العربية .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ان التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على نعمه ـ يكون وبالا على الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب ـ اردف ذلك ببيان ما يحصل فى هذا اليوم من الاهانة والتقريع للمشركين حين يسألهم سؤالات يحارون فى الجواب عنها ، ويشتد عليهم الخطب حين لا يجدون مخلصا ومعذرة تبرر لهم ما كانوا يقترفون ، فيسألهم أولا عن الآلهة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا من أصنام وأوثان ، هل ينصرونهم أو ينتصرون ؟ ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم ردا ، ثم يسألهم

عما أجابوا به الرسل حين دعوهم إلى الايمان بربهم ، فتخفى عليهم الحجج التى تنجيهم من العذاب الذى لا مفر لهم منه ، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضا عما يلقنه من حجة لهول الموقف واشتداد الخطب ثم ذكر بعدئذ حال المؤمنين بربهم الذين عملوا صالح الاعمال وبين أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلا من ربهم ورحمة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ هذا سؤال توبيخ وتقريع لهؤلاء الذين اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم والزعم مطية الكذب فهم كاذبون فيما اشركوا به قال تعالى : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾[١] فالكون كله يهتف بوحدانية الله ، ويقر بكماله ويسبح بجلاله ويعلن بذكره ولا يغفل عن شكره قال تعالى لهؤلاء الضالين : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٢] فاسألوا الكائنات عن خالقها تخبركم بلسان الحال والمقال بأنه : ﴿ الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٣] . اسألوا الكون كله ينبئكم الخبر ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذ لكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ . وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحى إلى من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾[٤] .

فسبحان من خشعت له الأصوات وعنت له الوجوه وهو الحى القيوم . الذى يحيى العظام وهى رميم وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . هو الواحد فى ذاته لا قسيم له . الواحد فى صفاته لا شبيه له الواحد فى أفعاله لا شريك له .

---

(١) سورة الانعام الآية : ٢٤
(٢) سورة الانعام الآية : ٩٤
(٣) سورة الحشر الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٤) سورة الأنعام الآيات : ٩٥ - ١٠٦

قال تعالى : ﴿ **قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾ . أى : **قال رؤساء الضلال والدعاة إلى الكفر الذين حق عليهم غضب الله ، ولزمهم الوعيد بقوله :**

﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾(١) فدخلوا النار - قالوا - : ربنا إن هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم ، أغويناهم باختيارهم كما غوينا نحن كذلك ، ولم يكن منا لهم إلا الوسوسة والتسويل لا القسر والإلجاء ، فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال .

وخلاصة ذلك : أن تبعة غيهم واقعة عليهم لا علينا ، إذ لم نلجئهم إلى ذلك ، بل كان منا مجرد الوسوسة فحسب ، فإن كان تسويلنا لهم داعيا إلى الكفر ، فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم إلى الايمان ، بما وضع من الأدلة العقلية ، وبعث إليهم من الرسل ، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر ، داعيا إلى الايمان .

وصدق الله - تعالى - إذ يقول فى شأن هؤلاء :

﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** ﴾(٢)

وقال - تعالى - : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾(٣) .

وقال الخليل - عليه السلام - لقومه : ﴿ **إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾(٤) .

وقال الله - تعالى- : ﴿ **إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار** ﴾(٥) .

ولهذا قال : ﴿ **وقيل ادعوا شركاءكم** ﴾ أى : ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ﴿ **فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب** ﴾ أى : وتيقنوا انهم صائرون إلى النار لا محالة .

وقوله : ﴿ **لو أنهم كانوا يهتدون** ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا ، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿ **ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا** ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين** ﴾(٧) النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأل العبد فى قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد انه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده

---

(١) من الآية : ١١٩ من سورة هود .
(٢) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة مريم .
(٣) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .
(٤) الآية : ٢٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧ من سورة البقرة .
(٦) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الكهف .
(٧) الآية : ٦٥ من سورة القصص

ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه ؟ لا أدرى ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال ـ تعالى ﴿ **فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون** ﴾[١] قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب ، وقوله : ﴿ **فأما من تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ **فعسى ان يكون من المفلحين** ﴾[٢] أى : يوم القيامة ، و (عسى) من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

كلمة فى التوبة

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله ـ تعالى ـ لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : ان يقلع عن المعصية .

والثانى : ان يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبدا .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحل منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته ـ عند أهل الحق ـ من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى . وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[٣] .

وقال ـ تعالى ـ ﴿ **استغفروا ربكم ثم توبوا إليه** ﴾[٤] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾[٥] .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة)[٦] رواه البخارى .

وعن الأغر بن يسار المزنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (يا أيها الناس : توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة) رواه مسلم[٧] .

---

(١) الآية : ٦٦ من سورة القصص .
(٢) الآية : ٦٧ من سورة القصص .
(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .
(٤) من الآية : ٣ من سورة هود .
(٥) من الآية : ٨ من سورة التحريم .
(٦) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الدعوات) باب استغفار النبى ﷺ فى اليوم والليلة جـ٨ ص ٨٣ .
(٧) الحديث اخرجه مسلم فى صحيحه ، فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه جـ٤ ص ٢٠٧٥ ، ٢٠٧٦ رقم ٤٢/ ٢٧٠٢

وعن أبى حمزة انس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد اضله فى أرض فلاة) . متفق عليه[١] .

وفى رواية لمسلم (لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح)[٢].

وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى - رضى الله عنه عن النبى ﷺ - قال : (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) . رواه مسلم[٣] .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) رواه مسلم[٤] .

وعن أبى عبدالرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : (إن الله - عز وجل - يقبل توبة العبد ما لم يغرغر - أى : تصل الروح حلقومه)[٥] . رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن ذر بن حبيش قال : أتيت صفوان بن عسال - رضى الله عنه - أسأله عن المسح على الخفين فقال : ما جاء بك ياذر ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : (إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب . فقلت : إنه قد حك فى صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنت امرأ من أصحاب النبى ﷺ فجئت اسألك : هل سمعته يذكر فى ذلك شيئا ، قال : نعم ، كان يأمرنا إذا كنا سفرا - أو مسافرين - ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة ، لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعته يذكر فى الهوى شيئا ؟ قال : نعم ، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابى بصوت له جهورى : يا محمد ؟ فأجابه رسول الله ﷺ نحوا من صوته هاؤم (أى : خذ) فقلت له : ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبى ﷺ وقد نهيت عن هذا ! فقال : والله لا أغضض .

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب التوبة) باب فى الحض على التوبة والفرح بها ص ٧٤٧ رقم ١٨٤٨ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب فى الحض على التوبة والفرح بها جـ٤ ص ٢١٠٤ رقم ٧ / ٢٧٤٧

(٣) اخرجه مسلم فى صحيحه ، فى (كتاب التوبة) باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة جـ٤ ص ٢١١٣ رقم ٣١ / ٢٧٥٩

(٤) الحديث فى صحيح مسلم فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه جـ٤ ص ٢٠٧٦ رقم ٤٣ / ٢٧٠٣

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى (أبواب الدعوات) جـ٥ ص ٢٠٧ رقم ٣٦٠٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

قال الأعرابى : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال النبى ﷺ : (المرء مع من أحب يوم القيامة) . فما زال يحدثنا حتى ذكر بابا من المغرب مسيرة عرضه - أو يسير الراكب فى عرضه - أربعين أو سبعين عاما . قال سفيان أحد الرواة : (قبل الشام ، خلقه الله - تعالى - يوم خلق السموات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه)[١] رواه الترمذى وغيره وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى - رضى الله عنه - أن نبى الله ﷺ قال : (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب ، فأتاه فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله - تعالى - فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم - أى : حكما - فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة)[٢] متفق عليه . وفى رواية فى الصحيح : (فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها) .

وفى رواية فى الصحيح : (فأوحى الله تعالى إلى هذه ان تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له) وفى رواية : فنأى بصدره نحوها .

وعن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب - رضى الله عنه - من بنيه حين عمى قال : سمعت كعب بن مالك - رضى الله عنه - يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك . قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله - تعالى - بينهم وبين عدوهم بغير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام . وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها . وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها (أى : أوهم انه يريد غيرها)

---

(١) الحديث اخرجه الترمذى فى (أبواب الدعوات) باب ما جاء فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده جـ٥ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ رقم ٣٦٠٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب التوبة) باب قبول توبة القاتل وان كثر قتله ص ٧٥٢ رقم ١٧٦٠ مع اختلاف فى اللفظ تتفق مع الرواية الثالثة فى الصحيح .

حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا ، واستقبل عدوا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان) قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحى من الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أعدو لكى أتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئا وأقول ـ فى نفسى ـ : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى فعلت !! ثم لم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى لى أسوة ، إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله ـ تعالى ـ من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه . فقال له معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ: بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ، فسكت رسول الله ﷺ فبينا هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون . قال كعب : فلما بلغنى ان رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدا ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى ـ حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعالى ، فجئت أمشى ، حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال : قلت : يا رسول الله انى ـ والله ـ لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت انى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد اعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله يسخطك على ، وإن حدثتك حديث صدق تجد على فيه ، إنى لأرجو فيه عقبى الله ـ عز وجل ـ والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك قال : فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك . وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ، لقد عجزت فى الا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله مازالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى من أحد ؟ قالوا : نعم :

لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قال : قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة ابن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى .

قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله - ﷺ - عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه ، قال : فاجتنبنا الناس - أو قال : تغيروا لنا - حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان . وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة - وهو ابن عمى وأحب الناس إلى - فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة : أنشدك بالله : هل تعلمنى أحب الله ورسوله - ﷺ - فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت ، فعدت فناشدته . فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة اذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى ، فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا . فقرأته ، فإذا فيه : أما بعد : فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى اذا رسول رسول الله - ﷺ - يأتينى فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها ، وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له . . يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنك ، فقالت : إنه - والله - ما به من حركة إلى شىء ، ووالله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك ؟ فقد اذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا : قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء فرج ، فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله - عز وجل - علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا .

فذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلىّ رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلى وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئوننى بالتوبة ، ويقولون لى : لتهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله ـ رضى الله عنه ـ يهرول حتى صافحنى وهنأنى .

والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله عز وجل ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله : إن من توبتى أن أنخلع (أخرج) من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . فقلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يا رسول الله إن الله ـ تعالى ـ إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى الا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فو الله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله ـ تعالى ـ فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله ـ تعالى ـ فيما بقى ، قال : فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾[١] . حتى بلغ : ﴿ **إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** ﴾[٢] حتى بلغ : ﴿ **اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[٣] قال كعب : والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للاسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ الا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله ـ تعالى ـ قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، فقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾[٤] قال كعب : كنا خلفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ـ ﷺ ـ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله ـ تعالى ـ فيه بذلك . قال الله ـ تعالى ـ ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ (وليس الذى ذكر مما خلفنا تخلفنا ـ عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه)[٥].

---

(١) من الآية : ١١٧ من سورة التوبة .
(٢) من الآية : ١١٧ ومن الآية ١١٨ من سورة التوبة .
(٣) من الآية : ١١٩ من سورة التوبة .
(٤) الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .
(٥) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب التوبة) باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ص ٧٥٤ ـ ٧٦٢ رقم ١٧٦٢ مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ .

متفق عليه . وفى رواية (ان النبى ﷺ خرج فى غزوة تبوك يوم الخميس ، وكان يحب ان يخرج يوم الخميس)فى رواية : (وكان لا يقدم من سفر إلا نهارا فى الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه) .

وعن أبى نجيد عمران بن الحصين الخزاعى ـ رضى الله عنهما ـ أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله : أصبت حدا فأقمه على ، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال : (أحسن إليها ، فإذا وضعت فائتنى ، ففعل ، فأمر بها نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال : ثم تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟) رواه مسلم (١) .

وعن ابن عباس وانس بن مالك ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ قال : (لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب) متفق عليه .) (٢) .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (يضحك الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ، يقاتل هذا فى سبيل الله فيقتل ، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد) متفق عليه(٣) .

من دلائل التوحيد

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ

(١) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الحدود) باب من اعترف على نفسه بالزنا جـ٣ ص ١٣٢٤ رقم ٢٤ / ١٦٩٦ .

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب : لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا ص ٢٢١ برقمى ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الامارة) باب : بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة . ص ٤٩٤ رقم ١٢٣٨ .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

المفردات :

(**الخيرة**) أى : **الاختيار** . (**تكن**) : **تخفى** (**سرمدا**) **دائما** ، مأخوذ من السرد ، وهو المتابعة . (تسكنون فيه) : تهدأون فيه وتستريحون . (ونزعنا) : أخرجنا (وضل عنهم) : تاه

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وبخهم فيما سلف على اتخاذهم الشركاء ، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكما بهم وتقريعا لهم ، أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ما أشركوه ، واصطفائهم إياه للعبادة ، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض ، واصطفاءه على غيره من حق الله لا من حقكم أنتم ، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتموهم للعبادة والشفاعة ، فما أنتم إلا جهال ضلال .

وبعد ان ذكر ـ سبحانه ـ انه المستحق للحمد على ما أولاه من النعم ، وتفضل به من المن ، أردف هذا تفصيل ما يجب ان يحمد عليه منها ، ولا يقدر عليه سواه .

وبعد ان وبخ المشركين اولا على فساد رأيهم فى اتخاذ الشركاء لله ، ثم ذكر التوحيد ودلائله ـ عاد إلى تقريعهم وتبكيتهم ثانيا ببيان أن اشراكهم لم يكن عن دليل صحيح ، بل كان عن محض الهوى ، كما يرشد إلى ذلك قوله : (قل هاتوا برهانكم) .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾** .

يخبر الله ـ تعالى ـ أنه المنفرد بالخلق والاختيار وما سوى الله لا يخلق شيئا ، بل هو المخلوق ، ولا يختار ، لأن ارادة الله فوق كل ارادة ، فهو إذا أراد قضى المراد ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وإذا قضى امرا فإنما يقول له : كن فيكون **﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾**[1] . ويقول ـ سبحانه :ـ **﴿ قل أغير الله**

---

(١) الآيات : من ١٣ ـ ١٨ من سورة الأنعام .

أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[١] .

ويقول ـ سبحانه ـ: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾[٢] . ولما كان ـ سبحانه ـ هو المنفرد بالخلق والاختيار جاء تذييل الآية تنزيها من الشرك (سبحان الله وتعالى عما يشركون) وليس هذا الانفراد بالخلق والاختيار عبثا ـ تعالى الله عن ذلك ـ: انما هو مبنى على العلم الشامل والحكمة البالغة . قال ـ تعالى ـ: ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ فاللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . سبحانه : علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾[٣] .

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٤] .

إذا علمت ذلك ـ أيها المؤمن ـ فاطلب الخيرة من الله ، واعلم أن هناك صلاة تسمى صلاة الاستخارة ، واليك بيانها .

صلاة الاستخارة

يسن لمن أراد أمرا من الأمور المباحة ، والتبس عليه وجه الخير فيه ، أن يصلى ركعتين من غير الفريضة ، ولو كانتا من السنن الراتبة ، أو تحية المسجد ، فى أى وقت من الليل أو النهار ، يقرأ فيهما بما شاء بعد الفاتحة ، ثم يحمد الله ويصلى على نبيه ﷺ ثم يدعو بالدعاء الذى رواه البخارى من حديث جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : (إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال : عاجل أمرى وآجله ـ فاقدره لى ، ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم

---

(١) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .
(٢) الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب
(٣) الآية : ٧ من سورة المجادلة .
(٤) الآية : ٥٩ من سورة الأنعام .

أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال : عاجل أمرى وآجله ـ فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم أرضنى به)[١] قال : ويسمى حاجته ، أى : يسمى حاجته عند قوله : (اللهم إن كان هذا الأمر) .

ولم يصح فى القراءة فيها شىء مخصوص ، كما لم يصح شىء فى استحباب تكرارها . قال النووى : ينبغى ان يفعل بعد الاستخارة ما ينشرح له ، فلا ينبغى أن يعتمد على انشراح كان فيه هوى قبل الاستخارة ، بل ينبغى للمستخير ترك اختياره رأسا ، وإلا فلا يكون مستخيرا لله ، بل يكون غير صادق فى طلب الخيرة وفى التبرى من العلم والقدرة واثباتها لله ـ تعالى ـ فإذا صدق فى ذلك تبرأ من الحول والقوة ومن اختياره لنفسه .

أساس كل خير

أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها . وتتضرع إليه الا يقطعها عنك ، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته ، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها ، ولا يكلك فى فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك .

وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد . وكل شر فأصله خذلانه لعبده . وأجمعوا أن التوفيق الا يكلك الله إلى نفسك وأن الخذلان هو أن يخلى بينك وبين نفسك ، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجوء والرغبة والرهبة إليه . فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له ، ومتى أضله عن المفتاح بقى باب الخير مرتجا دونه .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الاجابة معه ، وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته فى ذلك يكون توفيقه ـ سبحانه ـ واعانته ، فالمعونة من الله تتنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم . والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك ، فالله ـ سبحانه أحكم الحاكمين ، وأعلم العالمين ، يضع التوفيق فى مواضعه اللائقة به ، والخذلان فى مواضعه اللائقة به ، وهو العليم الحكيم .

وما أتى من أتى إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء . ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء . وملاك ذلك : الصبر ، فإنه من الايمان بمنزلة

---

(١) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصلاة) باب التطوع مثنى مثنى جـ٢ ص ٧٠ وفى جـ ٨ ص ١٠١ فى (كتاب الدعوات) باب الدعاء عند الاستخارة .
ورواه احمد جـ ٣ ص ٣٤٤ وانظر الترمذى (كتاب ابواب التطوع) باب ما جاء فى صلاة الاستخارة جـ١ ص ٢٩٨ رقم ٤٧٨
وابو داود (كتاب الصلاة) باب : فى الاستخارة جـ ٢ ص ١٨٧ رقم ١٥٣٨ .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها) جـ١ ص ٤٤٠ رقم ١٣٨٣

الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد .

وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله . خلقت النار لإذابة القلوب القاسية . أبعد القلوب من الله القلب القاسى . إذا قسا القلب قحطت العين .

قسوة القلب من أربعة أشياء : إذا جاوزت قدر حاجة الأكل ، والنوم ، والكلام ، والمخالطة . كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب . فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ .

من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته ـ القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها . القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها . شغلوا قلوبهم بالدنيا ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت فى معانى كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفوائد ـ إذا غذى القلب بالتذكر وسقى بالتفكر ونقى من الدغل رأى العجائب ، وألهم الحكمة .

ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها ، بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى ، وأما من قتل قلبه فأحيا الهوى فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه .

خراب القلب من الأمن والغفلة ، وعمارته من الخشية والذكر . إذا زهدت القلوب فى موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة ، واذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد . الشوق الى الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا ، من وطن قلبه عند ربه سكن وإستراح ، ومن أرسله فى الناس اضطرب واشتد به القلق .

لا تدخل محبة الله فى قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل فى سم الابرة . إذا أحب الله عبدا اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته واستخلصه لعبادته فشغل همه به ، ولسانه بذكره ، وجوارحه بخدمته . والقلب يمرض كما يمرض البدن ، وشفاؤه فى التوبة والحمية ، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر . ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى ، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن ، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والانابة والخدمة .

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلا ولأيامك وأنفاسك أمدا . ومن كل ماسواه بد ولابد لك منه ـ من طلب الاختيار والتدبير فى طلب زيادة دنيا أو جاه ، أو فى خوف نقصان ، أو فى التخلص من عدو توكلا على الله وثقة بتدبيره له ، وحسن اختياره له ، فألقى كنفه بين يديه ، وسلم الأمر إليه ، ورضى بما يقضيه له ، استراح من الهموم والغموم والأحزان ، ومن أبى إلا تدبيره لنفسه وقع فى النكد والنصب وسوء الحال والتعب ، فلا عيش يصفو ، ولا قلب يفرح ، ولا عمل يزكو ، ولا أمل يقوم ، ولا راحة تدوم .

والله ـ سبحانه ـ سهل لخلقه السبيل إليه ، وحجبهم عنه بالتدبير ، فمن رضى بتدبير الله له ، وسكن إلى اختياره ، وسلم لحكمه أزال ذلك الحجاب ، فأفضى القلب إلى ربه ، واطمأن إليه وسكن ـ المتوكل لا يسأل غير الله ، ولا يرد على الله ، ولا يدخر مع الله .

ومن شغل بنفسه شغل عن غيره . ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، الاخلاص هو ما لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا عدو فيفسده ، ولا يعجب به صاحبه فيبطله ـ الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام . الناس فى الدنيا معذبون على قدر همهم بها ـ للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع له : ثلاثة سافلة ، وثلاثة عالية ، فالسافلة ، دنيا تتزين له ، ونفس تحدثه ، وعدو يوسوس له . فهذه مواطن الأرواح السافلة التى لا تزال تجول فيها .

والثلاثة العالية : علم يتبين له ، وعقل يرشده ، وإله يعبده . والقلوب جوالة فى هذه المواطن .

اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد ، فإن اتباع الهوى يعمى عن الحق معرفة وقصدا . وطول الأمل ينسى الآخرة ويصد عن الاستعداد لها ـ لا يشم عبد رائحة الصدق ويداهن نفسه أو يداهن غيره ، اذا اراد الله بعبد خيرا جعله معترفا بذنبه ، ممسكا عن ذنب غيره . جوادا بما عنده ، زاهدا فيما عند غيره ، محتملا لأذى غيره ، وإن أراد به شرا عكس ذلك .

الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء :

تعرف لصفة من الصفات العليا ، تزداد بمعرفتها محبة وارادة ، وملاحظة لمنة تزداد بملاحظتها شكرا وطاعة ، وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية ، فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت فى اودية الوساوس والخطرات .

من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيرته من خدمها وعبيدها وأذلته ، ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته وذلت له .

إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل ، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده ؟!

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾ .

﴿ **وهو الله لا إله إلا هو** ﴾ أى : هو المنفرد بالالهية فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ **له الحمد فى الأولى والآخرة** ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته . ﴿ **وله الحكم** ﴾ أى : الذى لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة ، فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

ولما كانت كلمة التوحيد أساس العقيدة آثرنا أن نبين فضلها ، فقد قال رسول الله ﷺ لما قال له أبو هريرة :

(١) من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : (لقد ظننت يا أبا هريرة الا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه ـ أو نفسه ﴾[1] . رواه البخارى

---

(١) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ/ زروق (كتاب العلم) باب الحرص على الحديث .. جـ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ رقم ٣٧

(٢) وعن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل ـ زاد جنادة ـ: من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء)[١] رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم .

(٣) وفى رواية لمسلم والترمذى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار)[٢].

ومعنى حرم : أبعد عنه العقاب .

(٤) وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ ان النبى ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال : (يا معاذ بن جبل ؟) قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ـ ثلاثا ـ قال (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار) . قال : يا رسول الله افلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال :(إذا يتكلوا) وأخبر بها معاذ عند موته تأثما [٣] . رواه البخارى ومسلم .

معنى (تأثما) أى : تحرجا من الاثم ، وخوفا منه ان يلحقه إن كتمه (قال المملى) عبد العظيم : وقد ذهب طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الاطلاقات التى وردت فيمن قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، أو حرم الله عليه النار ، ونحو ذلك إنما كان فى ابتداء الاسلام ، حين كانت الدعوة إلى مجرد الاقرار بالتوحيد ، فلما فرضت الفرائض وحدت الحدود نسخ ذلك ، والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة ، وإلى هذا القول ذهب الضحاك ، والزهرى ، وسفيان الثورى ، وغيرهم . وقالت طائفة أخرى : لا احتياج إلى ادعاء النسخ فى ذلك ، فإن كل ما هو من أركان الدين وفرائض الاسلام هو من لوازم الاقرار بالشهادتين ، وتتماته ، فإذا أقر ثم امتنع عن شىء من الفرائض جحدا ، أو تهاونا ـ على تفصيل الخلاف فيه ـ حكمنا عليه بالكفر ، وعدم دخول الجنة ، وهذا القول أيضا قريب ، وقالت طائفة أخرى : التلفظ بكلمة التوحيد سبب يقتضى دخول الجنة والنجاة من النار ، بشرط ان يأتى بالفرائض ، ويجتنب الكبائر ، فإن لم يأت بالفرائض ولم يجتنب الكبائر لم يمنعه التلفظ بكلمة التوحيد من دخول النار ، وهذا قريب مما قبله ، أو هو هو ، وقد بسطنا الكلام على هذا ، والخلاف فيه فى غير ما موضع من كتبنا . والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم .

(٥) روى عن زيد بن ارقم ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال : لا إله إلا الله

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الايمان) باب : من لقى الله بالايمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ص ٧ رقم ١٧ .

وانظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الأنبياء) باب قولة تعالى : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم .. الخ جـ٦ ص ٤٢٣ رقم ١٠٧ .

(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا جـ١ ص ٥٧ ، ٥٨ رقم ٤٧ / ٢٩

(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، فى (كتاب الايمان) باب من لقى الله بالايمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ص ٨ رقم ٢٠

وانظر البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب العلم) باب : من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا .. الخ جـ١ ص ٣٠٧ رقم ٦٥

مخلصا دخل الجنة . قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله)[١] . رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفى الكبير إلا انه قال : (أن تحجزه عما حرم الله عليه) .
- ومعنى (تحجزه) أى : تمنعه وتبعده عن ارتكاب المعاصى وغشيان الفجور .

قوله تعالى : **﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلاتسمعون* قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾** .

إن الليل والنهار آيتان من آيات الله . قال - تعالى - **﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾**[٢] . وقد تحدى الله - تعالى - بهاتين الآيتين عباده الذين لم يحسنوا الظن به ، وظنوا أنهم قادرون على هذه الأرض ، وخاصة الجبابرة الذين ذكر القرآن نموذجين منهم فى هذه السورة (سورة القصص) : الفرعونية الحاكمة ، والقارونية الكانزة ، طاغوت الحكم ، وطاغوت المال ، ولقد كان هذا التحدى ومازال وسيظل قائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفى هاتين الآيتين امتنان من الله - تعالى - لعباده الشاكرين ، فيقول - تعالى - ممتنا على هؤلاء العباد بما سخر من الليل والنهار اللذين لا قوام لهما بدونهما وبين أنه لو جعل الليل دائما عليهم سرمدا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولسئمته النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال - تعالى - : **﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾** أى : تبصرون به وتستأنسون بسببه . **﴿ أفلا تسمعون ﴾** ؟ ثم أخبر - تعالى - أنه لو جعل النهار سرمدا ، أى : دائما مستمرا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ، ولهذا قال - تعالى - : **﴿ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾** أى : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم **﴿ أفلا تبصرون . ومن رحمته ﴾** أى : بكم **﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾** أى : خلق هذا وهذا **﴿ لتسكنوا فيه ﴾** أى : فى الليل **﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾** أى : فى النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال وهذا من باب اللف والنشر ، وقوله : **﴿ ولعلكم تشكرون ﴾** أى : تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شىء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال - تعالى - : **﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾**[٣] .

---

(١) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب الايمان) باب فيمن شهد ان لا إله إلا الله جـ١ ص ١٨ وقال الهيثمى: رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير إلا أنه قال فى الكبير : قال رسول الله ﷺ : (إخلاصه : ان تحجزه عما حرم الله عليه) ثم قال : وفى اسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو وضاع اهـ : مجمع

(٢) الآية : ١٢ من سورة الاسراء

(٣) الآية : ٦٢ من سورة الفرقان .

يقول الامام ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

خص - سبحانه - النهار بذكر البصر ، لأنه محله . وفيه سلطان البصر وتصرفه ، وخص الليل بذكر السمع ، لأن سلطان السمع يكون بالليل ، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع فى النهار ، لأنه وقت هدوء الأصوات ، وخمود الحركات ، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر ، والنهار بالعكس ، فيه قوة سلطان البصر ، وضعف سلطان السمع .

فقوله : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ راجع إلى قوله ﴿ قل أرأيتم ﴾ أى : إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم به ؟

وقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون . ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ .

وهذا أيضا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلها آخر يناديهم الله - تعالى - على رءوس الأشهاد فيقول : ﴿ أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ أى : فى دار الدنيا ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيدا ﴾ قال مجاهد : يعنى رسولا . ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ أى : على صحة ما ادعيتمره من أن لله شركاء ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ أى : لا إله غيره فلم ينطقوا ولم يحيروا جوابا ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعوهم .

قصة قارون

قوله تعالى :* إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ

لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

المفردات

﴿ **فبغى عليهم** ﴾ : تكبر عليهم ، أو ظلمهم ، ﴿ **الكنوز** ﴾ كنز المال : جمعه وادخره ، والكنز : المال المدفون ، وجمعه : كنوز ﴿ **لتنوء بالعصبة** ﴾ : لتثقل ، يقال : ناء به الحمل : ثقل عليه ، والعصبة الجماعة من الناس . ﴿ **وابتغ** ﴾ : اطلب . ﴿ **على علم عندى** ﴾ : أوتيته على معرفة عندى ﴿ **ويلكم** ﴾ الويل : الهلاك ، أو العذاب . ﴿ **فخسفنا** ﴾ المراد : جعلنا عاليها سافلها . ﴿ **وى كأنه** ﴾ وكلمة ﴿ **وى** ﴾ بمعنى : أتعجب ، و ﴿ **كأن** ﴾ للتشبيه . ﴿ **ويقدر** ﴾ أى : يضيق ويقتر . ﴿ **علوا** ﴾ تكبرا وغلبة . وهذه هى آخر القصص التى ذكرت فى تلك السورة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ حديث أهل الضلالة وما يلقونه من الاهانة والاحتقار يوم القيامة ، ومناداتهم على رءوس الاشهاد بما يفضحهم ويبين لهم سوء مغبتهم ، أعقبه بقصص قارون ، ليبين عاقبة أهل البغى والجبروت فى الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف ، وزلزلت به الأرض ، وهوت من تحته ، ثم أصبح مثلا يضرب للناس فى ظلمه وعتوه ، ويستبين لهم به سوء عاقبة البغاة ، وما يكون لهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة ، فيندمون على ما فعلوا .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

وبعد أن ذكر فيما سلف بغى قارون وعتوه وجبروته ، وكثرة ما أوتيه من المال الذى تنوء به العصبة أولو القوة ، أردف ذلك تفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه ، فذكر أنه خرج على قومه ، وهو فى أبهى

حليه وحلله ، والعدد العديد من أعوانه وحشمه ، قصدا للتعالى على العشيرة ، وابناء البلاد ، وفى ذلك كسر للقلوب ، وإذلال للنفوس ، وتفريق للكلمة . فلا تربطهم رابطة ، ولا تجمعهم جامعة ، فيذلون فى الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم ، وتفريقهم شذر مذر ، وقد غرت هذه المظاهر بعض الجهال الذين لا هم لهم إلا زخرف الحياة وزينتها ، فتمنوا أن يكون لهم مثلها ، فرد عليهم من وفقهم الله لهدايته ، بأن ما عنده من النعيم لمن اتقى خير مما أوتى قارون ، ولا يناله إلا من صبر على الطاعات ، واجتنب المعاصى ، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل إليه أمره من خسف الأرض به وبداره ، ولم يجد معينا ينصره ويدفع العذاب عنه ، وقد انقلب حال المتمنين المعجبين بحاله الى متعجبين مما حل به ، قائلين : إن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، لا لفضل منزلته عنده وكرامته لديه ، كما بسط لقارون ، ويضيق على من يشاء ، لا لهوانه عليه ولا لسخط عمله ، ولولا أن تفضل علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا الأرض .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ قول أهل العلم بالدين : ثواب الله خير ـ أعقب ذلك بذكر محل الجزاء ، وهو الدار الآخرة ، وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يترفعون على الناس ، ولا يتجبرون عليهم ، ولا يفسدون فيهم ، بأخذ أموالهم بغير حق ، ثم بين بعدئذ ما يحدث فى هذه الدار ، جزاء على الأعمال فى الدنيا ، فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما لا يحيط به الإعلام الغيوب ، فضلا من الله ورحمة ، وجزاء السيئة مثلها ، لطفا منه بعباده ، وشفقة عليهم .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : **﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾** .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : (إن قارون كان من قوم موسى) قال : كان ابن عمه . وقال ابن جريج : هو قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث .

ولقد نافق قارون كما نافق السامرى فأهلكه البغى لكثرة ماله . قال ـ تعالى ـ: **﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾**[1] .

قوله ـ تعالى ـ **﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾** أى : الأموال **﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾**

---

(١) الأيتان : ٣٩ ، ٤٠ من سورة العنكبوت .

أي : ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . قال الأعمش عن خيثمة : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الاصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا) . قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ . قال ابن عباس : يعنى المرحين . وقال مجاهد : يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم . وقوله :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى : مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولزورك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ ولا تبغ الفساد فى الأرض ﴾ أى : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسىء إلى خلق الله ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

هذه خمس نصائح وجهها قومه إليه ، والدين النصيحة ، والنصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم .

وللاسلام موقف جليل فيما يتعلق بالدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة :

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وادع إلى ربك ﴾[(١)] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[(٢)] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾[(٣)] . وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾[(٤)] .

وعن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) رواه مسلم [(٥)] .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)[(٦)] .

---

(١) من الآية : ٦٧ من سورة الحج .
(٢) من الآية : ١٢٥ من سورة النحل .
(٣) من الآية : ٢ من سورة المائدة .
(٤) من الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران .
(٥) الحديث اخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الامارة) باب فضل اعانة الغازى فى سبيل الله . . جـ ٣ ص ١٥٠٦ رقم ١٣٣ / ١٨٩٣ .

(٦) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب العلم) باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة جـ٤ ص ٢٠٦٠ رقم ١٦ / ٢٦٧٤

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدى ـ رضى الله عنه ـ ان رسول الله ﷺ قال يوم خبير : (لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله) فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ـ ﷺ ـ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : (وأين على بن أبى طالب) فقيل : يا رسول الله هو يشتكى عينيه . قال : (فأرسلوا إليه . . فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرىء ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية . قال على ـ رضى الله عنه ـ: يا رسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ـ تعالى ـ فيه ، **فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم**) [١] . متفق عليه . قوله : ﴿ **يدوكون** ﴾ أى : يخوضون ويتحدثون . قوله : ﴿ **رسلك** ﴾ بكسر الراء وبفتحها لغتان ، والكسر أفصح .

ـ ﴿ **حمر النعم** ﴾ النعم : الابل ، والحمر منها أنفس أموال العرب . .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن فتى من أسلم قال : يا رسول الله : انى أريد الغزو ، وليس معى ما أتجهز به ؟ قال : (ائت فلانا قد كان تجهز فمرض) فأتاه فقال : إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ، ويقول : أعطنى الذى تجهزت به ، فقال : (يا فلانة أعطيه الذى تجهزت به ولا تحبسى منه شيئا ، فوالله لا تحبسين منه شيئا فيبارك لنا فيه)[٢] رواه مسلم .

إن فى النصيحة والدلالة إلى الخير تعاونا على البر والتقوى ، وقد أمر الله ـ تعالى ـ بذلك فقال : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾[٣] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[٤] .

قال الامام الشافعى ـ رحمه الله ـ كلاما معناه : إن الناس ـ أو أكثرهم ـ فى غفلة ـ عن تدبر هذه السورة .

وعن أبى عبد الرحمن زيد بن خالد الجهنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا)[٥] . متفق عليه . ـ معنى (خلف) ـ بفتح الخاء المعجمة وتخفيف اللام ـ أى : قام بما يحتاجون إليه .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث بعثا إلى بنى لحيان من هذيل فقال : (لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما) رواه مسلم .[٦] .

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب فضائل الصحابة) باب : من فضائل على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ص ٦٤٠ رقم ١٥٥٧ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الامارة) باب فضل إعانة الغازى فى سبيل الله . . الخ جـ٣ ص ١٥٠٦ رقم ١٣٤ / ١٨٩٤

(٣) من الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٤) سورة العصر .

(٥) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الامارة) باب فضل اعانة الغازى . . الخ ص ٤٩٤ رقم ١٢٣٩ .

(٦) الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الامارة) باب فضل اعانة الغازى . . الخ جـ٣ ص ١٥٠٧ رقم ١٣٧ / ١٨٩٦ .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ان رسول الله ﷺ لقى ركبا بالروحاء فقال : (من القوم ؟) قالوا : المسلمون ، فقالوا : من أنت ؟ قال : (رسول الله) فرفعت إليه امرأة صبيا فقالت : ألهذا حج ؟ قال : (نعم ولك أجر) رواه مسلم .

(الروحاء) : مكان بقرب المدينة المنورة .

وعن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : (الخازن المسلم الأمين الذى ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه الى الذى أمر له به : أحد المتصدقين) متفق عليه[١] وفى رواية (الذى يعطى ما أمر به) وضبطوا (المتصدقين) بفتح القاف مع كسر النون على التثنية ، وعكسه على الجمع ، وكلاهما صحيح .

بم أجاب قارون قومه ؟ (قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) .

كان هذا جواب قارون الذى أجاب به قومه بعد أن نصحوه ، فهو يقول لهم : لست بحاجة إلى نصائحكم أو توجيهاتكم أو ارشاداتكم ، لأننى أوتيت هذا المال على علم عندى ، وهو كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾[٢] .

وقوله جل شأنه : ﴿ **ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى** ﴾[٣] . أى هذا استحقه . ولهذا قال ـ تعالى ـ رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿ **أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ لكثرتها . وظهورها عيانا بيانا . قال الامام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **قال إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال ، وقرأ : ﴿ **أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا** ﴾ الآية . وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه : لولا أن يستحق ذلك لما أعطى .

إن الصراع بين النفس والمال عنيف إذا كان صاحب هذه النفس لا يعرف الله ولا يتقيه .

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

لقد ظن ذلك الطاغية أن ما أعطاه الله من المال دليل على رضاه عنه . كلا : ﴿ **فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن** ﴾[٤]. كلا ، فليس المال دليلا على الرضا وليس الفقر دليلا على السخط .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب اجر الخازن الأمين والمرأة اذا تصدقت من بيت زوجها .. الخ ص ٢١٣ رقم ٦٠٢ .

(٢) الآية : ٤٩ من سورة الزمر .

(٣) من الآية : ٥٠ من سورة فصلت .

(٤) الأيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة الفجر .

هى القناعة فاحفظها تكن ملكا — لو لم تكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها — هل راح منها بغير القطن والكفن

صدق رسول الله - ﷺ - إذ يقول : (نعم المال الصالح للعبد الصالح)[1] .

ما فى الحياة بقاء — ما فى الحياة ثبوت
نبنى البيوت وحتما — تنهار تلك البيوت
تموت كل البرايا — سبحان من لا يموت .

قوله - تعالى - : **﴿ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾** .

نعم يا ربنا لقد جلت حكمتك ، وعظمت آيتك ، أنت القائل : **﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾** فأنت حين تريد عقابهم لا تسألهم عن مقدار ذنوبهم ، ولا عن كنهها ، لأنك عليم ، ولا تعاتبهم عليها ، كما قلت : **﴿ وما هم من المعتبين ﴾**[2] . وقلت : **﴿ ولا هم يستعتبون ﴾**[3] .

ونحو الآية قولك : **﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾**[4] .

وهذا لا يمنع أنهم يسألون سؤال تقريع وإهانة ، كما جاء فى قولك : **﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾**[5] .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى مشهد آخر من مشاهد القصة . إن قارون يخرج فى زينته على قومه مختالا فخورا ، والدنيا إذا أقبلت على انسان خلعت عليه محاسن غيره ، فإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه . فكل سيئة للغنى فى نظر الناس حسنة ، وكل حسنة للفقير فى نظر الناس سيئة ، فالغنى إذا كان أبكم قال الناس : إنه رزين ، وإذا كان جبانا قال الناس : إنه حكيم ، وإذا كان ممسكا قال الناس : إنه محافظ على النعمة . والفقير إذا كان كريما قال الناس : انه متلاف ، وإذا كان شجاعا قال الناس : إنه متهور ، وإذا كان فصيحا قال الناس : إنه ثرثار .

يمشى الفقير وكل شىء ضده — والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب — ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب اذا رأت رجل الغنى — حنت اليه وحركت أذنابها

---

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده (حديث عمرو بن العاص) جـ٤ ص ١٩٧ ولفظه : (نعم المال الصالح للمرء الصالح)
وانظر كشف الخفاء جـ٢ ص ٤٤٢ رقم ٢٨٢٣ .
(٢) من الآية : ٢٤ من سورة فصلت .
(٣) من الآية : ٨٤ من سورة النحل .
(٤) من الآية : ٣٩ من سورة الرحمن .
(٥) الايتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة الحجر .

واذا رأت يوما فقيرا ماشيا نبحت عليه وكشرت انيابها

يقول - تعالى - مخبرا عن قارون : إنه خرج ذات يوم فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر : من مراكب ، وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى . ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ أى : ذو حظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم :

﴿ ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون ، كما فى الحديث الصحيح : (يقول الله - تعالى - : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر [١] .

واقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[٢] .

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[٣] .

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾[٤] .

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون[٥] ﴾ ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾[٦] .

قوله - تعالى -: ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ أى : ولا يتبع هذه النصيحة ، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المحرمات ، ورضى بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار ، وانفق ماله فى كل ما فيه سعادة لنفسه ولمجتمعه ، وكان قدوة صالحة فى حفظ مجد أمته ، ورفع صيتها بين الأمم ، ببذل كل ما فيه نفعها وقوتها ، وإعلاء شأنها ، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين الناس ، ويلقى المثوبة من ربه .

عاقبة قارون

قال - تعالى - : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ص ٧٩٤ رقم ١٧٩٨ من رواية أبى هريرة - رضى الله عنه .
(٢) الآية : ١٧ من سورة السجدة .
(٣) الآيات : ٧ - ١٠ من سورة يونس .
(٤) الآيتان : ١٨ ، ١٩ من سورة الاسراء .
(٥) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
(٦) الآية : ٢٠ من سورة الشورى .

المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

المرء فى زمن الاقبال كالشجرة ... والناس من حولها مادامت الثمرة
حتى إذا راح عنها حملها انصرفوا ... وخلفوها تقاسى الحر والغبرة

إن الاسلام العظيم أقام ميزان العدالة صادقا فى تقدير الناس . قال ـ تعالى ـ: **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾**[١] . ولكن لما انتكست موازين الناس واختلت المعايير ، واهتزت القيم أصيب كل شىء بالانتكاسة :

رأيت الناس قد مالوا ... إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال ... فعنه الناس قد مالوا

***

رأيت الناس قد ذهبوا ... إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب ... فعنه الناس قد ذهبوا

***

رأيت الناس منفضة ... إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة ... فعنه الناس منفضة

إن من سوء التقدير ، ومن الظلم المبين أن تكون الموازين مبنية على المال ، والفقر والغنى ، والجاه والقوة والضعف ، فترى الناس لا يحترمون إنسانا إلا لماله :

إذا قل مالى فما خل يصاحبنى ... وفى الزيادة كل الناس خلانى
كم من عدو لأجل المال صادقنى ... وكم صديق لفقد المال عادانى
إن الغنى وان تكلم بالخطا ... قالوا : أصبت وصدقوا ما قالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم ... أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم فى المجالس كلها ... تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة ... وهى السلاح لمن أراد قتالا

يقول الامام ابن كثير ـ رضى الله عنه ـ: لما ذكر ـ تعالى ـ اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه ، وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة)[٢] . ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ نحوه)[٣] وقال الامام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاضى ،

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٣
(٢) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب بدء الخلق) باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ج ٤ ص ٢١٥
(٣) انظر حديث أبى هريرة فى اللؤلؤ والمرجان ، فى (كتاب اللباس والزينة) باب تحريم التبختر فى المشى مع اعجابه بثيابه ص ٥٤٤ رقم ١٣٥١ ونصه : (بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه ، مرجل جمته ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة) .

حدثنا الأعمش ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ (بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة)[١] تفرد به أحمد واسناده حسن ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا خيثمة ، حدثنا يعلى بن منصور ، أخبرنى محمد بن مسلم : سمعت زياد النميرى يحدث عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)[٢]. وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شابا فى مسجد نجران فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله : فقال : مالك تنظر الى ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال : فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذه بعض قرابته فى كمه وذهب به .

وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبى الله ـ عليه السلام ـ واختلف فى سببه ، فعن ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى اسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله ـ تعالى ـ فتقول : يا موسى إنك فعلت بى كذا كذا ، فلما قالت ذلك فى الملأ لموسى ـ عليه السلام ـ أرعد من الفرق وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون ، وفعل كذا وكذا ، لما قلت بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نشدتنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا على أن أقول ذلك لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فعند ذلك خر موسى لله ـ عز وجل ـ ساجدا ، وسأل الله فى قارون ، فأوحى الله إليه : أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض ان تبتلعه وداره فكان ذلك .

وقيل : ان قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب ، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة ، فمر فى محفله ذلك على مجلس نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ وهو يذكرهم بأيام الله ، فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه ، فدعاه موسى ـ عليه السلام ـ وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون على وأدعو عليك ، فخرج موسى وخرج قارون فى قومه ، فقال موسى ـ عليه السلام ـ تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال : بل أدعو أنا ، فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسى : أدعو؟ قال : نعم ، فقال موسى : اللهم مر الأرض ان تطيعنى اليوم ، فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى اقدامهم ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم ، ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم ، قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليهم ، ثم أشار موسى بيده ، ثم قال : واذهبوا بنى لاوى ، فاستوت بهم الأرض ، وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند أبى سعيد الخدرى) ج٣ ص ٤٠

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج٣ ص ٨٢٢ فقد وردهناك حديثان من رواية ابن عمر وأبى سعيد الخدرى بنفس المعنى .

وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحا .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ أى : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله . ولا كان هو فى نفسه منتصرا لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس** ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينته ﴿ **قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون :(ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى : ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه ، فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الايمان إلا من يحب) .

﴿ **لولا أن من الله علينا لخسف بنا** ﴾ أى : لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به ، لأننا وددنا أن نكون مثله . ﴿ **ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ يعنون أنه كان كافرا ولا يفلح الكافرون عند الله فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقد اختلف النحاة فى معنى قوله ههنا : ﴿ **ويكأن** ﴾ فقال بعضهم : معناه ويلك إعلم أن . ولكن خفف فقيل : ويك ، ودل فتح ﴿ **أن** ﴾ على حذف اعلم ، وهذا القول ضعفه ابن جرير ، والظاهر أنه قوى ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة ويكأن والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى . والله أعلم . وقيل : معناها ﴿ **ويكأن** ﴾ أى : ألم ترأن . قاله قتادة . وقيل : معناها ﴿ **وى كأن** ﴾ ففصلها وجعل حرف وى للتعجب أو للتنبيه ، وكأن بمعنى أظن وأحتسب . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة : إنها بمعنى ﴿ **ألم ترأن** ﴾ واستشهد بقول الشاعر :

سألتانى الطلاق إذ رأتانى ... قل مالى وقد جئتمانى بنكر
ويكأن من يكن له نشب يحـ ... ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين * من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ .

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

إن العاقبة للمتقين : تلك حقيقة ثابتة قررها العليم الخبير . قال لحبيبه ومصطفاه : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾[١] .

(١) الآية : ٤٩ من سورة هود .

وها هو ذا القرآن الكريم يزيدها توكيدا فيقول : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ والدار الآخرة ونعيمها الباقى الذى لا يفنى ولا يزول أبدا ، أعد الله هذا النعيم المقيم للمتواضعين الطائعين .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

وفى تفسير ﴿ **العلو** ﴾ أقوال لأئمة التفسير : قال عكرمة : العلو : التجبر . وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى . وقال سفيان بن سعيد الثورى عن منصور عن مسلم البطين : العلو فى الأرض التكبر بغير حق ، والفساد : أخذ المال بغير حق ، وقال ابن جريج : ﴿ **لا يريدون علوا فى الأرض** ﴾ تعظما وتجبرا ﴿ **ولا فسادا** ﴾ عملا بالمعاصى . وقال ابن جرير : حدثنا وكيع ، حدثنا أبى ، عن أشعث السمان ، عن أبى سلام الأعرج ، عن على قال : ان الرجل ليعجب من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ وهذا محمول على ما اذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (أنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد)(١) . وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال : يا رسول الله انى أحب أن يكون ردائى حسنا ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : (لا ، إن الله جميل يحب الجمال)(٢) .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ **فله خير منها** ﴾ أى : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافا كثيرة ؟! وهذا مقام الفضل ، ثم قال : ﴿ **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾(٣) وهذا مقام الفضل والعدل .

بشارة وتوجيهات

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب فى التواضع ج٥ ص ٢٠٣ رقم ٤٨٩٥ من حديث عياض بن حمار بلفظ : (إن الله أوحى إلى . . . الخ) .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : البغى ج٢ ص ١٤٠٩ رقم ٤٢١٤ من حديث انس بن مالك قال فى الزوائد : هذا اسناد حسن لاختلاف فى اسم سنان بن سعد ، أو سعد بن سنان .

(٢) الحديث اخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب تحريم الكبر وبيانه ج١ ص ٩٣ رقم ١٤٧ / ٩١ من رواية عبد الله ابن مسعود ، وهو جزء حديث . وانظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ص ٢٤٠ / ٧٨٢٢ من حديث ابى امامة الباهلى .

(٣) الآية : ٩٠ من سورة النمل .

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

المفردات :

(فرض) أنزله عليك . (معاد) قيل : هو المقام المحمود الذى وعد ان يبعث فيه ، وقيل : هو مكة ، إذ معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف منها ثم يعود إليها . (ظهيرا) : معينا وناصرا . يقول الفخر الرازى فى تفسيره : ثم إنه ـ سبحانه وتعالى ـ لما شرح لرسوله أمر يوم القيامة واستقصى فى ذلك شرح له ما يتصل بأحواله فقال : (إن الذى فرض عليك القرآن . . .)

(هالك) أى : معدوم . (الحكم) أى : القضاء النافذ .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر قصص موسى وقومه مع قارون ، وبين بغي قارون . واستطالته عليهم ثم هلاكه ، ونصرة أهل الحق عليه ، أردف هذا قصص محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه مع قومه ، وإيذاءهم إياه ، وإخراجهم له من مسقط رأسه ، ثم إعزازه إياه بالإعادة إلى مكة ، وفتحه إياها منصورا ظافرا .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد** ﴾ فرضه عليك ، أى : أنزله وأوجب عليك تبليغه وهو الله ـ تعالى ﴿ **تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين** ﴾[1] ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾[2].

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ لأئمة التفسير فيها أقوال : قال بعضهم : ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾[3] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم** ﴾[4] وقال : ﴿ **وجيء بالنبيين والشهداء** ﴾[5] وقال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يقول : لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن . قال السدى : وقال أبو سعيد

(١) الآية : ٢ من سورة السجدة .

(٢) الآية : ٦٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية : ٧ من سورة الأعراف . (٤) من الآية : ١٠٩ من سورة المائدة .

(٥) من الآية : ٦٩ من سورة الزمر .

مثلها ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : (لرادك إلى معاد) قال : إلى يوم القيامة ورواه مالك عن الزهرى ، وقال الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (لرادك إلى معاد) إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة وعطاء وسعيد ابن جبير وأبى قزعة وأبى مالك وابى صالح . وقال الحسن البصرى : أى - والله - إن له لمعادا فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه : حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العصفورى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) قال : إلى مكة . وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى - وهو ابن عبيد الطنافسى - به ، وهكذا رواه العوفى عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها . وقال محمد بن إسحق عن مجاهد فى قوله : (لرادك إلى معاد) إلى مولدك بمكة .

قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة : عن الضحاك قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه : **﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾** إلى مكة .

قوله - تعالى - : **﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ﴾** أى : قل لمن خالفك وكذبك - يا محمد - من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم ، قل : ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة . ثم قال - تعالى - مذكرا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذا ارسله إليهم : **﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾** أى : ما كنت تظن أن ينزل الله عليك النبوة والكتاب ، لأن ذلك كان فى مكنون علم الله - تعالى - ولكن الله أنزله إليك وأرسلك به إلى الناس بشيرا ونذيرا ، ورحمة من لدنه بعباده **﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾**(١) إنه الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات **﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾**(٢) .

إذا كان ذلك كذلك **﴿ فلا تكونن ظهيرا للكافرين ﴾** فالله ناصرك عليهم ، ومؤيدك ، وجاعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم **﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ﴾** أى : لا يمنعنك أحد منهم عن تبليغ آيات الله مهما اشتدت مخالفتهم ، وزاد عنادهم ، فإن الله معك ، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا وادع إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، واثبت على ما أنت عليه من التوحيد ، ولا تكونن من المشركين ، واثبت على توحيد

(١) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

الألوهية والربوبية ، ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغى الالهية إلا لعظمته . وقوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقى ، الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولايموت .

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[1] . فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله ههنا : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أى : إلا إياه ، وقد ثبت فى الصحيح من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[2] . وقال مجاهد والثورى فى قوله ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أى : إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له ، قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أستغفر الله ذنبا لست محصيه   رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله ـ تعالى ـ من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته ـ تعالى وتقدس ـ فإنه الأول والآخر الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدينا فى كتابه (التفكر والاعتبار) : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين ، فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ . وقوله : ﴿ له الحكم ﴾ أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى : يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

سورة العنكبوت

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا ، عدد آياتها تسع وستون بالاتفاق ، وكلماتها تسعمائة وثمانون ، وحروفها أربعة آلاف ومائة وخمسة وتسعون .

سميت سورة العنكبوت لتكرر ذكرها فيها ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ .

معظم مقصود السورة

توبيخ أهل الدعوى ، وترغيب أهل التقوى ، والوصية ببر الوالدين للأبرار ، والشكاية من

(١) الأيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الشعر) ص ٥٨٦ رقم ١٤٥٤ ونص الحديث : (أصدق كلمة قالها الشاعر : كلمة لبيد (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) وكاد أمية بن أبى الصلت ان يسلم)

المنافقين فى جرأتهم على حمل الأوزار ، والاشارة إلى بلوى نوح والخليل ، لتسلية الحبيب ، وهجرة إبراهيم من بين قومه إلى مكان غريب . ووعظ لوط قومه باختيار الخبث ، وعدم اتعاظهم ، و إهلاك الله إياهم ، والاشارة إلى حديث شعيب ، وتعيير عباد الاصنام ، وتوبيخهم ، وتمثيل الصنم ببيت العنكبوت ، وإقامة حجج التوحيد ، ونهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، وأدب الجدال مع المنكرين ، والمبتدعين ، وبيان الحكمة فى كون رسولنا - ﷺ - آميا ، والخبر عن استعجال الكفار العذاب ، وأن كل نفس بالضرورة ميتة ، ووعد المؤمنين بالثواب ، وضمان الحق رزق كل دابة وبيان أن الدنيا دار فناء وممات ، و أن العقبى دار بقاء وحياة ، وبيان حرمة الحرم وأمنه ، والإخبار بأن الجهاد ثمنه الهداية ، وأن عناية الله مع أهل الإحسان ، فى قوله : ﴿ **والذين جاهدوا فينا** ﴾ إلى آخر السورة .

المتشابهات

قوله : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسنا** ﴾ ، وفى لقمان ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه** ﴾[1] وفى الأحقاف : ﴿ **بوالديه إحسانا** ﴾[2] الجمهور على أن الآيات الثلاث نزلت فى سعد بن مالك (وهو سعد ابن أبى وقاص) وأنها فى سورة لقمان اعتراض بين كلام لقمان لابنه ، ولم يذكر فى لقمان ﴿ **حسنا** ﴾ لأن قوله بعده : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك**)[3] قام مقامه ، ولم يذكر فى هذه السورة ﴿ **حمله** ﴾ ولا ﴿ **وضعه** ﴾ موافقة لما قبله من الاختصار ، وهو قوله : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ ، فإنه ذكر فيها جميع ما يقع بالمؤمنين بأوجز كلام ، وأحسن نظام ، ، ثم قال بعده : ﴿ **ووصينا الإنسان** ﴾ أى : ألزمناه ﴿ **حسنا** ﴾ فى حقهما ، وقياما بأمرهما ، وإعراضا عنهما ، وخلافا لقولهما إن أمراه بالشرك بالله . وذكر فى لقمان والأحقاف حاله فى حمله ووضعه .

قوله : ﴿ **وإن جاهداك لتشرك بى** ﴾ وفى لقمان : ﴿ **على أن تشرك** ﴾ ، لأن ما فى هذه السورة وافق ما قبله لفظا ، وهو قوله : ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه** ﴾ وفى لقمان محمول على المعنى ، لأن التقدير : وإن حملاك على أن تشرك .

قوله : ﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء** ﴾ بتقديم العذاب على الرحمة فى هذه السورة فحسب ، لأن إبراهيم خاطب به نمرود وأصحابه ، فإن العذاب وقع بهم فى الدنيا .

قوله : ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ ، وفى الشورى ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض** ﴾[4] ، لأن (ما) فى هذه السورة خطاب لنمرود حين صعد الجو موهما أنه يحاول السماء ، فقال له ولقومه ؟

(١) من الآية : ١٤ من سورة لقمان .
(٢) من الآية : ١٥ من سورة الأحقاف .
(٣) من الآية : ١٤ من سورة لقمان .
(٤) من الآية : ٣١ من سورة الشورى .

﴿ وما أنتم بمعجزين فى الآرض ﴾ أى : من فى الأرض : من الجن والإنس ، ولا من فى السماء : من الملائكة ، فكيف تعجزون الله ؟ ! وقيل : من فى السماء : من الملائكة ، فكيف تعجزون الله ؟! وقيل : وما أنتم بفائتين عليه ، ولو هربتم فى الأرض ، أو صعدتم فى السماء ، فقال : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ﴾ لو كنتم فيها . وما فى الشورى خطاب للمؤمنين ، وقوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾[1] يدل عليه . وقد جاء ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ فى قوله : ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ من غير ذكر الأرض ولا السماء .

قوله ﴿ فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ وقال بعده : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ . فجمع الأولى ووحد الثانية ، لأن الأولى إشارة إلى إثبات النبوة ، وفى النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم - كثرة ، والثانى إشارة إلى التوحيد وهو - سبحانه - واحد لا شريك له .

قوله : ﴿ إنكم ﴾ جمع بين استفهامين فى هذه السورة وقد سبق فى الأعراف .

قوله : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا ﴾ . وفى هود : ﴿ ولما جاءت ﴾ بغير ﴿ أن ﴾ ، لأن ﴿ لما ﴾ يقتضى جوابا واذا اتصل به (أن) دل على أن الجواب وقع فى الحال من غير تراخ ، كما فى هذه السورة ، وهو قوله :﴿ سىء بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ ومثله فى يوسف : ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ﴾ وفى هود اتصل به كلام بعد كلام ، إلى قوله : ﴿ قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ فلما طال لم يحسن دخول ﴿ أن ﴾ .

قوله : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ﴾ هو عطف على قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث ﴾ .

قوله : ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ﴾ أخره فى هذه السورة لما وصف . وقد سبق .

قوله : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ وفى القصص ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ وفى الرعد والشورى : ﴿ لمن يشاء ويقدر ﴾ لأن ما فى هذه السورة اتصل بقوله : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها . . ﴾ الآية ، وفيها عموم فصار تقديره : يبسط الرزق لمن يشاء من عباده أحيانا ، ويقدر له أحيانا ، لأن الضمير يعود إلى ﴿ من ﴾ وقيل : يقدر له البسط ، من التقدير . وفى القصص تقديره : يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لمن يشاء . وكل واحد منهما غير الآخر ، بخلاف الأولى . وفى السورتين يحتمل الوجهين فأطلق .

قوله : ﴿ من بعد موتها ﴾ وفى البقرة والجاثية : ﴿ بعد موتها ﴾ لأنمافىهذه السورة وافق ما قبله وهو ﴿ من قبله ﴾ فإنهما يتوافقان ، وفيه شىء آخر ، وهو أن ما فى هذه السورة سؤال وتقرير ، والتقرير يحتاج إلى التحقيق فوق غيره ، فقيد الظرف بمن ، فجمع بين طرفيه ، كما سبق .

قوله : ﴿ لهو ولعب ﴾ سبق قوله : (فسوف يعلمون) سبق قوله .

---

(١) الآية : ٢٠ من سورة الشورى .

قوله : ﴿ **نعم أجر العاملين** ﴾ بغير واو لاتصاله بالأول أشد اتصال ، وتقديره : ذلك نعم أجر العاملين .

مناسبتها لما قبلها

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر فى السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته وجعل أهلها شيعا ، وافتتح هذه السورة بذِكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون ، وعذبوهم على الايمان ، دون ما عذب به فرعون بنى اسرائيل ، تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا لهم على الصبر ، كما قال : ﴿ **ولقد فتنا الذين من قبلهم** ﴾ .

(٢) ذكر فى السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عوده الى مصر رسولا نبيا . ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا ، وذكر هنا نجاة نوح ـ عليه السلام ـ وأصحاب السفينة واغراق من كذبه من قومه .

(٣) نعى هناك على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر أنه يفضحهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ، وهنا نعى عليهم أيضا وبين أنهم فى ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .

(٤) هناك قص قصص قارون وفرعون ، وهنا ذكرهما أيضا ، وبين عاقبة أعمالها .

(٥) ذكر هناك فى الخاتمة الاشارة إلى هجرة النبى ﷺ فى قوله :

﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد** ﴾ وفى خاتمه هذه أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله : ﴿ **يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة** ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

المفردات:

(الفتنة) : الامتحان والاختبار . ﴿ ليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ أى : ليظهرن صدقهم (السبق) : الفوت ، والمراد به : الفوت عن المجازاة . (السيئات) هى الشرك بالله والمعاصى التى يجترحونها . (ساء ما يحكمون) أى : قبح حكمهم أنهم يهربون منا . (يرجو) أى : يطمع . (لقاء الله) أى : نيل ثوابه وجزائه . (أجل الله) : الوقت المضروب للقائه . (جاهد) أى : بذل جهده فى جهاد حرب أو نفس . ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ أى : أمرناه ، فكلمة (وصى) فى اللغة كأمر فى معناها وتصرفها . (حسنا) أى : بأن يفعل معهم حسنا ، أى : فعلا ذا حسن ، أو هو نفس الحسن مبالغة . (فتنة للناس) أى : أذاهم ، واستعمال القوة والعنف فى الرد عن الاسلام . (أثقالهم) : أوزارهم . والمراد بالحمل هنا : تبعة الذنوب ، والأثقال واحدها : ثقل وهو الحمل الذى يئود حامله ، والمراد به الذنب والاثم .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن قال ـ سبحانه ـ فى اواخر السورة السالفة : ﴿ وادع إلى ربك ﴾ وكان فى الدعاء إليه توقع الطعن فى الحرب ، لأن النبى ﷺ وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد ان لم يؤمن المشركون ويستجيبوا للدعاء ، وذلك مما يشق على بعض المؤمنين ـ اردف ذلك تنبيههم إلى أن المؤمنين لا يتبين ايمانهم الحق إلا إذا فتنوا .

روى ابن جرير وابن المنذر أن ناسا ممن كانوا بمكة آمنوا ، فكتب اليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما نزلت آية الهجرة : لا يقبل منكم اسلام حتى تهاجروا وتخرجوا إلى المدينة ، فتبعهم

المشركون فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآيات ، فكتبوا إليهم : أنزلت فيكم آية كذا وكذا . فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾[1] . ويبين ـ سبحانه ـ ان العبد لا يترك فى الدنيا سدى . وان من ترك ما كلف به عذب واردف ذلك بيان ان من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع الله عمله ولا يخيب أمله ، ثم ذكر ان طلب ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إلى الله ـ تعالى ـ فهو غنى عن الناس جميعا ، ثم أرشد إلى ان جزاء العمل الصالح تكفير السيئات ، ومضاعفة الحسنة الى عشر أمثالها فضلا منه ورحمة . وأعقب ذلك ـ سبحانه ـ بذكر البر بالوالدين والحدب عليهما ؟ لأنهما سبب وجوده ، فلهما عليه الاحسان والطاعة ، فالاحسان إلى الوالد بالانفاق ، وإلى الوالدة بالاشفاق ، إلا إذا حرضاه على الشرك ، وأمراه بالمتابعة على دينهما إذا كانا مشركين ، فإنه لا يطيعهما فى ذلك ، ثم بين ان من يعمل الصالحات يدخله الله فى زمرة الانبياء والأولياء ويؤتيه الكرامة والدرجة الرفيعة والزلفى عنده مثل ما أوتى هؤلاء . وبين ـ سبحانه ـ أن الناس ثلاثة أقسام فى الدين : مؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، وكافر يجاهر بالكفر والعناد ، ومذبذب بينهما ، يظهر الإيمان بلسانه ويبطن الكفر فى فؤاده ، وقد بين القسمين الأولين بقوله : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ وبين أحوالهما بقوله : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات ﴾ إلى قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ثم أردف ذلك القسم الثالث بقوله : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله .. ﴾ الخ .

روى أن الآية نزلت فى عياش بن أبى ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضرب فارتد ، وقد كان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه ، ثم عاش بعد ذلك دهرا وحسن إسلامه .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ :

الم : بعض حروف الهجاء التى تشير إلى إعجاز هذا الكتاب ، قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[1] . كما أن هذه الحروف تشير إلى التنبيه إلى ما سيأتى بعد من أخبار وأحكام حتى يستيقظ العقل وينتبه للتلقى

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ .

الاستفهام هنا للإنكار الذى يفيد النفى ، أى : أن المؤمن لن يترك دون ما اختبار ، فليوطن المؤمنون أنفسهم على هذا ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾[2] .

وقال ـ عز من قائل ـ : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين

---

(١) الآية : ٨٨ من سورة الإسراء .
(٢) الآية : ١٢٤ من سورة البقرة .

الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ [١] .

وقال ـ تبارك اسمه ـ : **﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾** [٢] .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ فى الحديث الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء »[٣] .

ولذا قال ـ تعالى ـ : **﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾** أى : ولقد اختبرنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ ، فابتلينا بنى اسرائيل بفرعون وقومه ، واصابهم منه البلاء العظيم والجهد الشديد ، وابتلينا من آمن بعيسى بمن كذبه وتولى عنه ـ لاجرم ليصيبن أتباعك أذى شديد وجهد عظيم ممن خالفهم وناصبهم العداء .

روى البخارى وأبو داود والنسائى عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ـ ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون)[٤] .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف فقلت : يارسول الله ما أشدها عليك ! قال : (إنا كذلك يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر) قلت : يارسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : (الأنبياء) قلت : ثم من ؟ قال : (ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يجويها (يمزقها) وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء)[٥] .

---

(١) الآيات : ١٤٠ ـ ١٤٢ من سورة آل عمران .
(٢) الآية : ١٦ من سورة التوبة .
(٣) الحديث فى الصغير رقم ١٠٥٤ من رواية أحمد والبخارى والترمذى وابن ماجة : عن سعد بن أبى وقاص .
وانظر جامع الترمذى (كتاب الزهد) باب : ما جاء فى الصبر على البلاء جـ٤ ص ٦٠١ ، ٦٠٢ رقم ٢٣٩٨ فقد ورد الحديث من رواية سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وفى الباب عن أبى هريرة وأخت حذيفة ابن اليمان . .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : الصبر على البلاء ج٢ ص ١٣٣٤ رقم ٤٠٢٣ فقد ذكره عن سعد بن أبى وقاص أيضا .
(٤) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الاكراه) باب : من اختار الضرب والقتل والهوان ج٩ ص ٢٥ ، ٢٦ .
وانظر سنن أبى داود (كتاب الجهاد) باب فى الاسير يكره على الكفر ج٣ ص ١٠٨ رقم ٢٦٤٩ .
(٥) الحديث اخرجه ابن ماجه فى (كتاب الفتن) باب : الصبر على البلاء ج٢ ص ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ رقم ٤٠٢٤ قال فى الزوائد : إسناده صحيح . رجاله ثقات .

﴿ **فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعوى الايمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل قوله : ﴿ **إلا لنعلم** ﴾ : إلا لنرى : وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون** ﴾ أم هنا بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أحسب الذين يقترفون السيئات والمعاصى أن يهربوا من عقابنا ، وأن يفلتوا من عذابنا مهما أوتوا من قوة وسلطان ؟ لقد قبح حكمهم هذا وساء سبيلا ، قال ـ تعالى ـ: ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون** ﴾[1] وقال : ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير** ﴾[2] وقال ـ تعالى :ـ ﴿ **وكل شىء أحصيناه كتابا** ﴾[3] . وقال : ﴿ **وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا** ﴾[4] وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾[5] وقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[6] فسبحان من يمهل ولا يهمل ، ولا يعجل كعجل أحدنا ، إنه ليمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا — فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه — يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم** ﴾ هذا وعد من الله ـ تعالى ـ والله لا يخلف الميعاد ، إذا وعد أنجز ، وإذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، وإذا دعا هدى إلى الصراط المستقيم . فمن كان يرجو ثواب الله فى الدار الآخرة فليعمل عملا صالحا ، ثم ليثق فى أن أجل الله الذى أجله ، والموعد الذى حدده آت لا محالة ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، ، قال ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمنا الدعاء : ﴿ **ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد** ﴾[7] وقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين** ﴾[8] وقال : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾[9] فالجنة حق لا مراء فى ذلك ، كما ان النار حق ، والذى أخبر بهذا هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم .

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين** ﴾ .

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة الأنفال .
(٢) الآية : ٢٢ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية : ٢٩ من سورة النبأ .
(٤) الآية : ١٢ من سورة الجن .
(٥) الآية : ٤٢ من سورة إبراهيم .
(٦) الآية : ١٠٢ من سورة هود .
(٧) الآية : ١٩٤ من سورة آل عمران .
(٨) الآية : ٩ من سورة العنكبوت .
(٩) الآية : ٤٢ من سورة الأعراف .

الجهاد والمجاهدة : بذل الطاقة واستفراغ الوسع ، وهو ينتظم جهاد الدعوة وجهاد السيف وجهاد النفس وغير ذلك ، فمن فعل فإنما خيره عائد لنفسه ، كقوله ـ جل شأنه ـ: ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾[١] وليعلم الجميع أن الله ـ تعالى ـ غنى عن العالمين أجمعين ، لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل هو الغنى الذى يحتاج إليه كل خلقه ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد** ﴾[٢] ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾[٣] .

ومن جهاد النفس : الصبر وحقيقته : هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها ، وسئل الجنيد بن محمد فقال : (تجرع المرارة من غير تعيس) وقال ذو النون : (هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة) وقيل : (الصبر : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب) وقال أبو عثمان : (الصبار : هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره) (وقيل الصبر : المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية) ومعنى هذا ان لله على العبد عبودية فى عافيته وفى بلائه ، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر ، وصحبة البلاء بالصبر ، وقال الخواص : (الصبر على أحكام الكتاب والسنة) .

وقال على بن أبى طالب : (الصبر مطية لا تكبو) وقيل : الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب ، والصبر والجزع ضدان ، والجزع قرين العجز وشقيقه ، والصبر قرين الكيس ومادته ، والنفس مطية العبد التى يسير عليها إلى الجنة أو النار ، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام ، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت فى كل مذهب .

والنفس فيها قوتان : قوة الإقدام وقوة الإحجام ، فحقيقة الصبر : أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكا عما يضره . ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره ، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعى هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه . ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات ، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك . وأفضل الناس أصبرهم على النوعين .

وقيل : (الصبر : ثبات باعث العقل والدين فى مقابلة باعث الهوى والشهوة) ومعنى هذا أن المطيع يتقاضى ما يحب ، وباعث العقل والدين يمنع منه ، والحرب قائمة بينهما وهى سجال ، ومعرك هذا الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات .

فى بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفسانى الاختيارى عن إجابة داعى الهوى المذموم كانت مراتبه

---

(١) من الآية : ٤٦ من سورة فصلت .
(٢) الآية : ١٥ من سورة فاطر .
(٣) الآيات : ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات .

وأسماؤه بحسب متعلقه ، فإنه إن كان صبرا عن شهوة الفرج المحرمة سمى عفة ، وضدها الفجور والزنا والعهر ، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يجمل منه سمى شرف نفس ، وسمى ضده شرها ودناءة ووضاعة نفس ، وإن كان عن اظهار ما لا يحسن اظهاره من الكلام سمى كتمان سر ، وضده إذاعة وافشاء ، أو تهمة أو فحشا أو سبا أو كذبا أو قذفا ، وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، وضده سمى حرصا وإن كان على قدر يكفى من الدنيا سمى قناعة ، وضدها الحرص أيضا ، وإن كان عن إجابة داعى الغضب سمى حلما ، وضده تسرعا ، وإن كان من إجابة العجلة سمى وقارا وثباتا ، وضده طيشا وخفة ، وإن كان عن إجابة داعى الفرار والهرب سمى شجاعة ، وضده جبنا وخورا ، وإن كان عن إجابة داعى الانتقام سمى عفوا وصفحا ، وضده انتقاما وعقوبة ، ، وإن كان عن إجابة داعى الامساك والبخل سمى جودا ، وضده بخلا ، وإن كان عن إجابة داعى الطعام والشراب فى وقت مخصوص سمى صوما ، وإن كان عن إجابة داعى العجز والكسل سمى كيسا وإن كان عن إجابة داعى إلقاء الكل على الناس وعدم حمل كلهم سمى مروءة ، فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه والاسم الجامع لذلك كله (الصبر) وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها . وهكذا يسمى عدلا إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين ، وضده الظلم ، ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار ، وعلى هذا جميع منازل الدين .

فى ذكر أقسام الصبر باعتبار متعلقه

ويقول ابن القيم :

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .

وهذه الأنواع الثلاثة هى التى قال فيها الشيخ عبدالقادر فى فتوح الغيب « لابد للعبد من أمر يفعله ، ونهى يجتنبه ، وقدر يصبر عليه به ، وهذا الكلام يتعلق بطرفين : طرف من جهة الرب تعالى . وطرف من جهة العبد .

فأما الذى من جهة الرب فهو أن الله تعالى : له على عبده حكمان : حكم شرعى دينى ، وحكم كونى قدرى . فالشرعى متعلق بأمره . والكونى متعلق بخلقه . وهو سبحانه له الخلق والأمر . وحكمه الدينى الطلبى نوعان : بحسب المطلوب . فإن المطلوب إن كان محبوبا له فالمطلوب فعله إما واجبا وإما مستحبا . ولا يتم ذلك إلا بالصبر ، وإن كان مبغوضا له ، فالمطلوب تركه ، إما تحريما وإما كراهة ، وذلك أيضا موقوف على الصبر ، فهذا حكمه الدينى الشرعى . وأما حكمه الكونى فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التى لا صنع له فيها ، ففرصته الصبر عليها ، وفى وجوب الرضا بها قولان للعلماء : وهما وجهان فى مذهب أحمد أصحهما أنه مستحب ، فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور .

وأما الذى من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث مادام مكلفا ، ولا تسقط عنه هذه الثلاث

حتى يسقط عنه التكليف ، فقيام عبودية الأمر والنهى والقدر على ساق الصبر . لا تستوى إلا عليه ، كما لا تستوى السنبلة إلا على ساقها .

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر . وهذه الثلاثة هى التى أوصى بها لقمان ابنه فى قوله : **﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾**[١] فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر . أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه ، وأما من حيث اللزوم الشرعى فإن الآمر الناهى لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهى .

وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى قوله :**﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾**[٢] فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان فى هذه الأوصاف ، فوصفهم بالوفاء بعهده الذى عاهدهم عليه ، وذلك يعم أمره ونهيه الذى عهده إليهم بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه ، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه . ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل . ويدخل فى هذا ظاهر الدين وباطنه ، وحق الله وحق خلقه ، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له ، والقيام بطاعته والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وحبه وخوفه ، ورجائه والتوبة إليه ، والاستكانة له ، والخضوع والذلة له ، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها ، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها ، فهذه هى الوصلة بين الرب والعبد . وقد أمر الله بهذه الأسباب التى بينه وبين عبده أن توصل ، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه ، وتحكيمه فى كل شىء ، والرضا لحكمه والتسليم له ، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين .

ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فدخل فى ذلك القيام بحقه وحق رسوله ، أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة ، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه ، وحفظه فى نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا .

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل ، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشية وخوف سوء الحساب يوم المآب ، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الصلة ، ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله فى أصل واحد هو أرضية ذلك وقاعدته ومداره الذى يدور عليه ، وهو الصبر فقال : **﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾** فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه .

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهى الصلاة فقال سبحانه : **﴿ وأقاموا الصلاة ﴾** وهذان العونان على مصالح الدنيا والآخرة ، وهما الصبر والصلاة فقال تعالى : **﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة**

---

(١) الآية : ١٧ من سورة لقمان .
(٢) سورة الرعد من الآية : ١٩ والآيات : ٢٠ ـ ٢٢

وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾**(٢) .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرا وعلانية ، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم ، ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا ، إنهم لا يقابلون ذلك بمثله ، بل يدرأون بالحسنة السيئة ، فيحسنون إلى من يسىء إليهم . فقال : ﴿ **ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾**(٣) وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون الذنب بالحسنة بعده ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾**(٤) وقال ﷺ : (أتبع السيئة الحسنة تمحها)(٥) والتحقيق أن الآية تعم النوعين .

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها . اشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور . وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة فى قوله : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾**(٦) وقوله : ﴿ **إنه من يتق ويصبر ﴾**(٧) وقوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾**(٨) فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة ، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور .

والصبر : اختيارى واضطرارى ، والاختيارى أكمل من الاضطرارى ، فإن الاضطرارى يشترك فيه الناس ، ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختيارى ، ولذلك كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه فى الجب وفرقوا بينه وبين أبيه ، وباعوه بيع العبيد . ومن الصبر الثانى إنشاء الله ـ سبحانه ـ له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين فى الأرض ، وكذلك صبر الخليل إبراهيم ﷺ والكليم موسى ، وصبر نوح والمسيح ، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ﷺ كان صبرا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ، ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال تعالى ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾**(٩) .

ومن الجهاد جهاد السيف

والمجاهدون فى سبيل الله ، وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ، ويحفظ بهم بيضة الإسلام ، ويحمى بهم حوزة الدين ، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هى العليا ، قد بذلوا أنفسهم فى محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعدائه ، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم فى أعمالهم التى يعملونها ، وإن باتوا فى ديارهم ، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فإنهم كانوا هم السبب فيه .

وقد تظاهرت آيات الكتاب ، وتواترت نصوص السنة على الترغيب فى الجهاد ، والحض عليه ،

---

(١) سورة البقرة آية : ٤٥
(٢) سورة البقرة آية : ١٥٣ .
(٣) سورة الرعد من الآية : ٢٢ .
(٤) سورة هود من الآية : ١١٤ .
(٥) حديث شريف
(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٢٥ .
(٧) سورة يوسف من الآية : ٩٠
(٨) سورة آل عمران : ٢٠٠
(٩) سورة الأحقاف من الآية : ٣٥ .

ومدح أهله والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم** ﴾[1] فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم ، فقال سبحانه : ﴿ **تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم** ﴾ فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال سبحانه : ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾[2] يعنى : أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلام ، فكأنها قالت : فمالنا فى الجهاد من الحظ ؟ !

فقال سبحانه : ﴿ **يغفر لكم ذنوبكم** ﴾ ومع المغفرة ﴿ **ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾[3] .

فكأنها قالت : هذا فى الآخرة فما لنا فى الدنيا ؟ فقال سبحانه : ﴿ **وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾[4] فالله الله ما أحلى هذه الألفاظ ، وما ألصقها بالقلوب ، وما أعظمها جذبا لها ، وتسييرا إلى ربها ، وما ألطف موقعها من قلب كل محب .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم** ﴾[5] .

فأخبر سبحانه : أنه لا يستوى عمار المسجد الحرام ، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة . هذه هى عمارة المساجد المذكورة فى القرآن ، وأهل سقاية الحاج لا يستوون هم وأهل الجهاد فى سبيل الله ، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون ، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات .

وقال تعالى : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما** ﴾[6] فنفى سبحانه وتعالى : التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد ، وبين المجاهدين ، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة ، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات ، وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس من جهة أن القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات إن كانوا هم القاعدين الذين فضل الله عليهم أولى الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا ، وعلى هذا فماوجه استثناء أولى الضرر وهم لا يستوون ، والمجاهدون أصلا ؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحدا ، فهذا وجه الإشكال ، ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله فاختلف القراء فى إعراب

---

(١) سورة الصف الآية : ١٠ .
(٢) سورة الصف الآية : ١١ .
(٣) سورة الصف ، الآية : ١٢
(٤) سورة الصف ، الآية : ١٣
(٥) سورة التوبة ، الآيات : ١٩ - ٢٢
(٦) سورة النساء ، الآيتان : ٩٥ ، ٩٦

(غير) : فقرىء رفعا ونصبا وهما فى السبعة ، وقرىء بالجر فى غير السبعة وهى قراءة أبى حيوة .

فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء ، لأن غيرا يعرب فى الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد إلا وهو النصب ، هذا هو الصحيح . وقالت طائفة : إعرابها نصب على الحال أى : لا يستوى القاعدون غير مضرورين ، أى : لا يستوون فى حالهم صحتهم ، هم والمجاهدون والاستثناء أصح ، فإن غيرا لا تكاد تقع حالا فى كلامهم إلا مضافة إلى نكرة . فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها ، والكلام فى عدم تعريف غير بالإضافة وحسن وقوعها إذ ذاك حالا له مقام آخر . وأما الرفع فعلى النعت للقاعدين ، هذا هو الصحيح . وقال أبو إسحق ، وغيره : هو خبر مبتدأ محذوف تقديره : الذين هم غير أولى الضرر . والذى حمله على هذا ظنه أن غيرا لا تقبل التعريف بالإضافة ، فلا تجرى صفة للمعرفة . وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها سوى أن غيرا توغلت فى الإبهام ، فلا تتعرف بما تضاف إليه . . وجواب هذا أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعيينها ما تضاف إليه . وأما قراءة الجر ففيها وجهان : أحدهما ـ وهو الصحيح ـ أنه نعت للمؤمنين ، والثانى ـ وهو قول المبرد ـ أنه بدل منه ، بناء على أنه نكرة فلا تنعت به المعرفة . وعلى الأقوال كلها فهو مفهوم معنى الاستثناء وإن نفى التسوية غير مسلط على ما أضيف إليه غيره ، وقوله تعالى : ﴿ **فضل الله المجـاهدين على القاعدين درجة** ﴾ هو مبين لمعنى نفى المساواة . . قالوا : والمعنى فضل الله المجاهد على القاعد من أولى الضرر درجة واحدة لامتيـازه عنه بالجهاد بنفسه وماله ، ثم أخبر سبحانه وتعالى : أن الفريقين كليهما موعود بالحسنة .

فقال سبحانه : ﴿ **وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ أى : المجاهد والقاعد المضرور ، لاشتراكهما فى الإيمان . . قالوا : وفى هذا دليل على تفضيل الغنى المنفق على الفقير ، لأن الله أخبر أن المجاهد بماله ونفسه أفضل من القاعد ، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس . وأما الفقير فنفى عنه الحرج بقوله تعالى : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه** ﴾[١] فأين مقام من حكم له بالتفضيل إلى مقام من نفى عنه الحرج ، قالوا فهذا حكم القاعد من أولى الضرر والمجاهد . وأما القاعد من غير أولى الضرر فقال تعالى : ﴿ **وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما** ﴾[٢] وقوله ﴿ **درجات** ﴾ قيل : هو نصب على البدل من قوله ﴿ **أجرا عظيما** ﴾ وقيل : تأكيد له وإن كان بغير لفظه ، لأنه هو فى المعنى ، قال قتادة : كان يقال : الإسلام درجة ، والهجرة فى الإسلام درجة ، والجهاد فى الهجرة درجة ، والقتل فى الجهاد درجة . وقال ابن زيد : الدرجات التى فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع : وهى التى ذكرها الله ـ تعالى ـ فى سورة براءة إذ يقول تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ فهذه خمس ثم قال : ﴿ **ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم**

(١) سورة التوبة من الآية : ٩٢ .
(٢) سورة النساء من الآية : ٩٥ ،والآية : ٩٦

به عمل صالح ﴾[١] فهاتان اثنتان وقيل : الدرجات سبعون درجة بين الدرجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة . والصحيح أن الدرجات هى المذكورة فى حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى فى صحيحه ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : (من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فإن حقا على الله أن يدخله الجنة ، هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها) قالوا يا رسول الله أفلا نخبر الناس بذلك ؟ قال : (إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة)[٢] .

قالوا : وجعل سبحانه وتعالى : التفضيل الأول بدرجة فقط ، وجعله هنا بدرجات مغفرة ورحمة ، وهذا دليل على أنه يفضل على غير أولى الضرر فهذا تقرير القول وإيضاحه .

ولكن بقى أن يقال : إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا لزم ألا يستوى مجاهد وقاعد مطلقا ، فلا يبقى فى تقييد القاعدين بكونهم من غير أولى الضرر فائدة ، فإنه لا يستوى المجاهدون والقاعدون الذين هم أولو الضرر أيضا ، وأيضا فان القاعدين المذكورين فى الآية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير أولى الضرر لا القاعدون الذين هم أولو الضرر فإنهم لم يذكر حكمهم فى الآية ، بل استثناهم وبين أن التفضيل على غيرهم فاللام فى ﴿ القاعدين ﴾ للعهد ، والمعهود هم غير أولى الضرر لا المضرورن ، وأيضا فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل أجر المجاهد ، كما ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال : (إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال وهم بالمدينة ، حبسهم العذر) . وعلى هذا فالصواب أن يقال : الآية دلت على أن القاعدين عن الجهاد من غير أولى الضرر لا يستوون هم والمجاهدون وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ، ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين ، بل هذا النوع منقسم إلى معذور من أهل الجهاد عليه عذره وأقعده عنه ، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها ، وإنما أقعده العجز ، فهذا الذى تقضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد . وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفى التسوية وهذا لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل ، أو مقدماته نزل صاحبه فى الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام . كما دل عليه قوله - ﷺ - : (إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه)[٣] .

ومثله من سأل الشهادة بصدق بلغه الله سبحانه وتعالى : منازل الشهداء ولو مات على فراشه ونظائر ذلك كثيرة .

والقسم الثانى : معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزما تاما ، فهذا لا يستوى هو والمجاهد ، فى سبيل الله ، بل قد فضل الله المجاهدين عليه ، وإن كان معذورا لأنه لا نية له تلحقه

---

(١) سورة التوبة من الآية : ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) اخرجه البخارى فى (كتاب التوحيد) باب : وكان عرشه على الماء ج ٩ ص ١٥٣

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الديات) باب : قول الله تعالى ومن أحياها . . الخ ج ٩ ص ٥ بلفظ إذا التقى المسلمان بسيفهما الخ .

بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول . وقد قال النبى - ﷺ - فى حديث عثمان بن مظعون (إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته)[1] فلما كان القسم المعذور فيه التفضيل لم يجز أن يساوى بالمجاهد مطلقا ، ولا ينفى عنه المساواة مطلقا ، ودلالة المفهوم لا عموم لها . فإن العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة ، وعوارض الألفاظ ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على أن له عموما يجب اعتباره ، فإن أدلة المفهوم ترجع إلى شيئين : أحدهما التخصيص ، والآخر التعليل . فأما التحخصيص : فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور يقتضى نفى الحكم عما عداه وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا لا يقتضى العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم إلى ما يسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها ثبوت تفضيل فيه ، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه إما بشرط لا تجب مراعاته فى المنطوق ، وإما فى وقت دون وقت . بخلاف حكم المنطوق فإنه ثابت أبدا ، ونحو ذلك من فوائد التخصيص ، وإذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة ، فإثباته مجرد الحكم . وأما التعليل : فإنهم قالوا : ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضى نفى الحكم عما عداه ، وإلا لم يكن الوصف المذكور علة . وهذا أيضا لا يستلزم عموم النفى عن كل ما عداه ، وإنما غايته اقتضاؤه نفى الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفى عنها الوصف ، وأما نفى الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر ، وعلة أخرى ، فإن الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلل مختلفة وفى الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه ومثال هذا ما نحن فيه لأن قوله تعالى : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون** ﴾ لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقا من حيث الضرورة ، بل إن ثبت المساواة فإنها معللة بوصف آخر وهى النية الجازمة والعزم التام ، والضرر المانع من الجهاد فى ذلك الحال لا يكون مانعا من المساواة فى الأجر والله أعلم .

والمقصود الكلام على طبقات الناس فى الآخرة . وأما النصوص الداله على فضل الجهاد وأهله فأكثر من أن تذكر هنا ، فهذه الدرجات الثلاث هى درجات السبق ، أعنى درجة العلم والحدل والجهاد وبها سبق الصحابة . وأدركوا من قبلهم ، وفاتوا من بعدهم واستولوا على الأمد والبعيد ، وحازوا قصبات العلا ، وهم كانوا السبب فى وصول الإسلام إلينا ، وفى تعليم كل خير وهدى ، وسبب تنال به السعادة والنجاة ، وهم أعدل الأمة فيما ولوه ، وأعظمها جهادا فى سبيل الله والأمة فى آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة ، فلا ينال أحد منهم مسألة علم نافع إلا على أيديهم ، ومن طريقهم نالها ، ولا يسكن بقعة من الأرض آمنا إلا بسبب جهادهم وفتوحهم ، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدى إلا كانوا هم السبب فى وصولهم إليه ، فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف ، والقلوب بالإيمان ، وعمروا البلاد بالعدل والقلوب بالعلم ، والهدى ، فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلى يوم القيامة مضافا إلى أجر أعمالهم التى اختصوا بها ، فسبحان من يختص بفضله ورحمته من يشاء . وإنما نالوا هذا

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده من حديث جابر بن عتيك ح ٥ ص ٤٤٦ وهو جزء من حديث . وفى فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٤٥ رقم ١٧٥٩ عن مالك من رواية أحمد ، أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم فى المستدرك عن جابر بن عتيك ورمز له بالصحة .

بالعلم والجهاد والحكم بالعدل ، وهذه مراتب السبق التى يهبها الله من يشاء من عباده .

جزاء الصالحين

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ﴾[١]
يخبر سبحانه وتعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم وضع بره وإحسانه بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى : **﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾**[٢] وقال ههنا : **﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ﴾** .

الإحسان إلى الوالدين

قوله تعالى : **﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾**[٣] .

(روى الترمذى عند تفسيره لهذه الآية : حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد ابن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال أنزلت فى أربع آيات فذكر قصته ، وقال : قالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت) **﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾**[٤] الآية وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : **﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾** وهذا دليل على اقتران الإيمان ببر الوالدين كما قال سبحانه :**﴿واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ﴾**[٥] وقوله : **﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾**[٦] فالله تعالى : هو الموجد الحقيقى للإنسان والوالدان هما السبب المباشر ، والوالد يكرم ولده بالإنفاق ، والأم تكرمه بالإشفاق . وقد أمر الله تعالى : بطاعتهما إلا إذا أمرا ولدهما بالشرك عندئذ لا طاعة فى معصية الله ، ولكن مع مصاحبتهما بالمعروف إذ المرء يوم القيامة يحشر مع من أحب فى الله وكل نفس بما كسبت رهينة ،وكل امرىء بما

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٧
(٢) سورة النساء آية : ٤٠
(٣) سورة العنكبوت الآيتان : ٨ ، ٩
(٤) الحديث أخرجه الإمام الترمذى فى سننه فى (كتاب تفسير القرآن) باب : ومن سورة العنكبوت ج ٥ ص ٣٤١ ، ٣٤٢ رقم ٣١٨٩ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
(٥) سورة النساء من الآية : ٣٦ .
(٦) سورة الإسراء من الآية : ٢٣ .

كسب رهين . فليحرص الإنسان على سلامة دينه مهما كانت الأمور إذ المرجع والمآب إلى الله فى يوم يفر المرء فيه من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه فليحرص المسلم على أن يكون مع الموحدين الصادقين يوم البعث قال تعالى فى سورة لقمان : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[1] .

فكن بارا بوالديك وأطعهما إلا فيما يغضب الله ، ولا تشرك بالله وإن قطعت أو حرقت واحرص على أن تكون ممن قال فيهم بعد ذلك : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾[2] .

الإسلام دين البر والصلة

عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : (الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . رواه البخارى ومسلم)[3] . (ومعنى بر الوالدين : طاعتهما) وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه)[4] رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ـ معنى مملوكا : عبدا ملكه الغير .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء رجل الى نبى الله ـ ﷺ ـ فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : (أحى ولداك ؟ قال : نعم . قال : فيهما فجاهد) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى[5] معنى : فيهما فجاهد : فأكرمهما محبة فى ثواب الله لتنال ثواب الجهاد . بالانقياد إلى أوامرهما .

وفى رواية لمسلم : أقبل رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله . قال : (فهل من والديك أحد حى ؟ قال : نعم ، بل كلاهما حى . قال : فتبتغى الأجر من الله ؟ قال : نعم . . قال : فارجع إلى والديك ، فأحسن صحبتهما)[6] . معنى (فتبتغى) : فتطلب .

---

(١) سورة لقمان الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٩

(٣) الحديث فى رياض الصالحين للإمام النووى رقم ٣١٠ وقال المحقق : (متفق عليه) يعنى رواه البخارى ومسلم فى باب : بر الوالدين وصلة الأرحام . ورواه الترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣١٠ رقم ١٨٩٨ بألفاظ متقاربة ومتحدة فى المعنى . وقال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

(٤) انظر رياض الصالحين باب : بر الوالدين وصلة الأرحام رقم ٣١١ قال المحقق : رواه مسلم . فى كتاب البر والصلة والآداب وأخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب : ما جاء ، فى حق الوالدين رقم ١٩٠٦ ج ٤ ص ٣١٥ وقال : حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سهيل بن صالح ، وقد روى سفيان الثورى وغير واحد عن سهيل بن أبى صالح هذا الحديث . كما رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه .

(٥) انظر رياض الصالحين باب : بر الوالدين وصلة الأرحام رقم ٣١٩ وقال المحقق : متفق عليه أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة ، والآداب باب : بر الوالدين وأنهما أحق ، وأخرجه البخارى : فى (كتاب الجهاد) باب : الجهاد بإذن الأبوين .

(٦) الحديث لمسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب : بر الوالدين وأنهما أحق به رقم ٢٥٤٩ ج ٤ ص ١٩٧٥ .

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقال : جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبكيان ، فقال : (ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما) رواه أبو داود[1] معنى (أضحكهما) : أدخل عليهما السرور وأجلب لهما الفرح .

وعن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول ـ ﷺ ـ فقال : (هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواى . قال : أذنا لك ؟ قال : لا . قال : فارجع إليهما ، فاستأذنهما ، فإن أذنا لك فجاهد ، وإلا فبرهما)[2] رواه أبو داود . معنى (برهما أحسن إليهما بطاعتك .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ يستأذنه فى الجهاد ، فقال : (أحى والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد)[3] رواه مسلم وأبو داود وغيره وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى رجل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : (هل بقى من والديك أحد ؟ قال : أمى . قال : قابل الله فى برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد)[4] رواه أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط وإسنادهما جيد ، ميمون بن نجيح وثقه ابن حبان ، وبقية رواته ثقات مشهورون . ومعنى (فأنت حاج ومعتمر ومجاهد) أى إن أرضيت أمك حزت ثواب الذى حج واعتمر وحارب فى سبيل الله تعالى ترغيب فى إطاعة الأم .

وروى عن طلحة بن معاوية السلمى ـ رضى الله عنه ـ قال : أتيت النبى ـ ﷺ ـ فقلت : يا رسول الله إنى أريد الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : (أمك حية ؟ قلت : نعم قال النبى ـ ﷺ ـ : (الزم رجلها فثم الجنة)[5] رواه الطبرانى .ومعنى : (الزم رجلها فثم الجنة) : الخضوع لها واقترب منها وراعها واخدمها فهناك الجنة بسبب رضاها تحظى بنعيم الله (الجنة تحت أقدام الأمهات)[6] .

وعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا قال : يا رسول الله (ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال : هما جنتك ونارك)[7] رواه ابن ماجه من طريق على بن يزيد عن القاسم . وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله أردت أغزو ، وقد جئت أستشيرك فقال : (هل

---

(١)الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب الجهاد) باب : فى الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٨ رقم ٢٥٢٨ وقال الخطابى : وأخرجه النسائى : ٣١٠٥ (فى الجهاد) باب الرخصة لمن له والدان ص ٥ ص ١٠ وابن ماجه حديث ٨٢٢٧ فى الجهاد باب : الرجل يغزو وله أبوان .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى (كتاب الجهاد) باب : الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٩ رقم ٢٥٣٠ .

(٣) أخرجه مسلم فى(كتاب البر والصلة والآداب) باب : بر الوالدين ج ٤ ص ١٩٧٥ رقم ٢٥٤٩ .

(٤) الحديث فى مجمع الزوائد (فى كتاب البر والصلة) باب : ماجاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير ميمون بن نجيح ووثقه ابن حبان .

(٥) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمى : رواه الطبرنى عن ابن إسحاق وهو مدلس عن محمد بن طلحة ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٦) فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة ـ باب . ما جاء فى البر وحق الوالد ج ٨ ص ١٣٨ عن معاوية بن جاهمة بلفظ : (الزمها فإن الجنة تحت أقدامها) وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

(٧) الحديث أخرجه ابن ماجة فى (كتاب الأدب) باب : بر الوالدين ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٣٦٦٢ قال فى الزوائد : قال ابن معين : على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة : هى ضعيفة كلها ، وقال الساجى : اتفق أهل النقل على ضعف على بن يزيد .

لك من أم ؟ قال : نعم . قال : فالزمها . فإن الجنة عند رجلها)[١] رواه ابن ماجه والنسائى ، واللفظ له والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ـ معنى (فإن الجنة عند رجلها) كناية عن شدة إكرامها ورضاها والتذلل طاعة لها . قال تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾[٢] .

ورواه الطبرانى بإسناد جيد ، ولفظه قال : أتيت النبى ـ ﷺ ـ أستشيره فى الجهاد ، فقال النبى ـ ﷺ : ألك والدان ؟ قلت : نعم . قال : الزمهما فإن الجنة تحت أرجلهما .

وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا أتاه فقال : إن لى امرأة ، وإن أمى تأمرنى بطلاقها ؟ فقال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فأضع هذا الباب أو احفظه)[٣] رواه ابن ماجه والترمذى واللفظ له ، وقال : ربما قال سفيان : أمى ، وربما قال : أبى ، قال الترمذى حديث صحيح .

ـ معنى . (فأضع) فأذهب ، من أضاع بمعنى ترك.ورواه ابن حبان فى حديثه ولفظه : أن رجلا أتى أبا الدرداء ، فقال : إن أبى لم يزل بى حتى زوجنى ، وإنه الآن يأمرنى بطلاقها ؟ قال : ما أنا آمرك أن تعق والديك ولا بالذى آمرك أن تطلق امرأتك غير أنك إن شئت حدثتك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول : (الوالد أوسط أبواب الجنة ، فحافظ على ذلك الباب إن شئت أو دع) ، قال : فأحسب عطاء قال : فطلقها[٤] .

ـ معنى (دع) : اترك وتجنب .

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (من سره أن يمد له فى عمره ويزاد فى رزقه فليبر والديه ، وليصل رحمه)[٥] رواه أحمد ، ورواته محتج بهم فى الصحيح ، وهو فى الصحيح باختصار ذكر البر .

ـ معنى : (فليبر والديه) فليكرمهما .

معنى : (وليصل رحمه) وليود بالهدية والزيارة أقاربه .

وعن معاذ بن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من بر والديه طوبى له زاد الله فى عمره)[٦] رواه أبو يعلى والطبرانى والحاكم والأصبهانى ، كلهم من طريق زبان بن قائد عن سهل بن

---

(١) الحديث فى مجمع الزوائد ـ كتاب البر والصلة ـ باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح . وأخرجه الحاكم فى المستدرك باختلاف يسير (فى كتاب البر والصلة) باب . بر أمك ثم أباك . . الخ ج ٤ ص ١٥١ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) سورة الإسراء آية : ٢٤ .

(٣) وأخرجه ابن ماجه فى سننه (فى كتاب الأدب) باب : بر الوالدين ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٣٦٦٣ الحديث أخرجه الترمذى فى سننه (فى كتاب البر والصلة) باب : ما جاء من الفضل فى رضا الوالدين ج ٤ ص ٣١١ رقم ١٨٩٩ وقال : هذا حديث صحيح .

(٤) انظر الحاكم فى المستدرك (فى كتاب البر والصلة) باب : الوالد أوسط أبواب الجنة ج ٤ ص ١٥٢ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ـ مسند أنس بن مالك ج ٣ ص ٢٦٦ وانظره فى البخارى فى (كتاب البيوع) باب : من أحب البسط فى الرزق . وفى مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب : صلة الرحم وتحريم قطعها ج ٤ ص ١٩٨٢ رقم ٢٥٥٧ .

(٦) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٧ وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى والطبرانى وفيه زبان بن قائد وثقه أبو حاتم وضعفه غيره ، وبقية رجال أبى يعلى ثقات .

معاذ عن أبيه ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

ـ ومعنى (طوبى) : شجرة فى الجنة يملك قدر ظلها البار بوالديه . وعن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول ـ الله ـ ﷺ ـ (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر)[1] رواه ابن ماجه وابن حِبان فى صحيحه ، واللفظ له والحاكم بتقديم وتأخير وقال : صحيح الإسناد .

ـ معنى : (ليحرم) ليمنع ويضيق عليه . وعن سلمان ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر)[2] رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، ومن أتاه أخوه متنصلا فليقبل ذلك محقا كان أو مبطلا ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض)[3] رواه الحاكم من رواية سويد عن أبى رافع عنه وقال : صحيح الإسناد .

[قال الحافظ] : سويد عن قتادة هو ابن عبدالعزيز واه .

ـ معنى (متنصلا) متبرئا عاتبا معترفا بذنبه . بر . يبر من باب علم وضرب .

ومعنى (محقا) أى صاحب حق أو كان على باطل ، يترك الجدال ، والمعنى يقبل اعتذار من اعتذر ويكون سهلا لينا كريما ظريفا لا يحمل ضغنا ، فإن كان جافا غليظ الطبع طرد من الشرب من الحوض يوم القيامة .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة)[4] رواه مسلم [رغم أنفه] : أى لصق بالرغام ، وهو التراب .

وعن جابر ، يعنى ابن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال : صعد النبى ـ ﷺ ـ المنبر فقال : (آمين ، آمين ، آمين . قال : أتانى جبريل ـ عليه السلام ـ ، فقال : يا محمد : من أدرك أحد أبويه فمات ، فدخل النار ، فأبعده الله ، فقل آمين ، فقلت : آمين ، فقال : يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له ، فأدخل النار ، فأبعده الله فقل آمين ـ فقلت : آمين . قال : ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات ، فدخل النار ، فأبعده الله فقل : آمين فقلت : آمين)[5] .

---

(١)الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه (فى كتاب الفتن) باب . العقوبات ج ٢ ص ١٣٣٤ مع اختلاف فى بعض ألفاظه واتحاد فى المعنى وقال فى الزوائد : إسناده حسن وأخرجه ابن حبان فى صحيحه باب :(الأدعية) ذكر الإخبار عما يستحب للمرء من المواظبة على الدعاء ج ٢ ص ١١٦ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب القدر) باب : ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء ج ٤ ص ٤٤٨ رقم ٢١٣٩ .

(٣) الحديث أخرجه الحاكم : فى المستدرك (فى كتاب البر والصلة) باب : من بر والديه ج ٤ ص ١٥٤ وقال الذهبى فى لمخيص .. قلت : سويد ضعيف .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم فى (كتاب البر والصلة) باب : فى بر الوالدين وأنهما أحق باب : رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر ، فلم يدخل الجنة ج ٤ ص ١٩٧٨ رقم ١٥٥١ .

(٥) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٩ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى بأسانيد وأحدها حسن .

رواه الطبرانى بأسانيد أحدها حسن ، ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة إلا أنه قال فيه : « **من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين** » رواه أيضا من حديث الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده ، وتقدم ورواه الحاكم وغيره من حديث كعب بن عجرة ، وقال فى آخره . (فلما رقيت الثالثة قال : بعد من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما ، فلم يدخلاه الجنة . قلت آمين)[1] رواه الطبرانى من حديث ابن عباس بنحوه ، وفيه : (ومن أدرك والديه أو أحدهما فلم يبرهما دخل النار ، فأبعده الله وأسحقه . قلت : آمين)[2] .

- ومعنى : آمين (اللهم استجب) .

ومعنى (أسحقه) أهلكه وأبعده عن رحمته .

وعن مالك بن عمرو القشيرى - رضى الله عنه - : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله زاد فى رواية : وأسحقه)[3] رواه أحمد من طرق أحدها حسن . وروى البخارى قال : (بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غار فى الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها لله - عز وجل - صالحة ، فادعوا الله بها لعله يفرجها ، فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، ولى صبية صغار كنت أرعى ، فإذا رحت عليهم فحلبت لهم بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى ، وإنه نأى الشجر فما أتيت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب ، فقمت عند رأسيهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله - عز وجل لهم حتى رأوا منها السماء[4] .

- معنى (غار) بيت منقور فى الجبل .

معنى (فانحطت) نزلت .

معنى (يفرجها) يزيلها ويوسعها .

معنى (يتضاغون) يبكون جوعا .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك)[5] رواه البخارى ومسلم .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك جزء من حديث فى كتاب البر والصلة باب : لعن الله العاق لوالديه .. الخ ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٥٠ ، ٣٤٤ .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى فى (كتاب الأدب) باب : دعاء من بر والديه ج ٨ ص ٣ وهذا جزء من حديث طويل .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب « البر والصلة والآداب » باب بر الوالدين وأيهما أحق به ج ٤ ص ١٩٧٤ برقم ١ - ٢٥٤٨ وفى حديث قتيبة : من أحق بحسن صحابتى ؟ ولم يذكر الناس .
وأخرجه البخارى فى صحيحه (فى كتاب الأدب) باب : من أحق الناس بحسن الصحبة ج ٨ ص ٢ .

- الرجل هو جدبهز بن حكيم . قال ابن بطال : مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، قال وكان ذلك لصعوبة الحمل ، ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ، ثم تشارك الأب فى التربية ، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين** ﴾[١] من سورة لقمان . فسوى بينهما فى الوصاية وخص الأمور الثلاثة ، وقال القرطبى : المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر وقال عياض : وذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل فى البر على الأب .

وقد رتب - ﷺ - فى حديث (أمك وأباك ثم أختك وأخاك ثم أدناك أدناك) أى تقدم القرابة من ذوى الرحم . وأخرج أحمد والنسائى وصححه الحاكم من حديث عائشة : سألت النبى - ﷺ - أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال : (زوجها ! قلت فعلى الرجل قال أمه)[٢] .

وعن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله - ﷺ - ، فأستفتيت رسول الله - ﷺ - . قلت : قدمت على أمى ، وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك)[٣] رواه البخارى، ومسلم وأبو داود . ولفظه قالت : (قدمت على أمى راغبة فى عهد قريب ، وهى راغمة مشركة ، فقلت : يا رسول الله إن أمى قدمت على . وهى راغمة مشركة أفأصلها ! قال نعم : صلى أمك) .

[راغبة] أى طامعة فيما عندى تسألنى الإحسان إليها .

[راغمة] أى كارهة للإسلام .

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد)[٤] رواه الترمذى ، ورجح وقفه ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، قالا : صحيح على شرط مسلم ، ورواه الطبرانى من حديث أبى هريرة إلا أنه قال : (طاعة الله طاعة الوالد ، ومعصية الله معصية الوالد)[٥] ورواه البزار من حديث عبد الله بن عمر ، أو ابن عمرو ، ولا يحضرنى أيهما .

---

(١) سورة لقمان الآية : ١٤ .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم : فى المستدرك (فى كتاب البر والصلة) باب بر أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب ج ٤ ص ١٥٠ وسكت عنه الحاكم . والذهبى .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى مع اختلاف فى بعض ألفاظه فى (كتاب الأدب) باب : صلة المرأة أمها ولها زوج ج ٨ ص ٥ وأخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب الزكاة) باب : فضل النفقة والصدقة على الأقربين ... الخ ج ٢ ص ٦٩٦ رقم ٤٩ - ١٠٠٣ وأخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الزكاة) فى باب : الصدقة على أهل الذمة ج ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ رقم ١٦٦٨ .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء من الفضل فى رضا الوالدين ج ٤ ص ٣١١ بلفظ : « رضا الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد » .

وفى الحاكم : بلفظ : (رضا الرب) الخ (فى كتاب البر والصلة) باب رضا الرب .. الخ ج ٤ ص ١٥٢ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(٥) وفى مجمع الزوائد : (فى كتاب البر والصلة) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٦ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن كيسان وهو لين عن إسماعيل بن عمرو البجلى وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه أبو حاتم وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح .

ولفظه قال : (رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين ، وسخط الله تبارك وتعالى فى سخط الوالدين)[١] .

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : (أتى النبى ـ ﷺ ـ رجل فقال : إنى أذنبت ذنبا عظيما فهل له من توبة ؟ فقال : هل لك من أم ؟ قال : لا . قال : فهل لك من خالة ؟ قال : نعم . قال : فبرها)[٢] رواه الترمذى ، واللفظ له . وابن حبان فى صحيحه والحاكم إلا أنهما قالا : هل لك والدان بالتثنية ، وقال الحاكم : صحيح على شرطهما .

ـ معنى برهما : أحسن إليهما . والبر : ضد العقوق . يبر خالقه : يشكره ويطيعه .

وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى ـ رضى الله عنه ـ قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ـ ﷺ ـ إذ جاء رجل من بنى سلمة ، فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما)[٣] رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه . وزاد فى آخره . قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه . قال : فاعمل به .

ـ معنى (الصلاة عليهما) : الدعاء لهما بالنعيم . معنى (الاستغفار لهما) : أطلب من الله تعالى أن يعفو عن زلاتهما . معنى (إنفاذ عهدهما) : العمل بوصيتهما . معنى (صلة الرحم) مودة الأرقاب المحارم وغير المحارم . معنى (إكرام صديقهما) : رعاية واجب أصحابهما .

وعن عبد الله دينار عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة ، فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت على رأسه . قال ابن دينار : فقلت له : أصلحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه)[٤] رواه مسلم .

ـ معنى (الأعراب) : سكان البوادى يتحملون خشونة العيش وشظفه . معنى (أهل ود أبيه) إن أعظم الصلة لأصحاب أبيك الذين كان يودهم ويحبهم ويعاملهم .

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت لا . قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه

---

(١) وأخرجه البزار فى كشف الأستار عن زوائده فى (كتاب البر والصلة) باب. بر الوالدين ج ٢ ص ٣٦٦ رقم ١٨٦٥ وقال البزار : لا نعلم رواه عن يحيى بن سعيد إلا عصمة .

(٢) انظر كتاب البر والصلة فى سنن الترمذى ، باب : ما جاء فى بر الخالة ج ٤ ص ٣١٣ رقم ١٩٠٤ بلفظ : (الخالة بمنزلة الأم) .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب الأدب) باب فى بر الوالدين ج ٥ ص ٣٥٢ رقم ٥١٤٢ . وأخرجه ابن ماجه (فى كتاب الأدب) باب : صل من كان أبوك يصل ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٣٦٦٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب البر والصلة والآداب) باب : فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما ج ٤ ص ١٩٧٩ رقم ٢٥٥٢ .

بعده ، وإن كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك)[1] رواه ابن حبان فى صحيحه .

- معنى (يصل أباه) يقدم لأبيه صلة ورحمة . معنى (إخوان أبيه) أصحابه .

فوائد بر الوالدين من فقه أحاديث سيدنا رسول الله - ﷺ -

أولا : إكرامهما من العمل الذى يحبه الله - تعالى - ويساوى ثواب الجهاد فى سبيل الله تعالى ، بل هو أفضل .

ثانيا : يساوى ثواب الحاج والمعتمر .

ثالثا : يوصل إلى نعيم الجنة (الزم رجلها) .

رابعا : يزيد فى العمر ، وفى الأرزاق ويسبب البركة فى المال (من سره) بسبب إكرامهما الله النجابة فى الأبناء والطهارة والهداية والتوفيق فتشب على محبة الوالدين (بروا آباءكم) .

خامسا : فرصة سانحة لضمان دخول الجنة ومن ضيعها خاب (ورغم أنفه) .

سادسا : يزيل الهموم ويجلب اليسر ويضمن النجاة (لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله) .

سابعا : لقد قرن الله رضاه - سبحانه - برضاهما .

الآيات الدالة على طلب إكرام الوالدين

ا - ﴿ (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾[2] سورة النساء .

ب - وقال تعالى : **﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾**[3] من سورة العنكبوت .

أى : بإيتائهما فعلا ذا حسن ، والآية نزلت : فى سعد بن أبى وقاص وأمه حمنة ، فإنها لما سمعت بإسلامه حلفت أنها لا تنتقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ، ولبثت ثلاثة أيام كذلك ، وكذا التى فى لقمان والأحقاف وقد أخرج مسلم من طريق مصعب بن سعد عن أبيه قال : (حلفت أم سعد لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه قالت : زعمت أن الله أوصاك بوالديك فأنا أمك ، وأنا آمرك بهذا ، فنزلت : **﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾** .

(ج) : وقال تعالى : **﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى**

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه : باب : حق الوالدين باب : ذكر البيان بأن بر المرء بإخوان أبيه وصلته إياهم بعد موته من وصلة رحمه فى قبره ج ١ ص ٣٢٩ رقم ٤٣٣ .

(٢) سورة النساء الآية : ٣٦ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٨ .

أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين ❊ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾[١] من سورة الأحقاف.

(د) وقال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾[٢] من سورة الإسراء .

(أف) : فلا تضجر مما يستقذر منهما وتستثقل من مؤونتهما ولا تزجرهما عمالا يعجبك بإغلاظ (قولا كريما) : جميلا لا شراسة فيه ، وتذلل لهما وتواضع (من الرحمة) : من فرط رحمتك عليهما ، وادع الله ـ تعالى ـ أن يرحمهما برحمته الباقية . (للأوابين) : للتوابين (غفورا) : ما فرط منهم عند حرج الصدر من أذية أو تقصير .

هـ ـ وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير❊وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٣] من سورة لقمان .

فريق من الناس

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ أى بلسانه لا بقلبه فقد تلفظ بها لسانه دون أن تستقر كلمة الإيمان مع قلبه فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾[٥] .

قال الزجاج : ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله . أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وأبو ليلى عن أنس قال:قال ـ ﷺ ـ : (لقد أوذيت فى الله ، وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت فى الله ، وما

---

(١) سورة الأحقاف الآيات : ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة الإسراء الآيات ٢٣ ـ ٢٥
(٣) سورة لقمان الآية : ١٤ ، ١٥ .
(٤) سورة العنكبوت الآيتان : ١٠ ، ١١
(٥) سورة الحج آية : ١١

يخاف أحد ، ولقد أتت على ثالثة ، ومالى ولعيالى طعام يأكله ذو كبد إلا مايوارى إبط بلال)[١] .

والخلاصة أن هناك فريقا يقول : آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته ، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه ، جعل فتنة الناس فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة ، فارتد عن إيمانه ورجع إلى كفره ، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى ، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان ، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، وعذاب الناس له دافع ، وعذاب الله ليس له دافع ، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده العقاب الأليم ، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا .

وقوله تعالى : ﴿ **ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم** ﴾[٢] يفسره قوله تعالى : ﴿ **الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين** ﴾[٣] وقوله جل شأنه : ﴿ **فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين**)[٤] وهذه حال المنافقين فى كل عصر ومكان . عالة على الأمة فى السراء وسوس ينخر فى عظامها فى البأساء والضراء وحين البأس وسبحانه القائل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ۞ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة** ﴾[٥] وسبحان من يقول : ﴿ **فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ۞ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا** ﴾[٦] .

هؤلاء المراءون المخادعون الله ـ تعالى ـ يعلم ما فى صدورهم من الخبايا والأمراض ، ومن ثم جاء تذييل الآية . ﴿ **أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين** ﴾ والمنافقون فريق منهم ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[٧] وليظهرن الله مدلول علمه لعباده المؤمنين فيختبر الناس بالسراء والضراء والاختبار هو الذى يمحص ويميز المؤمنين من المنافقين قال تعالى : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ۞ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ۞ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ـ مسند أنس ج ٣ ص ١٢٠ وأخرجه ابن ماجه فى سننه بلفظه كما جابهُ المؤلف فى كلمة : (ولبلال) (وما وارى) (فى المقدمة) باب فضل سلمان وأبى ذر والمقداد ج ١ ص ٥٤ رقم ١٥١ وقال : أخرجه الترمذى فى آخر باب الزهد ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) سورة العنكبوت من الآية : ١٠

(٣) سورة النساء من الآية : ١٤١ .

(٤) سورة المائدة من الآية : ٥٢ .

(٥) سورة المائدة الآيتان: ٥١ ، ٥٢ .

(٦) سورة النساء الآيتان : ٦٢ ـ ٦٣

(٧) سورة البقرة الآيات : ٨ ـ ١٠ .

الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[1] وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ﴾[2] وصدق الله إذ جمع تلك المعانى فى قوله ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين * وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[3]

ألا يعلم هؤلاء الضالون المضلون أن كل إنسان يوم القيامة سيحمل أوزاره دون أن يحملها عنه غيره قال تعالى :﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾[4] وقال : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[5] وقال جل شأنه : ﴿يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميما * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه * كلا ﴾[6] وقال سبحانه : ﴿ أفرأيت الذى تولى * وأعطى قليلا وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى ﴾[7]

وقال عز من قائل : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[9] وقال عظمت حكمته : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[10]

غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

وفى قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾[11] إخبار عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ ـ ١٤٢

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٧٩ .

(٣) سورة العنكبوت آية : ١١ ـ ١٣ .

(٤) سورة الطور من الآية : ٢١ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ١٨ ـ .

(٦) سورة المعارج الآيات : ٨ ـ ١٥

(٧) سورة النجم الآيات : ٣٣ ـ ٤٢ .

(٨) سورة الإسراء من الآية : ١٥ .

(٩) سورة النحل الآية : ١١١ .

(١٠) سورة عبس الآيات : ٣٣ ـ ٣٧ .

(١١) سورة العنكبوت آية : ١٢ .

الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا (ولنحمل خطاياكم) أى : وآثامكم إن كانت لكم آثام فى ذلك علينا ، وفى رقابنا كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى ، قال الله - تعالى - تكذيبا لهم : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون ﴾[1] أى : فيما قالوه أنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم فإنه لا يحمل أحد وزر أحد قال الله تعالى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميما• يبصرونهم ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾[4] إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾[5] الآية وفى الصحيح (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا)[6] وفى الصحيح (ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل)[7] وقوله تعالى : ﴿ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان ، وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا .

فقال : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان بن حفص بن أبى العالية ، حدثنا سليمان بن حبيب المحاربى ، عن أبى أمامة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - بلغ ما أرسل به ثم قال : (إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتى وجلالى لا يحوزنى اليوم ظلم ثم ينادى مناد فيقول أين فلان ابن فلان ؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال فيشخص الناس

---

(١) سورة العنكبوت آية : ١٢ .
(٢) سورة فاطر من الآية : ١٨ .
(٣) سورة المعارج الآية : ١٠ ، ١١ .
(٤) سورة العنكبوت من الآية : ١٣ .
(٥) سورة النحل من الآية : ٢٥ .
(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم فى (كتاب العلم) باب : من سن سنة حسنة أو سيئة الخ ج ٤ ص ٢٠٦٠ .
(٧) انظر سنن الترمذى (فى كتاب العلم) باب : ما جاء الدال على الخير كفاعله ج ٥ ص ٤٢ رقم ٢٦٧٣ بلفظ ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم كفل من دمها ، وذلك لأنه أول من أسن القتل : (وقال عبدالرزاق : سن القتل) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
وانظره فى تفسير ابن كثير سورة العنكبوت آية : ١٣ ج ٣ ص ٣١ وانظره ايضا فى مختصر ابن كثير فى تفسير سورة المائدة آية : ٣١ ج ١ ص ٥٠٨ .

إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدى الرحمن - عز وجل - ثم يأمر المنادى فينادى من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدى الرحمن فيقول الرحمن : «اقضوا عن عبدى ، فيقولون كيف نقضى عنه ؟ فيقول خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة ، وقد بقى من أصحاب الظلامات فيقول : اقضوا عن عبدى . فيقولون لم يبق له حسنة فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه »[1] ثم نزع النبى - ﷺ - بهذه الآية الكريمة ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[2] وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من غير هذا الوجه (إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإذا لم تبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه)[3] وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبى حمزة الثمالى ، عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : قال لى رسول الله - ﷺ - (يا معاذ إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه ، فلا ألفينك تأتى يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك ﴾ .

نوح وقومه

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

تفسير المفردات والمعنى الجملى

(الطوفان) ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أوموت أو ظلام ليل .

وهذه قصة نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمرا ، دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، ومع هذا فلم يؤمن معه إلا قليل ، وقد سيقت تسلية وعبرة لمن يعتبر ، وقد ذكر بعدها قصص بعض الأنبياء بهذا الغرض .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا ﴾ - وقد ورد أنه أول نبى أرسل إلى قومه ، وكانوا أهل كفر وفسق وعصيان ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ويذكرهم بيوم القيامة ، ولكنهم كانوا يردون عليه أسوأ رد وأفحشه ، وقد بذل نوح منتهى ما فى وسعه كبشر ، وطال الزمن وهو يدعوهم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة العنكبوت آية : ١٢ ، ١٣ وقال المحقق : أخرجه أبى حاتم عن أبى أمامة مرفوعا .
(٢) سورة العنكبوت آية : ١٣ .
(٣) انظره فى مختصر تفسير ابن كثير تفسير سورة العنكبوت آية رقم ١٣ ج ٣ ص ٣١ .

أن يقلعوا عن عبادة الأصنام فلم يزدهم دعاؤه إلا إعراضا واستكبارا ، وقال نوح : ﴿ رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ﴾[١] ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فقال لما ضاق به الأمر :(رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) وكان أن صنع السفينة وركبها والمؤمنون وترك الكفار فغرقوا جميعا ، وأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، وأنجاه الله هو ومن معه فى الفلك المشحون ، وجعل ربك سفينة نوح آية وعبرة للعالمين ، فهل من مدكر !!

قال تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾[٢] . وقال : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ وقال : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾[٣] وقال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر.وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر.وحملناه على ذات ألواح ودسر.تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٤] .

* قصة إبراهيم وقومه *

قوله تعالى :وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

---

(١) سورة نوح الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) سورة الفرقان آية : ٣٧ .
(٣) سورة النجم الآية : ٥٢ .
(١) سورة القمر الآيات : ٩ ـ ١٧ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) * فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

معنى المفردات

(أوثانا) : الوثن هو ما اتخذ من جص أو حجر ، والصنم : ما كان من معدن ، والتمثال : ما لوحظ فيه أن يكون مثالا لكائن حى .

(إفكا) : الإفك الكذب مأخوذ من الإفك وهو صرف الشىء عن وجهه ، والكذب : كلام مصروف عن وجهه (النشأة الآخرة) : هى إعادة الخلق فى الآخرة (تقلبون) : تردون (ولى) : صديق وناصر أو متولى أمر الإنسان (حرقوه) : أحرقوه (مودة بينكم) : لتتوادوا بينكم وتتواصلوا .

وتلك قصة إبراهيم أبى الأنبياء فانظر ياأيها الرسول كيف كان موقفه مع قومه ، وما انتهى إليه أمره وأمرهم والأمر كله لله .

المناسبة وإجمال المعنى:

بعد أن قص علينا القرآن العظيم قصة نوح وقومه أُتبع ذلك بقصة إبراهيم مع قومه . ولقد أقام إبراهيم دعوته كما أقامها جميع الأنبياء على التوحيد الخالص فأمرهم بعبادة الله وحده وهدم عبادة الأوثان لأنها لا تملك ضرآ ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وحذرهم من عاقبة التكذيب إذ فى ذلك هلاكهم ، وأن ليس عليه إلا البلاغ المبين .

وبعد أن أقام الأدلة على الوحدانية ، ثم الرسالة بقوله : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[1] شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور وهذه الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها

(١) سورة العنكبوت من الآية : ١٨ .

من بعض فى الذكر الإلهى ، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث . وبعد أن أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدانية وإرسال الرسل والحشر والجزاء ، أردف هذا ببيان أنهم جحدوا وعاندوا ودفعوا الحق بالباطل بعد أن ألزمهم الحجة ، ولم يجدوا للدفاع سبيلا وحينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره .

فقالوا لقومهم : ﴿ ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ فأنجاه الله من كيدهم وجعلها عليه بردا وسلاما ، فعاد إلى لومهم بعد أن أخرج من النار وقال إن تمسكتم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل وبرهان ، بل عن تقليد وحفظ للمودة بينكم ، فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة ولكنكم يوم القيامة تتحاجون حين يزول عمى القلوب ، وتستبين الأمور للبيب الأريب ، ويكفر بعضكم بعضا ، فيقول العابد : ما هذا معبودى ، ويقول المعبود : ما هؤلاء بعبدتى ، ويلعن بعضكم بعضا ، فيقول هذا : لذاك أنت الذى أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ، ويقول ذاك لهذا : أنت الذى أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادته ، ويود كل منكم أن يبعد عن صاحبه ، وأنى لهما ذلك ، وهما مجتمعان فى النار ؟ وما لهما ناصر يخلصهما منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها . وبعد أن ذكر إنجاء إبراهيم من النار ، وأن ذلك معجزة له لا يفقه قدرها إلا من كان ذكى الفؤاد ، قوى الفطنة ، يفهم الدلائل التى أودعها الله فى الكون أردف هذا بيان أنه لم يصدقه بما رأى إلا لوط ـ عليه السلام ـ ، فقد آمن به ، واستقر الإيمان فى قلبه . ثم بين أن إبراهيم لما يئس من إيمان قومه هاجر إلى بلاد الشام ـ فرارا بدينه وقصدا إلى إرشاد الناس وهدايتهم ، ثم عدد نعمه العاجلة عليه فى الدنيا بأن آتاه بنين وحفدة ، وجعل فيهم النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ، وآتاه الذكر الحسن إلى يوم القيامة ، ونعمه الآجلة أنه مكتوب فى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[1] .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيده فى الشكر ، فإنه المشكور على النعم لا مجرى لها غيره فقال لقومه : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ أى : أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أى : إذا فعلتم ذلك جعل لكم الخير فى الدنيا والآخرة

---

(١) سورة العنكبوت الآيات : ١٦ - ١٨ .

واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة ، ثم أخبر تعالى : أن الأصنام التى يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها فسميتموها آلهة ، وإنما هى مخلوقة مثلكم ، هكذا رواه العراقى عن ابن عباس .

وروى الوالبى عن ابن عباس : وتصنعون إفكا أى تنحتونها أصناما وبه قال مجاهد فى رواية : وعكرمة والحسن وقتادة .

وهى لا تملك لكم رزقا ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر كقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ﴿ رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ ولهذا قال ﴿ فابتغوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عند الله الرزق ﴾ أى لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئا ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله .

كلمة عن الشكر

الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ، قال غير واحد من السلف : (الصبر نصف الإيمان) وقال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - (الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر) ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر فى قوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ فى سورة إبراهيم وفى سورة حمعسق ، وفى سورة سبأ ، وفى سورة لقمان ، وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات :

أحدهما:أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية وهى توجه إلى شطرين فعل وترك ، فالفعل هو العمل بطاعة الله ، وهو حقيقة الشكر والترك هو الصبر عن المعصية . والدين كله فى هذين الشيئين . فعل المأمور وترك المحظور .

الاعتبار الثانى : أن الإيمان مبنى على ركنين : يقين وصبر ، وهما الركنان المذكوران فى قوله تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[1] فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهى والثواب والعقاب ، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه ، ولا يصل له التصديق بالأمر والنهى إنه من عند الله ، وبالثواب والعقاب إلا باليقين ، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر فصار الصبر نصف الإيمان ، والنصف الثانى الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه .

الاعتبار الثالث : أن الإيمان قول وعمل . والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح . وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنا ، كما قال عن قوم فرعون ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾[2] .

وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح : ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم

---

(١) سورة السجدة الآية : ٥٤

(٢) سورة النمل من الآية : ١٤

الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾[١] وقال موسى لفرعون : **﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾**[٢] فهؤلاء حصل لهم قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين ، وكذلك من قال بلسانه ماليس فى قلبه لم يكن بذلك مؤمنا ، بل كان من المنافقين ، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتى بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة .

فيحب الله ورسوله ، ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداءه ، ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته ، والتزام شريعته ظاهرا وباطنا ، وإذا فعل ذلك لم يكف فى كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به .

فهذه الأركان الأربعة هى أركان الإيمان التى قام عليها بناؤه ، وهى ترجع إلى علم وعمل ، ويدخل فى العمل كف النفس الذى هو متعلق النهى وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر . فصار الإيمان نصفين : أحدهما الصبر والثانى متولد عنه من العلم والعمل .

الاعتبار الرابع : أن النفس لها قوتان قوة الإقدام وقوة الإحجام وهى دائما تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحجم عما تكرهه . والدين كله إقدام وإحجام . إقدام على طاعة الله وإحجام عن معاصى الله . وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر .

الاعتبار الخامس : أن الدين كله رغبة ورهبة . فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى : **﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾**[٣] وفى الدعاء عند النوم الذى رواه البخارى فى صحيحه (اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ـ وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك)[٤] .

فلا تجد المؤمن أبدا إلا راغبا وراهبا . والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر . فرهبته تحمله على الصبر ، ورغبته تقوده إلى الشكر .

الاعتبار السادس : أن جميع ما يباشره العبد فى هذه الدار لا يخرج عما ينفعه فى الدنيا والآخرة أو يضره فى الدنيا والآخرة ، أو ينفعه فى أحد الدارين ويضره فى الأخرى . وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه فى الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان . ففعل ما ينفعه هو الشكر . وترك ما يضره هو الصبر .

الاعتبار السابع : أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهى يتركه وقدر يجرى عليه وفرضه فى الثلاثة الصبر والشكر ففعل المأمور هو الشكر وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر .

الاعتبار الثامن : ان العبد فيه داعيان : داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها ، وداع يدعوه إلى

---

(١) العنكبوت الآية : ٣٨ .

(٢) سورة الإسراء من الآية : ١٠٢ .

(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٩٠ .

(٤) الحديث فى الترغيب والترهيب للمنذرى ـ الترغيب فى كلمات يقولهن حين يأوى إلى فراشه . . الخ ج ١ ص ٤١٠ رقم ١ وقال المنذرى : رواه البخارى فى كتاب التوحيد ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم . فعصيان داعى الشهوة والهوى هو الصبر . وإجابة داعى الله والدار الآخرة هو الشكر .

الاعتبار التاسع : أن الدين مداره على أصلين : العزم والثبات . وهما الأصلان المذكوران فى الحديث الذى رواه أحمد والنسائى عن النبى - ﷺ - (اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد)[١] وأصل الشكر صحة العزيمة وأصل الصبر قوة الثبات فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق .

الاعتبار العاشر : أن الدين مبنى على أصلين : الحق والصبر . وهما المذكوران فى قوله تعالى ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق فى نفسه وتنفيذه فى الناس وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه . فكان الصبر نصف الإيمان والله سبحانه وتعالى أعلم .

فى بيان تنازع الناس فى الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج ابن الجوزى فى ذلك ثلاثة أقوال (أحدها) : أن الصبر أفضل (والثانى) : أن الشكر أفضل (والثالث) : أنهما سواء كما قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت) ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة وما لها وعليها فى احتجاجها بعون الله وتوفيقه .

قال الصابرون : قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله ومدحه وأمر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة ، وقد ذكره الله فى كتابه فى نحو تسعين موضعا وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفى فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر ، ويكفى فى فضله قوله - ﷺ - (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر)[٢] فذكر ذلك فى معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر ، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به ، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه وهذا كقوله (مدمن الخمر كعابد وثن) ونظائر ذلك قالوا وإذا وازنا بين النصوص الواردة فى الصبر والواردة فى الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها .

ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما فى سائر الأبواب فلا تجد الاحاديث النبوية فى باب أكثر منها فى باب الصلاة والجهاد . قالوا وأيضا فالصبر يدخل فى كل باب بل فى كل مسألة من مسائل الدين . ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

قالوا وأيضا فالله - سبحانه وتعالى - علق على الشكر الزيادة فقال : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾[٣] وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب . وأيضا فإنه سبحانه أطلق جزاء

---

(١) أخرجه الامام احمد فى مسنده - من حديث شداد بن اوس ج ٤ ص ١٢٣ ورواه صاحب كتاب اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٧٦ كما رواه النسائى فى سننه ب ٦١ - ٣٩١٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الصوم) باب : فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر ج ١ ص ٥٦١ رقم ١٧٦٤ .

(٣) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

الشاكرين فقال : ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾[1] وقيد جزاء الصابرين بالإحسان فقال ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[2] .

قالوا وقد صح عن النبى - ﷺ - أنه قال : يقول الله تعالى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »[3] وفى لفظ (وكل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها) قال الله تعالى « إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها كما فى الحديث نفسه يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلى . ولهذا قال النبى - ﷺ - لمن سأله عن أفضل الأعمال (عليك بالصوم فإنه لا عدل له)[4] ولما كان الصبر حبس النفس من إجابة داعى الهوى ، وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن إجابة داعى شهوة الطعام والشراب والجماع .

فسر الصبر فى قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾[5] أنه الصوم وسمى رمضان شهر الصبر . وقال بعض السلف : الصوم نصف الصبر . وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الشهوة والغضب ، فإن النفس تشتهى الشىء لحصول اللذة بإدراكه ، وتغضب لنفرتها من المؤلم لها ، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعى الأمرين . وقد أشار إلى ذلك النبى - ﷺ - فى الحديث الصحيح وهو قوله (إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب فإن أحد سابه أو شاتمه فليقل إنى صائم)[6] فأرشد - ﷺ - إلى تعديل قوى الشهوة والغضب وأن الصائم ينبغى له أن يحتمى من إفسادهما لصومه ، فهذه تفسد صومه ، وهذه تحبط أجره ، كما قال فى الحديث الآخر : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه)[7] .

قالوا : ويكفى فى فضل الصبر على الشكر قوله تعالى : ﴿ إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾[8] فجعل فوزهم جزاء صبرهم وقال تعالى : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ لا شىء يعدل معيته لعبده ، كما قال بعض العارفين : ذهب الصابرون بخيرى الدنيا والآخرة ، لأنهم نالوا معية الله .

وقال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[9] وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمة .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٤٤ .
(٢) سورة النحل من الآية : ٩٦ .
(٣) أخرجه البخارى فى (كتاب الصوم) باب : هل يقول : إنى صائم إذا شُتم ج ٣ - ٣٤ .
(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب الصوم) باب : إذا كان أول ليلة من رمضان الخ ج ١ ص ٤٢١ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد .
(٥) سورة البقرة من الآية : ٤٥ .
(٦) الحديث فى البخارى فى (كتاب الصوم) باب من لم يدع قول الزور والعمل به ج ٣ ص ٣٤ بلفظ وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب الخ وهو جزء من حديث وفى صحيح مسلم فى (كتاب الصيام) باب : حفظ اللسان للصائم ج ٢ ص ٨٠٦ رقم ١١٥١ بلفظ : إذا أصبح أحدكم يوما صائما ، فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله : الحديث .
(٧) الحديث أخرجه أبو داود فى (كتاب الصوم) باب : الغيبة للصائم ج ٢ ص ٧٦٧ رقم ٢٣٦٢ وقال الخطابى : أخرجه البخارى فى الصوم باب : من لم يدع قول الزور (٣ - ٣٣) .
(٨) سورة المؤمنون الآية : ١١١ .
(٩) سورة الطور من الآية : ٤٩ .

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء : كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهى صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم ، وتخصيصهم بالهداية فى قوله تعالى : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾(١) وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم ، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور فى آيتين من كتابه وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك .

قالوا وقد دل الدليل على أن الزهد فى الدنيا والتقلل منها مهما أمكن من الاستكثار منها والزهد فيها حال الصابر ، والاستكثار منها حال الشاكر . قالوا : وقد سئل المسيح - ﷺ - عن رجلين مرا بكنز فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه ، وأخذه الآخر وأنفقه فى طاعة الله تعالى . أيهما أفضل ؟

فقال الذى لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله . قالوا ويدل على صحة هذا أن النبى - ﷺ - عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها - وقال (بل أجوع يوما وأشبع يوما) ولو أخذها لأنفقها فى مرضاة الله وطاعته فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها قالوا ، وقد علم أن الكمال الانسانى فى ثلاثة أمور : علوم يعرفها وأعمال يعمل بها ، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله ، وأفضل العلم والعمل والحال ; العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء ، فهذا أشرف ما فى الدنيا وجزاؤه أشرف ما فى الآخرة وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره . وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة ، وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة ، وإلا فهو فى الدنيا وان شعر بذلك بعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التى عليه والمحن التى امتحن بها ، والا فليست السعادة فى الحقيقة سوى ذلك ، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها وتفاوت العلوم فى فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبعدها فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته ، فهو أعلى مما دونه ، وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذى خلق له فهو أقرب مما دونه ، وكذلك الأعمال فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره لهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب إفضائها إلى المقصود ، وهكذا يجب أن يكون . فإنه كلما كان الشىء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها . فالعمل المعد للقلب المهىء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك . وإذا اشتركت عدة أعمال فى هذا الإفضاء فأفضلها أقربها الى هذا المفضى .

ولهذا اشتركت الطاعات فى هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله واشتركت المعاصى فى حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية ، فكانت منهيا عنها وتأثير الطاعات والمعاصى بحسب درجاتها .

وها هنا أمر ينبغى التفطن له . وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه فى حق غيره . فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شىء منه فصدقته وايثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة . والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته . وقوفه فى الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع . والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٧ .

والشر : مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح . . وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده : جلوسه ساعة للنظر فى المظالم وانصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل . أفضل من عبادة سنين من غيره . ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته . وتأمل تولية النبى - ﷺ - لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله ، وترك تولية أبى ذر ، بل قال له:إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم ، وأمره وغيره بالصيام وقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له . وأمر آخر بألا يغضب .

وأمر ثالثا بألا يزال لسانه رطبا من ذكر الله . ومتى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لا ستفراغ وسعه فيما هو مستعد له . قابل له قد هيء له . فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه كما قيل :

مازال يسبق حتى قال حاسده هذا طريق الى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به . وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه ، فالشح المطاع مثلا من المهلكات ، ولا يزيله صيام مائة عام ، ولا قيام ليلها . وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع فى العلم والذكر والزهد وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده ، ولو قيل أيهما أفضل : الخبز أو الماء ؟ لكان الجواب أن هذا فى موضعه أفضل . وهذا فى موضعه أفضل .

واذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال ، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه . فتهيأ لمعرفة الله ومحبته فهو دواء للداء الذى فى القلب يمنعه من المقصود . وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء . وتوفرت قوته على استفراغ الوسع فى حصول المقصود ، ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا : فإن قيل فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه . بأن قالوا : الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه ، ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب . ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا . فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب ، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك .

قالوا : واذا عرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة . وحال الشاكر المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم .

قال الشاكرون : لقد تعديتم طوركم ، وفضلتم مقاما غيره أفضل منه

وقدمتم الوسيلة على الغاية . والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه والعمل الكامل على الأكمل ، والفاضل على الأفضل ، ولم تعرفوا للشكر حقه ولا رقيتموه مرتبته . وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر والصبر خادم لهما ، ووسيلة إليهما وعون عليهما قال تعالى : ﴿ **اذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون** ﴾[١] وقرن سبحانه الشكر بالايمان وأخبر أنه لا غرض له من عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** ﴾[٢] أى إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والايمان فما أصنع بعذابكم ؟ هذا وأخبر سبحانه : أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال : ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾[٣] وقسم الناس إلى شكور وكفور ، فأبغض الأشياء اليه الكفر وأهله ، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله . قال تعالى فى الانسان : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا** ﴾[٤] .

وقال نبيه سليمان : ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾[٧] وهذا كثير فى القرآن .

يقابل سبحانه بين الشكر والكفر ، فهو ضده قال تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** ﴾[٨] .

والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الايمان فلم ينقلبوا على أعقابهم . وعلق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره . وقد وقف سبحانه كثيرا من الجزاء على المشيئة كقوله : ﴿ **فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء** ﴾[٩] وقوله فى الاجابة ﴿ **فيكشف ما تدعون إليه إن شاء** ﴾[١٠] وقوله : فى الرزق ﴿ **يرزق من يشاء** ﴾[١١] وفى المغفرة ﴿ **ويغفر لمن يشاء** ﴾[١٢] والتوبة

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٢ .
(٢) سورة النساء الآية : ١٤٧ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ٥٣ .
(٤) سورة الانسان الآية : ٣ .
(٥) سورة النمل من الآية : ٤٠ .
(٦) سورة إبراهيم الآية : ٧ .
(٧) جزء من آية فى سورة الزمر رقم ٧ .
(٨) سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .
(٩) سورة التوبة من الآية : ٢٨ .
(١٠) سورة الأنعام من الآية : ٤١ .
(١١) سورة النور من الآية : ٣٨ .
(١٢) سورة المائدة من الآية : ٤٠ .

﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾[١] وأطلق جزاء الشكر إطلاقا حيث ذكر كقوله ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾ .

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر ، وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى فى قطع الناس عنه فقال : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[٢] ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾[٣] .

وذكر الامام أحمد عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رجلا يقول : (اللهم اجعلنى من الأقلين) . فقال ما هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين . إن الله قال : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾[٥] وقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ﴾[٦] (فقال عمر صدقت) .

وقد أثنى الله سبحانه ـ وتعالى ـ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا ﴾[٧] وفى تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثانى . فإن الله تعالى : لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾[٨] فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم فى الشكر فإنه كان عبدا شكورا .

وقد أخبر سبحانه أنما يعبده من شكره . فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[٩] وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى : ﴿ يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[١٠] وأول وصية وصى الله بها الانسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين ، فقال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾[١١] وأخبر أن رضاه فى شكره فقال تعالى : ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[١٢] وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾[١٣] فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أى قدوة يؤتم به فى الخير ، وأنه قانت لله والقانت هو المطيع المقيم على طاعته والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه ، فجعل الشكر غاية خليله .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ١٥ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧ .
(٣) سورة سبأ من الآية : ١٣ .
(٤) سورة هود من الآية : ٤٠ .
(٥) سورة سبأ من الآية : ١٣ .
(٦) سورة (ص) من الآية : ٢٤ .
(٧) سورة الإسراء الآية : ٣ .
(٨) سورة الصافات آية : ٧٧ .
(٩) سورة البقرة من الآية : ١٧٢ .
(١٠) سورة الأعراف : آية : ١٤٤ .
(١١) سورة لقمان الآية : ١٤ .
(١٢) سورة الزمر من الآية : ٧ .
(١٣) سورة النحل الآية : ١٢٠ ، ١٢١

وأخبر سبحانه : أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره ، بل هو الغاية التى خلق عبده لأجلها ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[١] فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾[٢] ويجوز أن يكون قوله : ﴿ **لعلكم تشكرون** ﴾ تعليلا لقضائه لهم بالنصر ، ولأمره لهم بالتقوى ، ولهما معا : وهو الظاهر فالشكر غاية الخلق والأمر ، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول فى قوله تعالى : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون** ﴾[٣] قالوا : فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر ، فهو خادم الشكر . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[٤] وثبت فى المسند والترمذى أن النبى - ﷺ - قال لمعاذ : (والله إنى لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[٥] وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا اسحاق بن اسماعيل ، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون هشام بن عروة قال : (كان من دعاء النبى - ﷺ - : (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) قال : وحدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا المؤمل بن اسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكر ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا وزوجة لا تبغيه خوفا فى نفسها ولا فى ماله)[٦] وذكر أيضا من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبى - ﷺ - قال : (ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها ، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره ، وإن الرجل يشترى الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له)[٧] .

---

(١) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٢٣ .

(٣) سورة البقرة الآيتان : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٤) فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان الطبعة العصرية بالكويت (فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم) باب : أكثر الأعمال والاجتهاد فى العبادة رقم ١٧٩٥ وقال المحقق : أخرجه البخارى (فى كتاب التهجد) باب : قيام النبى - ﷺ - حتى تورم قدماه ورواه الامام احمد فى مسنده عن المغيرة بن شعبة كما جاء فى تفسير سورة الفتح فى مختصرابن كثيرج ٣ - ٣٤٠ وقال : أخرجه البخارى ومسلم وبقية الجماعة إلا أبا داود ، كما اخرجه مسلم والامام أحمد .

(٥) الحديث فى الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لشمس الدين بن قيم الجوزية ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ وقال محققه الشيخ الأنصارى : لم أجده فى الترمذى والذى ذكره شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية فى كتاب الكلم الطيب أن هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى ذكر ذلك فى الفصل الذى عقده للدعاء فى الصلاة وبعد التشهد ، وقال الحافظ ابن عبدالهادى فى كتابه « المحرر فى الحديث » وعن معاذ ان رسول الله - ﷺ - أخذ بيده وقال : يا معاذ إنى أحبك ، أوصيك يا معاذ لابد عن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك رواه احمد وابو داود والنسائى .

(٦) الحديث أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير فى ترجمة طلق بن جبيب عن ابن عباس ج ١١ ص ١٣٤ رقم ١١٢٧٥ وقال المحقق : ورواه فى الأوسط ١٩١ مجمع البحرين بنفس السند والسنن فلا معنى لقول الحافظ الهيثمى فى المجمع ٤ - ٢٧٣ ورجال الأوسط رجال الصحيح . فهو فى الكبير بنفس السند . قال المنذرى فى الترغيب ٣ - ٢٠٦ رواه الطبرانى بإسناد جيد . وضعفه شيخنا فى سلسلة الضعيفة ١٠٦٦ .

(٧) فى مجمع الزوائد .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عنه - ﷺ - أنه قال : (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها)[1] فكان هذا الجزاء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[2] فى مقابلة شكره بالحمد . وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله ابن صالح : حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشى ، عن أبيه قال : قال رسول الله - ﷺ - (لا يرزق الله عبدا الشكر فيحرمه الزيادة)[3] لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدكم ﴾[4] وقال الحسن البصرى (إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا) ولهذا كانوا يسمون الشكر « الحافظ » لأنه يحفظ النعم الموجودة و « الجالب » لأنه يجلب النعم المفقودة وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال لرجل من همذان : (إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد وهما مقرونان فى قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبيد) .

وقال عمر بن عبدالعزيز (قيدوا نعم الله بشكر الله) وكان يقال : (الشكر قيد النعم) وقال مطرف بن عبد الله (لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر) وقال الحسن (أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر) وقد أمر الله تعالى : نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾[5] والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال وقال على ابن الجعدى : سمعت سفيان الثورى يقول : (إن داود عليه الصلاة والسلام قال : الحمد لله حمدا كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله فأوحى الله إليه : يا داود أتعبت الملائكة .

وقال شعبة : حدثنا المفضل بن فضالة ، عن أبى رجاء العطاردى قال : (خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد فقال : إن رسول الله - ﷺ - قال : (إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[6] وفى صحيفة عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى - ﷺ - قال : (كلوا واشربوا وتصدقوا فى غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[7] وذكر شعبة عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن أبيه قال : (أتيت رسول الله - ﷺ - وأنا قشف الهيئة ، فقال هل لك من مال ؟ قال : قلت : نعم ، قال : من أى المال ؟

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ج ٤ ص ٢٠٩٥ رقم ٢٧٣٤ .
(٢) سورة التوبة من الآية : ٧٢ .
(٣) انظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى فى تفسير سورة إبراهيم ج ٥ ص ٩ بمعناه .
(٤) سورة ابراهيم من الآية : ٧ .
(٥) سورة الضحى الآية : ١١ .
(٦) مجمع الزوائد فى (كتاب اللباس) باب : اظهار النعم واللباس الحسن ج ٥ ص ١٣٢ وقال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد ثقات .
(٧) هذا جزء من حديث اخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ج ٥ ص ١٢٤ رقم ٢٨١٩ .

قلت : من كل المال قد آتانى الله من الابل والخيل والرقيق والغنم قال : فإذا آتاك الله مالا فلير عليك)(١) وفى بعض المراسيل : أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه . وروى عبد الله بن يزيد المقرى عن أبى معمر عن بكير بن عبد الله رفعه (من أعطى خيرا فرؤى عليه سمى حبيب الله محدثا بنعمة الله ، ومن أعطى خيرا ولم ير عليه سمى بغيض الله معاديا لنعمة الله)(٢) وقال فضيل بن عياض كان يقال : من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقال : (من شكر النعمة أن يحدث بها) وقد قال تعالى : (يا ابن آدم إذا كنت تتقلب فى نعمتى وأنت تتقلب فى معصيتى فاحذرنى لأصرعك بين معاصى ، يا ابن آدم اتقنى ونم حيث شئت) وقال الشعبى (الشكر نصف الايمان) واليقين الايمان كله وقال أبو قربة (لا تضركم دنيا شكرتموها) وقال الحسن (إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر ، فإذا شكروه كان قادرا على أن يزيدهم ، وإذا كفروه كان قادرا على أن يبعث نعمته عليهم عذابا) وقد ذم الله سبحانه الكنود وهو الذى لا يشكر نعمه . قال الحسن (إن الانسان لربه لكنود) يعد المصائب وينسى النعم وقد أخبر النبى - ﷺ - أن النساء أكثر اهل النار لهذا السبب قال : (لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط) فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهى فى الحقيقة من الله فكيف بمن ترك شكر نعمة الله .

يا أيها الظالم فى فعله	والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى	تشكو المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى عبد الرحمن السلمى ، عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله - ﷺ - (التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة بركة . والفرقة عذاب)(٣) .

قال مطرف بن عبد الله : (نظرت فى العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة ولأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر) ورأى بكر بن عبد الله المزنى حمالا عليه حمله وهو يقول : الحمد الله أستغفر الله قال : فانتظرته حتى وضع ما على ظهره وقلت : أما تحسن غير هذا ؟ قال : بلى . أحسن خيرا كثيرا، أقرأ كتاب الله غير أن العبد بين نعمة وذنب ، فأحمد الله على نعمه السابغة وأستغفر لذنوبى فقلت الحمال أفقه من بكر .

---

(١) فى مجمع الزوائد فى (كتاب اللباس) باب : اظهار النعم واللباس الحسن ج ٥ ص ١٣٣ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الصغير ورجاله رجال الصحيح .

(٢) اخرجه ابن أبى الدنيا باب : شكر الصنيعة (كتاب قضاء الحوائج) ص ٩٠ رقم ٧٧ .

(٣) الحديث اخرجه ابن كثير فى تفسير الضحى ج ٨ ص ٤٤٩ بتقديم وتأخير فى بعض الفاظه وقال : اسناده ضعيف وقال المحقق رواه الامام احمد فى مسنده : ٤ - ٢٧٨ ، ٣٧٥ .

وذكر الترمذى من حديث جابر عن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : خرج رسول الله ـ ﷺ ـ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال :(قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد)[1] وقال مشعر : لما قيل لآل داود (اعملوا آل داود شكرا) لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلٍ . وقال عون بن عبد الله : قال بعض الفقهاء إنى رأيت فى أمرى ، لم أر خيرا إلا شرا معه إلا المعافاة والشكر ، فرب شاكر فى بلائه ، ورب معافى غير شاكر ، فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعا . وقال أبو معاوية : لبس عمر بن الخطاب قميصا فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ، ثم مد يديه فنظر شيئا يزيد على يديه فقطعه ، ثم أنشأ يحدث ، قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (من لبس ثوبا (أحسبه جديدا) فقال : حين يبلغ ترقوته ، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك ، ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسابه مسكينا لم يزل فى جوار الله ، وفى ذمة الله وفى كنف الله حيا وميتا ، ما بقى من ذلك الثوب سلك)[1] .

وقال عون بن عبد الله (لبس رجل قميصا جديدا فحمد الله فغفر له ، فقال رجل ارجع حتى أشترى قميصا فألبسه وأحمد الله)وقال شريح : (ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم : ألا تكون كانت فى دينه ، وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لابد كائنة فقد كانت) وقال عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز : (ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله عليه إلا قال : اللهم إنى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرا ، وأن أكفرها بعد أن عرفتها ، وأن أنساها ولا أثنى بها) وقال روح ابن القاسم : (تنسك رجل فقال لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره) فقال الحسن : هذا أحمق وهل يقوم بشكر الماء البارد ؟ .

وفى بعض الآثار الإلهية يقول الله ـ عز وجل ـ : (ابن آدم خيرى إليك نازل وشرك إلى صاعد ، أتحبب إليك بالنعم ، وتتبغض إلى بالمعاصى ، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلى منك بعمل قبيح) قال ابن أبى الدنيا حدثنى أبو على قال : كنت أسمع جارا لى يقول فى الليل : (يا إلهى خيرك على نازل وشرى إليك صاعد ، كم من ملك كريم قد صعد إليك منى بعمل قبيح ، وأنت مع غناك عنى تتحبب إلى بالنعم ، وأنا مع فقرى إليك وفاقتى أتمقت إليك المعاصى ، وأنت فى ذلك تجبرنى وتسترنى وترزقنى) وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد قال : أصبحنا مغرقين فى النعم عاجزين عن الشكر يتحبب إلينا ربنا وهو غنى عنا ، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون . وقال عبد الله بن ثعلبة : إلهى من كرمك أنك تطاع ولا تعصى ، ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى ، وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد ، وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوبا جديدا قال : بسم الله والحمد لله . وقال أنس بن مالك : (ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السموات والأرض تعزم رزقه ، فجعله فى أيدى بنى آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه ، فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر وأن أباه وجد

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب تفسير القرآن باب : تفسير من سورة الرحمن)ج ٥ ص ٣٩٩ رقم ٣٢٩١ وقال ابو عيسى : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد .

(٢) الحديث فى كتاب الدعاء باب : أدعية اللباس : ما يقوله المسلم إذا لبس ثوبا جديدا رقم ٣ ص ١٣٢ .

الغنى الحميد عبادا فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له) .

وقال يونس بن عبيد : قال رجل لأبى تميمة : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحت بين نعمتين لا أدرى أيتهما أفضل . ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرنى بها أحد . . ومودة قذفها الله فى قلوب العباد لا يبلغها عملى » .

وروى ابن أبى الدنيا عن سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن سلام ، أن موسى - عليه السلام - قال : « يا رب ما الشكر الذى ينبغى لك ؟ قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكرى » وروى سهيل بن أبى صالح عن أبيه ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : (دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى - ﷺ - فانطلقنا معه ، فلما طعم وغسل يديه قال : الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ربى ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذى أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب وكسى من العرى ، وهدى من الضلالة وبصر من العمى ، وفضل على كثير من خلقه تفضيلا . الحمد لله رب العالمين) .

وفى مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : (ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت) ويذكر عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها وقال : يا عائشة أحسنى جوار نعم الله فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم) ذكره ابن أبى الدنيا . وقال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا صالح ، عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الجلد قال : قرأت فى مسألة داود أنه قال : (يا رب كيف لى أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك . . قال : فأتاه الوحى : يا داود أليس تعلم أن الذى بك من النعم منى ؟ قال : بلى يا رب . قال : فإنى أرضى بذلك منك شكرا)[1] .

وقال عبد الله بن أحمد حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا أبو الوليد ، عن سعيد بن عبدالعزيز قال : (كان من دعاء داود : سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ومستخرج الدعاء بالبلاء) . وقال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنى الأعمش ، عن المنهال ، عن عبد الله بن الحارث قال : أوحى الله إلى داود (أحبنى وأحب عبادى وحببنى إلى عبادى قال : يا رب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال : تذكرنى عندهم فإنهم لا يذكرون منى إلا الحسن ، فجل جلال ربنا ، وتبارك اسمه وتعالى جده ، وتقدست أسماؤه ، وجل ثناؤه ولا إله غيره) وقال أحمد : حدثنا عبدالرازق بن عمران قال : سمعت وهبا يقول : (وجدت فى كتاب آل داود : بعزتى أن من اعتصم بى فإن كادته السموات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجا . ومن لم يعتصم بى فإنى أقطع يديه من أسباب السماء ، وأخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ، ثم أكله إلى نفسه . كفى بى لعبدى مالا ، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى ، وأجبته قبل أن يدعونى ، وإنى أعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه) .

---

(١) انظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى ج ٦ ص ٦٨١ تفسير سورة سبأ مع اختلاف يسير فى الفاظه

وقال أحمد : حدثنا يسار ، حدثنا حفص ، حدثنا ثابت قال : كان داود ـ عليه السلام ـ قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فيها ، قال فعمهم تبارك وتعالى فى هذه الآية : ﴿ **اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور** ﴾[1] .

قال أحمد : وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عتبة ، قال داود : (يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكرا لك منى ؟ فأوحى الله إليه : نعم الضفدع . وأنزل الله عليه ﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ قال يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذى تنعم على ، ثم ترزقنى على النعمة الشكر ، ثم تزيدنى نعمة بعد نعمة ، فالنعم منك والشكر منك ، فكيف أطيق شكرك ؟ قال : الآن عرفتنى يا داود)[2] قال أحمد : وحدثنا عبدالرحمن ، حدثنا الربيع بن صبيح ، عن الحسن قال نبى الله داود : (إلهى لو أن لكل شعرة منى لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة)[3] وذكر ابن أبى الدنيا عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الجلد قال . قال موسى : يا رب كيف لى أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ، قال : فأتاه الوحى : يا موسى الآن شكرتنى) .

قال بكر بن عبد الله : (ما قال عبد قط الحمد لله فجزاء تلك النعمة أن يقول الحمد لله فجاءت نعمة أخرى ، فلا تنفد نعم الله) وقال الحسن ! سمع نبى الله رجلا يقول : الحمد لله بالاسلام ، فقال :(إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة) . وقال خالد بن معدان : سمعت عبد الملك بن مروان يقول : (ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ فى الشكر عنده من أن يقول : الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا للاسلام) وقال سليمان التيمى : إن الله سبحانه : أنعم على عبده على قدره . وكلفهم الشكر على قدرتهم وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول :(الحمد لله ، ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالاسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة ، كبت عدونا وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا وجمعت فرقتنا وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا فلك الحمد على ذلك حمدا كثيرا ، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا فى قديم أو حديث أو بسر أو علانية ، أو خاصة أو عامة أو حي أو ميت ، أو شاهد أو غائب ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت) .

وقال الحسن : قال موسى (يا رب كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت إليه . خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسكنته جنتك وأمرت الملائكة فسجدوا له ، فقال يا موسى : علم أن ذلك منى فحمدنى عليه ، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه)وقال سعد بن مسعود الثقفى إنما سمى نوح عبدا

---

(١) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ٦٨٠ وقال : وأخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان انظره .

(٢) الحديث أخرجه السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور فى تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ٦٨١ .

(٣) جزء من حديث أورده صاحب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ج ٦ ص ٦٨١ وقال : عن أبى الجلد (بدل الخلد) .

شكورا لأنه لم يلبس جديدا ولم يأكل طعاما إلا حمد الله . وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال : يالها من نعمة لو يعلم العباد شكرها وقال مخلد بن الحسين : كان يقال : الشكر ترك المعاصى . وقال أبو حازم : كل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية . وقال سليمان : ذكر النعم يورث الحب لله . وقال حماد بن زيد : حدثنا ليث عن أبى بردة قال : قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لى : ألا تدخل دخلة النبى - ﷺ - ونطعمك سويقا وتمرا ؟ ثم قال :(إن الله إذا جمع الناس غدا ذكرهم بما أنعم عليهم . فيقول العبد ما آية ذلك ؟ فيقول آية ذلك أنك فى كربة كذا وكذا قد دعوتنى فكشفتها . وآية ذلك أنك كنت فى سفر كذا وكذا فاستصحبتنى فصحبتك . قال : يذكره حتى يذكر ، فيقول : آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم . يقف عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فبكى ثم بكى ثم قال : إنى لأرجو الله ألا يقعد الله عبدا بين يديه فيعذبه). وروى ليث بن أبى سليم عن عثمان ، عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله - عز وجل - لنعمة من نعمه : خذى حقك من حسناته ، فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها) وقال بكر بن عبد الله المزنى ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله فيصرف عنه ، فيأتيه الشيطان فيضعف شكره ، يقول : إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه ، قال : أولا يقول العبد كان الأمر أشد مما أذهب إليه ، ولكن الله صرفه عنى . وذكر ابن أبى الدنيا عن صدقة ابن يسار قال :(بينا داود عليه السلام فى محرابه إذ مرت به ذرة : فنظر إليها وفكر فى خلقها وعجب منها وقال : ما يعبؤ الله بهذه ؟ فأنطقها الله فقالت : يا داود أتعجبك نفسك فو الذى نفسى بيده لأنا على ما آتانى الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله) .

وقال أيوب : (إن من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأمونا على ما جاء النبى - ﷺ) وقال سفيان الثورى : كان يقال : ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة . وقال زازان : مما يجب لله على ذى النعمة بحق نعمته ألا يتوصل بها إلى معصية . قال ابن أبى الدنيا أنشدنى محمود الوراق .

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة ... تضيق بها الأفهام والبر والبحر

وقد روى الدرا وردى عن عمر بن أبى عمرو ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : قال رسول الله - ﷺ - يعنى : قال الله - عز وجل - :(إن المؤمن عندى بمنزلة كل خير ، يحمدنى وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه). ومر محمد ابن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال : يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك . وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال : قال أبو العالية : إنى لأرجو ألا يهلك عبد بين

اثنين : نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر منه . وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقة (أما بعد) : فلتكن التقوى من بالك على كل حال ، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها ، فإن فى النعم حجة وفيها تبعة ، فأما الحجة بها فالمعصية بها . وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها ، فعفا الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب ، أو قصرت من حق ، ومر الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة ، فجلس يحمد الله ويبكى ، قيل له ما يبكيك ؟ قال : ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية ، وأهل النار بأهل البلاء ، فذلك الذى أبكانى . وقد روى أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - (إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوقه) ، قال عبد الله بن المبارك أخبرنى يحيى بن عبد الله قال: سمعت أبى قال: سمعت أبا هريرة فذكره) .

وقال ابن المبارك : حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال : قال أبو الدرداء : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه . قال ابن المبارك أخبرنا مالك بن أنس ، عن إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن أنس - رضى الله عنه - قال : سمعت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سلم على رجل فرد عليه السلام ، فقال عمر للرجل كيف أنت ؟ قال الرجل : أحمد إليك الله ، قال : هذا أردت منك ، قال ابن المبارك : وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لعلنا نلتقى فى اليوم مرارا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله - عز وجل - . وقال مجاهد : فى قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قال : لا إله إلا الله ، وقال ابن عيينة : ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله ، قال : وإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا .

وقال بعض السلف فى خطبته يوم عيد : أصبحتم زهرا وأصبح الناس غبرا ، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون ، وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون ، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون ، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون ، فبكى وأبكاهم . وقال عبد الله بن قرط الأزدى : وكان من الصحابة على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب . يا لها من نعمة ما أشبعها ، ومن كرامة ما أظهرها ، مازال عن قوم شيء أشد من نعمة لا يستطيعون ردها ، وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم .

وقال سلمان الفارسى - رضى الله عنه - إن رجلا بسط له من الدنيا فانتزع ما فى يديه فجعل يحمد الله ويثنى عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية ، قال : فجعل يحمد الله ويثنى عليه ، وبسط لآخر من الدنيا فقال لصاحب البارية : أرأيتك أنت على ما تحمد الله ؟ قال : أحمده على مالو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه . قال وما ذاك ؟ قال أرأيتك بصرك ، أرأيتك لسانك ، أرأيتك يديك ، أرأيتك رجليك .

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له . يونس : أيسرك ببصرك هذه مائة ألف درهم ؟ قال الرجل : لا قال فبيديك مائة ألف ؟ قال : لا ، قال فبرجليك مائة ألف ؟ قال : لا ، قال : فذكره نعم الله عليه ، فقال يونس : أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة ، وكان أبو الدرداء يقول : الصحة الملك .

وقال جعفر بن محمد - رضي الله عنه - : فقد أبي بغلة له فقال : إن ردها الله على لأحمدنه بمحامد يرضاها ، فما لبث أن أتى بسرجها ولاجمها ، فركبها فلما استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال : الحمد لله لم يزد عليه فقيل له : فى ذلك فقال : هل تركت وأبقيت شيئا جعلت الحمد كله لله وروى ابن أبي الدنيا من حديث سعد بن اسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه ، عن جده قال : بعث رسول الله - ﷺ - بعثا من الأنصار وقال : إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكرا ، قال : فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا ، فقال بعض أصحابه : سمعناك تقول : إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكرا ؟ قال : قد فعلت (اللهم لك الحمد شكرا ولك الحمد وصلا) .

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، قال محمد بن المنكدر لأبي حازم يا أبا حازم ما أكثر من يلقانى فيدعو لى بالخير ، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرا قط ؟ فقال أبو حازم : لا تظن أن ذلك من قبلك ، ولكن انظر إلى الذى ذلك من قبله فاشكره ، وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾[1] وقال على بن الجعد : حدثنا عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون ، حدثنى من أصدقه أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - كان يقول فى دعائه : (أسالك تمام النعمة فى الأشياء كلها ، والشكر لك عليها حتى ترضى ، وبعد الرضا والخيرة فى جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها يا كريم) .

وقال الحسن : ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ . قال ابن أبي الدنيا : ويلغنى عن سفيان بن عيينة أنه قال : هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله ثم قال : وقال بعض أهل العلم إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغى له أن يشكره ، فكان الحمد له أفضل قلت لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة ، فإن قوله الحمد لله نعمة من نعم الله ، والنعمة التى حمد الله عليها أيضا نعمة من نعم الله ، وبعض النعم أجل من بعض ، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم . وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله ، وفعل العبد هو مفعول الله ، ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض . وقال بعض أهل العلم : لنعم الله علينا فيما زوى عنا الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها ، وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا ، فأن أكون فيما رضى الله لنبيه وأحب له أحب إلى من أن أكون فيما كره له وسخطه .

وقال ابن أبي الدنيا : بلغنى عن بعض العلماء أنه قال : ينبغى للعالم أن يحمد الله على ما زوى

---

(١) سورة مريم الآية : ٩٦

عنه من شهوات الدنيا ، كما يحمده على ما أعطاه ، وأين يقع ما أعطاه الله ، والحساب يأتى عليه ، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به ، فيشغل قلبه ويتعب جوارحه ، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه .

وحدث عن ابن أبى الحوارى قال : جلس فضل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذكران النعم ، فجعل سفيان يقول : (أنعم الله علينا فى كذا وكذا ، أنعم الله علينا فى كذا فعل بنا كذا) وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان فى قوله : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ قال : يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر ، وقال غير سفيان كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة . وسئل ثابت البنانى عن الاستدراج فقال : ذلك مكر الله بالعباد المضيعين . وقال يونس فى تفسيرها إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة حفظها وبقى عليها ثم شكر الله بما أعطاه ، أعطاه أشرف منها ، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله ، وكان تضييعه الشكر استدراجا .

وقال أبو حازم : نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها ، إنى رأيته أعطاها أقواما فهلكوا ، وكل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية ، وإذا رأيت الله سابغا عليك نعمة وأنت تعصيه فاحذره .

وذكر كاتب الليث عن هقل عن الأوزاعى أنه وعظهم فقال فى موعظته : أيها الناس ، تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها ، على الهرب من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، فإنكم فى دار : الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها ، فهم كانوا أطول منكم أعمارا ، وأمد أجسادا ، وأعظم آثارا ، فقطعوا الجبال ، وجابوا الصخور ونقبوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد ، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم فما تحس منهم من أحد ولاتسمع لهم ركزا ، كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين ، ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتا من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم فى دارهم جاثمين ، وأصبح الباقون ينظرون فى آثارهم نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية فيها ، أن للذين يخافون العذاب الأليم ، وعبرة لمن يخشى ، وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص ودنيا مقبوضة وزمان قد ولى عفوه ، وذهب رخاؤه ، فلم يبق منه إلا حماة شر ، وصبابة كدر ، وأهاويل عبر ، وعقوبات غير ، وإرسال فتن وتتابع زلازل ورذلة خلف ، بهم ظهر الفساد فى البر والبحر . ولا تكونوا أشباها لمن خدعه الأمل ، وغره طول الأجل ، وتبلغ بطول الأمانى ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره ، وعقل بشره فمهد لنفسه . اهـ

وكان يقال : الشكر ترك المعصية ، وقال ابن المبارك : قال سفيان ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

ودعى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرقوا قبل أن يبلغهم فأعتق رقبة شكرا لله ألا يكون جرى على يديه خزى مسلم .

وقال رجل لأبى حازم : ماشكر العينين ياأبا حازم ؟ قال : إن رأيت بهما خيرا أعلنته ، وإن رأيت بهما شرا سترته ، قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : إن سمعت بهما خيرا وعيته ، وإن سمعت بهما شرا دفعته ، قال : فما شكر اليدين ؟ قال لاتأخذ بهما ماليس لهما ولا تمنع حقا لله هو فيهما : قال : فما شكر

البطن ؟ قال أن يكون أسفله طعاما ، وأعلاه علما ، قال : فما شكر الفرج ؟ قال : قال الله ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾[1] قال فما شكر الرجلين ؟ قال : إن علمت ميتا تغبطه استعملت بهما عمله ، وإن منعته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر .

وذكر ابن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو فى بيت عليه خلقان جالس على التراب ، قال جعفر : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما رأى مافى وجوهنا قال : إنى أبشركم بما يسركم ، إنه جاءنى من نحو أرضكم عين لى فأخبرنى أن الله نصر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهلك عدوه ، وأسر فلان وفلان ، وقتل فلان وفلان ، التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأنى أنظر إليه كنت أرعى به لسيدى رجل من بنى حمزة . فقال له جعفر : فما بالك جالسا على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق ، قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى ـ ﷺ ـ أن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عندما أحدث الله لهم من نعمة ، فلما أحدث الله لى نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع .

وكان رسول ـ ﷺ ـ إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجدا شكرا له ـ عز وجل ـ ذكره أحمد

وقال عبد الرحمن بن عوف : « خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا فأطال السجود فقلت : يارسول الله ، : سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها ، فقال : إن جبريل أتانى فبشرنى أن الله ـ عز وجل ـ يقول لك : من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه » رواه أحمد[2] .

وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجنا مع النبى ـ ﷺ ـ من مكة نريد المدينة ، فلما كنا قريبا من عزور نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة ثم خر ساجدا فمكث طويلا ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر ساجدا ـ فعله ثلاثا ـ وقال : إنى سألت ربى وشفعت لأمتى فأعطانى ثلث أمتى فخررت ساجدا شكرا لربى ، ثم رفعت رأسى فسألت ربى لأمتى فأعطانى ثلث أمتى فخررت ساجدا لربى ، ثم رفعت رأسى فسألت ربى فأعطانى الثلث الآخر ، فخررت ساجدا لربى . رواه ابو داود[3]

ولقد سجد كعب بن مالك فى عهد النبى ـ ﷺ ـ لما بشر بتوبة الله عليه ، والقصة فى الصحيحين .

---

(١) سورة المؤمنون الآيات : ٥ ـ ٧

(٢) الترغيب والترهيب : كتاب الذكر والدعاء » باب الترغيب فى إكثار الصلاة على النبى ـ ﷺ ـ . . الخ ج ٢ ص ٤٩٥ حديث ٤ عن عبد الرحمن بن عوف ولفظه « خرج رسول الله ـ ﷺ ـ فاتبعته حتى دخل نخلا فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه ، قال : فجئت أنظر فرفع رأسه فقال : مالك ياعبد الرحمن ؟ قال : فذكرت ذلك له قال : فقال : إن جبريل ـ عليه السلام ـ قال لى : ألا أبشرك إن الله ـ عز وجل ـ يقول : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه .زاد فى رواية : فسجدت لله شكرا . . رواه أحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد

(٣) سنن أبو داود « كتاب الجهاد » باب فى سجود الشكر . . ج ٣ ص ٢١٧ رقم ٢٧٧٥ ورد الحديث بلفظه عن عامر بن سعد عن أبيه . .

فإن قيل : فنعم الله دائما مستمرة على العبد فما الذى اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة ، وقد تكون المستدامة أعظم ؟ . قيل : الجواب من وجوه :

أحدهما : أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة ، والإنسان موكل بالأدنى

الثانى : أن هذه النعمة المتجددة تستدعى عبودية مجددة وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكرا له .

الثالث : إن المتجددة لها وقعها فى النفوس ، والقلوب بها أعلق ، ولهذا يهنأ بها ويعزى بفقدها .

الرابع : أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها ، وكثير مايجر ذلك إلى الأشر والبطر ، والسجود لله ذل لله وعبودية وخضوع ، فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديرا بدوام تلك النعمة ، وإذا تلقاها بالفرح الذى لايحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال ، وانقلبت نقمة ، وعادت استدراجا .

(فصل) ومن دقيق نعم الله على العبد التى لايكاد يفطن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئا من القوت ليعرفه نعمته عليه .

وقال سلام بن أبى مطيع : دخلت على مريض أعوده فإذا هو يئن فقلت له : اذكر المطروحين على الطريق ، اذكر الذين لامأوى لهم ولا لهم من يخدمهم ، قال : ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه : اذكرى المطروحين فى الطريق ، اذكرى من لامأوى له ولا له من يخدمه .

وقال عبد الله بن أبى نوح : قال لى رجل على بعض السواحل : كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب ؟ قلت : ماأحصى ذلك كثرة ، قال : فهل قصدت إليه فى أمر كربك فخذلك ؟ قلت : لا والله ، ولكنه أحسن إلى وأعاننى . قال : فهل سألته شيئا فلم يعطكه قلت : وهل منعنى شيئا سألته ؟ ماسألته شيئا قط إلا أعطانى ، ولا استعنت به إلا أعاننى . قال : أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال ماكان جزاؤه عندك ؟ قلت : كنت أقدر له مكافأة وجزاء ، قال : فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له فى أداء شكره ، وهو المحسن قديما وحديثا إليك ، والله لشكره أيسر من مكافآة عباده ، إنه تبارك وتعالى يرضى من العباد بالحمد شكرا .

وقال ابن زيد : إنه ليكون فى المجلس الرجل الواحد يحمد الله - عز وجل - فيقضى لذلك المجلس حوائجهم كلهم .

وقال وهب : عبد الله عابد خمسين عاما فأوحى الله إليه أنى قد غفرت لك قال : أى ربى ، وما تغفر لى ولم أذنب ؟ فأذن الله لعرق فى عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصل ، ثم سكن فقام ، ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال مالقيت من ضربان العرق ، فقال الملك : إن ربك يقول : إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق .

(فصل) وبهذا تبين معنى الحديث الذى فى الصحيح : لن ينجى أحدا فيكم عمله ، قالوا ولا

أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل ، فإن أعمال العبد لاتوافى نعمة من نعم الله عليه[١] .

(فصل) ويدل على فضل الشكر على الصبر أن الله ـ سبحانه ـ يحب أن يسأل العافية ومايسأل شيئا أحب إليه من العافية كما فى المسند عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ على المنبر ثم قال : « سلوا الله العافية فإنه لم يعط عبد بعد اليقين خيرا من العافية »[٢] .

وفى الترمذى عن العباس قلت : يارسول الله ، علمنى شيئا أسأله الله ؟ قال : سل الله العافية ، فمكثت أياما ثم جئت فقلت : علمنى شيئا أسأله الله ؟ فقال لى : ياعباس ، ياعم رسول الله ـ ﷺ ـ سل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

وفى حديث آخر : « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة »[٣] وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية فى الحال والمعافاة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها .

وفى صحيح مسلم أنه ـ ﷺ ـ عاد رجلا قد خفت ـ أى هزل ـ فصار مثل الفرخ . فقال ـ ﷺ ـ هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله إياه ؟ قال نعم كنت أقول اللهم ماكنت معاقبنى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : سبحانه لاتطيقه ، أو لاتستطيعه ، أفلا قلت : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فدعا الله له فشفاه .[٤]

وقال شيبان : كان الحسن إذا جلس مجلسا يقول : لك الحمد بالاسلام ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال ، بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ماسألناك أعطيتنا ، فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا . أعطيت خيرا كثيرا وصرفت شرا كثيرا ، فلوجهك الجليل الباقى الدايم الحمد .

وقال الحسن : خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى ، فقال آدم : يارب ألا سويت بين ولدى قال : ياآدم إنى أريد أن أشكر .

وفى السنن عنه ـ ﷺ ـ « من قال حين يصبح : اللهم ماأصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لاشريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ، إلا أدى شكر ذلك اليوم ومن قالها حين يمسى

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥٠٣ ، ٥٣٧ ، ج ٣ ص ٣٦٢ فقد ورد الحديث بها بروايات مختلفة .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣ ورد هذا الحديث عن أوسط ضمن حديث بلفظ « . . فقال أبو بكر : سلوا الله المعافاة أو قال العافية فلم يؤت أحد قط بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة . . الخ .

(٣) انظر مسند الإمام احمد ج ١ ص ٣ ورد هذا الحديث من رواية رفاعة بن رافع بلفظ « . . سمعت أبابكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يقول على منبر رسول الله ـ ﷺ ـ سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول (فبكى أبو بكر حين ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ ثم سرى عنه ثم قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول فى هذا الغيظ عام الأول : سلوا الله العفو والعافية واليقين فى الآخرة والأولى . .

(٤) انظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة . . الخ باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدين ج ٤ ص ٢٠٦٨ ، ٢٠٦٩ حديث رقم ٢٣/ ٢٦٨٨ ورد الحديث بلفظه عن أنس

فقد أدى شكر ليلته »[١] .

ـ ويذكر عنه ـ ﷺ ـ أنه أوصى رجلا بثلاث ، فقال : أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه ، وعليك بالدعاء ، فإنك لاتدرى متى يستجاب لك ، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة »[٢] .

ـ ويذكر عنه ـ ﷺ ـ أنه إذا أكل قال : «الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا »[٣]

ـ ويذكر عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها[٤] » .

وذكر على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أن بختنصر أتى بدانيال فأمر به فحبس فى جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائما يصلى والأسدان فى ناحية الجب لم يعرضا له . فقال له : ماقلت حين دفع عنك ؟ قال : قلت : « الحمد لله الذى لاينسى من ذكره ، والحمد الله الذى لايخيب من رجاه ، والحمد لله الذى لايكل من توكل عليه إلى غيره ، والحمد الله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد الله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى يكشف عنا ضرا بعد كربتنا ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانا ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة» .

وقال بكر بن عبد الله : ياابن آدم ، إذا أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .

وقال مقاتل فى قوله تعالى :

﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾[٥] قال أما الظاهرة فالإسلام وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصى .

وقال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ « من رأى صاحب بلاء فقال : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا فقد أدى شكر تلك النعمة »

وقال كعب : « ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع له بها درجة فى الأخرى ، وما أنعم الله على عبد نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه » .

وقال الحسن : من لايرى الله عليه نعمه إلا فى مطعم أو مشرب أو لباس فقد قصر علمه وحضر عذابه .

---

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الأدب » باب مايقول إذا أصبح ج ٥ ص ٣١٤ ، ٣١٥ حديث رقم ٥٠٧٣
ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن غنام البياضى . وقال الخطابى : نسبه المنذرى للنسائى فى السنن الكبرى .

(٢) انظر حلية الأولياء للأصبهانى فى ج ٧ ص ٣٠٥

(٣) انظر سنن أبى داود وكتاب الأطعمه باب مايقول الرجل إذا طعم ج ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ حديث رقم ٣٨٥١ وورد الحديث بلفظ عن أبى أيوب الأنصارى وقال الخطابى ـ ونسبه المنذرى للنسائى أيضا .

(٤) انظر الترغيب والترهيب كتاب الذكر والدعاء باب التسبيح والتكبير والتحميد . . الخ ج ٢ ص ٧٣٩ حديث رقم ٥٠ عن رواية جابر ـ رضى الله عنه ـ مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه ، وقال رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .
وقد زاد فى هذا الحديث : « فإن قالها ثانيا جدد الله ثوابها ، فإن قالها الثالثة غفر الله ذنوبه »

(٥) سورة لقمان من الآية : ٢٠

وقال ابن المبارك : سمعت عليا بن صالح يقول فى قوله تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾[1] قال : أى من طاعتى ، والتحقيق أن الزيادة من النعم ، وطاعته من أجل نعمه .

وذكر ابن أبي الدنيا : أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانا أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد ، وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد ، وأنا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد ، وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد ، وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد ، وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد ، وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد ، وأنا المسافر الذى صاحبته فلك الحمد ، وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد ، وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد ، وأنا المريض الذى شفيته فلك الحمد ، وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد ، وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد . ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا .

وقال ابن المبارك بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابرا شاكرا ، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابرا شاكرا ، من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به . ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على مافضله به عليه ، كتبه الله صابرا شاكرا ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على مافاته منه لم يكتبه الله صابرا شاكرا »[2]

وعن ابن عمر : أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتا فى الجنة « من كان عصمة أمره لاإله إلا الله ، وإذا أصابته مصيبة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإذا أعطى شيئا قال : الحمد لله . وإذا أذنب قال استغفر الله » .

وقال ابن مبارك بسنده عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **إنه كان عبدا شكورا** ﴾[3] قال : لم يأكل شيئا إلا حمد الله عليه . ولم يشرب شرابا قط إلا حمد الله عليه ، ولم يبطش بشىء قط إلا حمد الله عليه ، فأثنى الله عليه إنه كان عبدا شكورا .

وقال ابن ابى الدنيا : بلغنى عن بعض الحكماء قال « لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغى أن لايعصى لشكر نعمته» .

(فصل) ولله ـ تبارك وتعالى ـ على عبده نوعان من الحقوق لاينفك عنهما :

أحدهما : أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه .

والثانى : شكر نعمه التى أنعم بها عليه فهو ـ سبحانه ـ يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره ، فمشهد الواجب عليه لايزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته ، فإن لم يداركه بذلك هلك ، وكلما كان أفقه فى دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم ، وشهوده لتقصيره أعظم ، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة ، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله .

---

(١) سورة ابراهيم من الآية : ٧

(٢) انظر كنز العمال الكتاب الثالث من حرف الهمزة فى الأخلاق من قسم الأقوال باب الأخلاق والافعال المحمودة الفصل الأول فى حرف الشين ـ الشكر ج ٣ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ برقم ٦٤٢٣ وهذا الحديث روى عن عبد الله بن عمر بلفظ حديث حسن غريب

(٣) سورة الإسراء من الآية : ٣

وأكثر الديانين لايعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس ، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصره الله ورسوله ودينه وكتابه . فهذه الواجبات لاتخطر ببالهم فضلا عن أن يريدوا فعلها ، وفضلا عن أن يفعلوها ، وأقل الناس دينا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد فى الدنيا جميعها ، وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ويبذل عرضه فى نصرة دينه . وأصحاب الكبائر أحسن حالا عند الله من هؤلاء . وقد ذكر أبو عمرو وغيره أن الله ـ تعالى ـ أمر ملكا من الملائكة أن يخسف بقرية ، فقال يارب : إن فيهم فلانا العابد الزاهد قال : به فابدأ وأسمعنى صوته ، إنه لم يتمعر وجهه فى يوم قط .

(فصل) وأما شهود النعمة فإنه لايدع له رؤية حسنة من حسناته أصلا ولو عمل أعمال الثقلين ، فإن نعم الله ـ سبحانه ـ أكثر من أعماله ، وأدنى نعمة من نعمه تستنفذ عمله ، فينبغى للعبد ألا يزال ينظر فى حق الله عليه .

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لاتدع له حسنة يراها ، ولا يزال مزريا على نفسه ذاما لها ، وما أقربه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما والله المستعان .

أيهما أفضل الغنى الشاكر أم الفقير الصابر

والتحقيق أن يقال : أفضلهما أتقاهما لله ـ تعالى ـ ، فإن فرض استواؤهما فى التقوى استويا فى الفضل ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يفضل بالفقر والغنى ، كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى كما قال ـ تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[١] وقد قال ـ ﷺ ـ « لافضل لعربى على عجمى ولا فضل لعجمى على عربى إلا بالتقوى »[٢] .

والتقوى مبنية على أصلين : الصبر ، والشكر . وكل من الغنى والفقير لابد له منهما ، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل .

فإن قيل : فإذا كان صبر الفقير أتم ، وشكر الغنى أتم فأيهما أفضل ؟ .

قيل : أتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حاله . ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة ، كما قال تعالى فى الأثر الإلهى : ﴿ **ماتقرب إلى عبدى بمثل مداومة ما افترضت عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل** ﴾[٣]

فإن قيل : فقد ثبت عن النبى ﷺ قال : « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم . وذلك خمسمائة عام »[٤] قيل : هذا لايدل على فضلهم على الأغنياء فى الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم

---

(١)سورة الحجرات من الآية : ١٣

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٤١١ وهذا جزء من حديث الرسول ﷺ فى خطبة الوداع :

(٣) انظر السنن الكبرى ج ١ ص ٢١٩ كتاب الشهادات باب ينبغى للمرء ألا يبلغ منه ولا من غيره من تلاوة قرآن ولا صلاة نافلة ولا نظر فى علم مايشغله عن الصلاة حتى يخرج وقتها من رواية أبى هريرة ورواه البخارى فى الصحيح عن محمد بن عثمان بن كرامة .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٤٣ من رواية أبى هريرة .

بالدخول . فقد يتأخر الغنى والسلطان العادل فى الدخول لحسابه . فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع كسبق الفقير القفل فى المضائق وغيرها ويتأخر صاحب الأحمال بعده .

قيل : احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين .

والتحقيق : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جمع له بين المقامين كليهما على أتم الوجوه وكان سيد الأغنياء الشاكرين ، وسيد الفقراء الصابرين ، فحصل له من الصبر على الفقر مالم يحصل لأحد سواه . ومن الشكر على الغنى مالم يحصل لغنى سواه . ومن تأمل سيرته ـ ﷺ ـ وجد الأمر كذلك فكان ﷺ أصبر الخلق فى مواطن الصبر ، وأشكر الخلق فى مواطن الشكر . وربه ـ تعالى ـ كمل له مراتب الكمال فجعله فى أعلى رتب الأغنياء الشاكرين . وفى أعلى مراتب الفقراء الصابرين .

والمقصود : أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به كما فى المسند عنه ﷺ قال : « يقول الله ـ تعالى ـ « إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثا ، ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب ﴾[١] »

فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده ، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة ، فخسر الدنيا والآخرة .

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ جعل الفقر والغنى ابتلاء وامتحانا للشكر والصبر والصدق والكذب والإخلاص والشرك قال تعالى : ﴿ **الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾[٢]

وقال تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم** ﴾[٣]

فجعل الدنيا عرضا عاجلا ، ومتاع غرور ، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ﴾[٤] . فأخبر ـ سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا ، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال ـ سبحانه ـ :

﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد** ﴾[٥]

ثم ذكر ـ سبحانه ـ من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال : ﴿ **الذين**

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢١٩ فقد ورد الحديث عن أبى واقد الليثى مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه . وانظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب مايتقى من فتنة المال ج ٨ ص ١١٥ فقد وردت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ١ ـ ٣

(٣) سورة التغابن الآية : ١٥

(٤) سورة آل عمران الآية : ١٤

(٥) سورة آل عمران الآية : ١٥

يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾[١] فأخبر سبحانه أن ماأعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا وهو نوعان : ثواب يتمتعون به وأكبر منه وهو رضوانه عليهم .

قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « مالى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قال فى ظل شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها »[٢] .

وفى جامع الترمذى من حديث سهل بن سعد قال : قال رسول الله - ﷺ - « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء »[٣] قال الترمذى حديث صحيح .

وفى صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد ، قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع وأشار بالسبابة »[٤] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وماوالاه ، وعالم أومتعلم »[٥] أخرجه الترمذى وقال حسن .

قوله تعالى : **﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾** .

وهذا مقام الرسالة التى تنطق حقا وتقول صديا فيه الوعد والوعيد ، أى : إن تكذبوا بما جئتكم به من التوحيد والنبوة والبعث . فإن هناك أمما سبقتكم كذبت رسلها فحق عليهم الوعيد فأهلكهم الله . قال تعالى : **﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾**[٦] وقال عز من قائل : **﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون . فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا**

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٦ - ١٧

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٤٤١ وهذا جزء من حديث مروى عن عبد الله بن مسعود

(٣) انظر المستدرك كتاب الرقاق ج ٤ ص ٣٠٦ عن رواية سهل بن سعد من حديث طويل والحديث الذى معنا جزء منه ، غير أنه جاء بكلمة «تزل» بدلا من «تعدل» وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وانظر كنز العمال ج ٣ ص ١٩٧ حديث رقم ٦١٣٢ فقد ورد برواية سهل بن سعد غير أنه جاء بكلمة تعدل - أيضا .

وانظر حلية الأولياء ج ٣ ص ٢٥٣ فقد ورد الحديث عن سهل بن سعد بلفظ « تعدل » وقال : هذا حديث غريب من حديث عبد الحميد بن سليمان عن أبى حازم .

(٤) انظر صحيح منسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها » باب . . فناء الدنيا - الخ ج ٤ ص ٢١٩٣ حديث رقم ٥٥ / ٢٨٥٨ فقد ورد هذا الحديث من رواية المستورد بلفظه مع زيادة لفظ « والله » ومع تقديم وتأخير فى الجزء الأخير من الحديث .

وانظر مجمع الزوائد « كتاب التوبة » باب « مثل الدنيا مع الآخرة » ج ١٠ ص ٢٨٨ فقد ورد الحديث برواية عن شداد بن أدمى الفهرى ، وانظر سنن الترمذى كتاب الزهد ص ٣٨٤ رقم ٢٤٢٥ فقد ورد الحديث عن مستورد . وقال : هذا حديث حسن صحيح

(٥) انظر سنن الترمذى « كتاب الزهد » باب ماجاء فى هوان الدنيا على الله . . ص ٣٨٤ حديث ٢٤٢٤ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة . وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٦) سورة العنكبوت الآية : ٣٨

في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ فإنما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾(٢) ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾(٣) وقوله : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر ﴾(٤) ثم انتقل إبراهيم بعد بيان التوحيد والرسالة الى إثبات البعث وهذه الأصول الثلاثة قد أجمعت عليها رسالات السماء : الإلهيات ـ والنبوات ـ والسمعيات قال :

﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ﴾

قياس الإعادة على البدء دليل على أن الإعادة أهون ، فالذى خلق من العدم قادر على أن يعيد مابدأ بعد الفناء قال سبحانه :

﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٥) وقال سبحانه : ﴿ ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا . أو لايذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾(٦) وقال جل جلاله ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾(٧) لذا جاء تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ . ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾(٨) .

ثم أقام الأدلة على أن البعث يسير على الله فقال :

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ لقد بدأه من العدم وبعد أن لم يكن شيئا مذكورا ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾(٩) ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾(١٠) وعلى كل كفار عنيد أن يسأل نفسه هذا السؤال الذى أدلى به القرآن الكريم على سمع كل عاقل ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون ﴾(١١)

---

(١) سورة فصلت الآيات : ١٣ ـ ١٨
(٢) سورة النور من الآية : ٥٤
(٣) سورة ق من الآية : ٤٥
(٤) سورة الغاشية الآيتان : ٢١ ـ ٢٢
(٥) سورة الروم الآية : ٢٧
(٦) سورة مريم الآيتان : ٦٦ ـ ٦٧
(٧) سورة يس الآيات : ٧٧ ـ ٧٩
(٨) سورة لقمان الآية : ٢٨
(٩) سورة فصلت الآية : ٥٢
(١٠) سورة غافر الآية : ٥٧
(١١) سورة الطور الآيتان : ٢٥ ـ ٢٦

إن الذى أبدع هذا الكون قادر على أن ينشىء النشأة الآخرة ﴿ **أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون*فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾[١] .

لذا جاء تذيل الآية ﴿ **ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير** ﴾ فسبحان من اقتضت حكمته أن يعيد الخلق بعد فنائهم ليقيم ميزان العدالة ﴿ **ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[٢] قال تعالى :

﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء** ﴾ بمقتضى العدالة فالقيامة دار جزاء واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

القبـر باب وكل الناس داخلـه ... ياليت شعرى بعد الموت ما الدار
الـدار دار نعيم إن عملـت بما ... يرضـى الإله وإن خالفـت فالنار
هما محـلان ما للمـرء غيـرهما ... فانظـر لنفسـك أى الدار تختـار
ماللعباد سوى الفردوس إن عملوا ... وإن هفوا هفوة فالرب غفـار

(وإليه تقلبون) أى ترجعون فاعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[٣] فسبحانك ربى كل شىء قائم بك ، وكل شىء خاشع لك ، ياعز كل ذليل ياقوة كل ضعيف ، ياغنى كل فقير ، يامفزع كل ملهوف من عاش فعليك رزقه ، ومن مات فإليك منقلبه ، من سكت علمت سره ، ومن تكلم سمعت نطقه ، ياعالم السر والنجوى ، ياكاشف الضر والبلوى ، يامن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه .

قوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ أى : لايعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده فكل شىء خائف منه فقير إليه وهو الغنى عما سواه ﴿ **ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه** ﴾ أى: جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ **أولئك يئسوا من رحمتى** ﴾ أى لانصيب لهم فيها ، ﴿ **وأولئك لهم عذاب أليم** ﴾ أى موجع شديد فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ وقال ﴿ **إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين** ﴾

(١) سورة يس الآيات : ٨١ ـ ٨٣
(٢) سورة النجم من الآية : ٣١
(٣) سورة الشعراء من الآية : ٢٢٧

وهذا منطق الباطل الذى عهدناه من قوم إبراهيم لقد دعاهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر بالحكمة والموعظة الحسنة ولكنهم لإفلاسهم الفكرى وبعد قيام الحجة عليهم لجأوا إلى استعمال العنف والقوة والقسوة فلم يقابلوا الحجة بالحجة والدليل بالدليل إنما استعملوا القوى العضلية مقابل القوى العقلية . ﴿ **قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين** ﴾[١] وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطابا عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وخرج منها سالما بعدما مكث فيها أياما ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماما . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله تعالى : ﴿ **فأنجاه الله من النار** ﴾ أى : سلمه منها بأن جعلها عليه بردا وسلاما ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ وهكذا حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقا ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾[٢] فأصدرت محكمة السماء حكمها لإبراهيم بالإفراج فورا . ﴿ **قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم** ﴾[٣] نزع الله منها الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾[٤] . وكان إبراهيم عندما ألقى فى النار يقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، وهذه الكلمة أمان الخائف قال تعالى :

﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا** ﴾ يقول لقومه مقرعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم فى عبادتهم للأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا

صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذكم هذا لتحصل لكم المودة فى الدنيا فقط ﴿ **ثم يوم القيامة** ﴾ ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضا وشنآنا ثم ﴿ **يكفر بعضكم ببعض** ﴾ أى تتجاحدون ماكان بينكم ﴿ **ويلعن بعضكم بعضا** ﴾ أى يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها** ﴾[٦]

وقال تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[٧]

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٩٧ - ٩٨
(٢) سورة الأنبياء الآية : ٦٨
(٣) سورة الأنبياء الآية : ٦٩
(٤) سورة الأنبياء الآيتان : ٧٠ - ٧١
(٥) سورة آل عمران الآيات : ١٧٣ - ١٧٥
(٦) سورة الأعراف من الآية : ٣٨
(٧) سورة الزخرف الآية : ٦٧

وقال ههنا : ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ﴾ الآية : أى ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ومالكم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك . قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا أبو عاصم الثقفى حدثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومى عن أبيه عن جده عن أم هانىء أخت على بن أبى طالب ، قالت :

قال لى النبى - ﷺ -: « أخبرك أن الله - تعالى - يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد فمن يدرى أين الطرفان ؟ - قالت ، الله ورسوله أعلم - ثم ينادى مناد من تحت العرش ياأهل التوحيد فيشرئبون - قال أبو عاصم : يرفعون رءوسهم - ثم ينادى ياأهل التوحيد ، ثم ينادى الثالثة ياأهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم - قال - : فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظلامات الدنيا - يعنى المظالم - ثم ينادى ياأهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب »(١) .

قوله تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾ أى : فلما رأى لوط معجزة إبراهيم آمن به وقال إبراهيم : إنى جاعل بلاد الشام دار هجرتى ؛ إذ أمرنى ربى بالتوجه إليها ، ويقال : إن مهجره كان من كونى من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، فإنه لما بالغ فى الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاؤه بينهم مفسدة ، لأنه إما اشتغال بما لافائدة فيه وهو عبث ، وإما سكوت وهو دليل الرضا ، فلم تبق إلا الهجرة .

ذكر البيهقى عن قتادة قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الله - عز وجل - بأهله عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله - ﷺ - خبرهما ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يامحمد رأيت ختنك ومعه امرأته ، قال : على أى حال رأيتهما ؟ قالت : رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة ﴿ التى تدب فى الأرض ولا تسرع ﴾ وهو يسوقها ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صحبهما الله ، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط »(٢) .

ثم ذكر العلة فى الهجرة فقال

﴿ إنه العزيز الحكيم ﴾ أى : إن ربى هو العزيز الذى لا يذل من نصره ، بل يمنعه ممن أراده بسوء ، الحكيم فى تدبير شئون خلقه ، وتصريفه إياهم فيما صرفهم فيه .

ثم ذكر سبحانه مامن به عليه من النعم فى الدنيا والآخرة كفاء إخلاصه له فقال :

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن أم هانىء .

(٢) انظر كنز العمال-كتاب الهيئة فصل الاكمال كتاب الهجرتين من قسم الأقوال ج ١٠٦ ص ٦٥٦ حديث رقم ٤٦٢٥٧ .
وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٣ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ تفسير سورة العنكبوت فى قوله تعالى ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾

(١) - ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ أى : ورزقناه من لدنا إسحاق ولدا ويعقوب من بعده حفيدا .

ونحو الآية قوله : ﴿ فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴾[١] وقوله : ﴿ وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾[٢]

وفى الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »[٣]

(٢) - ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ فلم يوجد نبى من بعده إلا وهو من سلائله ، فجميع أنبياء بنى اسرائيل من أولاد يعقوب ، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم .

(٣)-﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا ﴾ فبدل الله أحواله فى الدنيا بأضدادها ، فبدل وحدته بكثرة الذرية ، وبدل قومه الضالين بقوم مهتدين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان لامال له ولا جاه وهما غاية اللذة فى الدنيا ، فكثر ماله ، وعظم جاهه ، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء ، وصار معروفا بأنه شيخ الأنبياء بعد أن كان خامل الذكر ، حتى قال قائلهم : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾[٤] وهذا لايقال إلا فى المجهول بين الناس ، الا أنه تعالى اتخذه خليلا ، وجعله للناس إماما .

(٤) - ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى : وإنه فى الآخرة لفى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى ، المستحقين لتوفير الأجر ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلى من لدن رب العالمين .

وقصارى أمره - أنه - سبحانه - جمع له بين سعادة الدارين وآتاه الحسنى فى الحياتين .

* قصة لوط مع قومه *

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ

---

(١) سورة مريم الآية : ٤٩

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٧٢

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٢٤ كتاب بدء الخلق باب من انتسب إلى آبائه فقد ورد الحديث بلفظ عن ابن عمر وأبى هريرة .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٦٠

ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

* تفسير المفردات

(الفاحشة) أى : الفعلة الفاحشة المتناهية فى القبح قيل : هى إتيان الرجال فى أدبارها ﴿ **وتقطعون السبيل** ﴾ أى : الطريق (المنكر) الأمر المخالف للشرع المجافى للطبع السليم كاللواطة وأنواع الفحش (بالبشرى) بالبشارة بإسحاق ويعقوب (الغابرين) الباقين فى العذاب (سىء بهم) جاءته المساءة والغم بسببهم ﴿ **ضاق بهم ذرعا** ﴾ أى ضاق ذرعه بهم ، وذرع الإنسان طاقته كقولهم : ضاقت يده عن كذا مثلا ﴿ **رجزا من السماء** ﴾ عذابا شديدا منها وسمى بذلك لأنه يقلق المعذب مأخوذ من قولهم :

ارتجز إذا ارتجس أى : اضطرب .

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن قص علينا ـ سبحانه ـ قصص إبراهيم ومالاقاه من قومه من العتو والجبروت ، ثم نصره له نصرا مؤزرا . أعقبه بقصص لوط ، إذ كان معاصرا له وسبقه إلى الدعوة إلى الله ، وقد افتن قومه فى فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سدوم العذاب جاءوا ضيوفا لإبراهيم ـ عليه السلام ـ

ولما استنصر لوط ـ عليه السلام ـ بربه بقوله : ﴿ **رب انصرنى على القوم المفسدين** ﴾ استجاب دعاءه وبعث لنصرته ملائكته ، وأمرهم بإهلاك قومه ، وأرسلهم من قبل بالبشرى لإبراهيم فجاءوه وبشروه بذرية طيبة ثم قالوا له : إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادى أهلها فى الشر وإصرارهم على الكفر والمعاصى ، فأشفق إبراهيم على لوط وقال : إن فى القرية لوطا ، فقالوا : إنا منجوه وأهله إلا امرأته ، ثم ينزل عليهم من السماء عذابا بما اجترحوا من السيئات واجترموا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين ، وآية بينة لقوم يعقلون .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾

المقصود بالفاحشة هنا : ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين * وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾[١] وماجاء فى قوله تعالى : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ وهذه الفعلة الشنيعة لم يسبقهم بها أحد لذا عذبوا عذابا لم يعذبه أحد من العالمين . قال تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين ﴾[٢]

وقال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى ﴾[٣] وقال : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابى ونذر ﴾[٤] ولقد أضافوا إلى تلك الفعلة الشنيعة كفرهم بالله وقطعهم السبيل على المارة فكانوا يسلبونهم أموالهم ويعتدون عليهم بكل أنواع الأذى كما أضافوا إلى ذلك إتيانهم المنكر فى ناديهم ومجتمعاتهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن أسامة أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة ، حدثنا سماك بن حرب ، عن أبى صالح - مولى أم هانىء - عن أم هانىء . قالت لى : سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله تعالى : ﴿ وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾ قال : كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم فذلك المنكر الذى كانوا يأتونه »[٥]

قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبى الله فقال : ﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ .

لما استنصر لوط - عليه السلام - بالله - عز وجل - عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم - عليه السلام - فى هيئة أضياف فجاءهم بما ينبغى للضيف فلما رأى إبراهيم أنه لاهمة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه أنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١٦٥ وجزء الآية : ١٦٦
(٢) سورة الذاريات الآيتان : ٣٣ - ٣٤
(٣) سورة النجم الآيتان : ٥٣ - ٥٤
(٤) سورة القمر الآيتان : ٣٨ - ٣٩
(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٤٠ - ٣٤١ « حديث أم هانىء » فقد ورد الحديث عن روح عن أم هانىء بلفظه .

لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾

أى : من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط فى صورة شبان حسان فلما رآهم كذلك ﴿ سىء بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ أى : اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشى عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة ﴿ قالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ وذلك أن جبريل ـ عليه السلام ـ اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ أى واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1]

* قصص مدين وعاد وثمود وغيرهم *

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

تفسير المفردات

(الرجفة) الزلزلة يقال : رجف يرجف رجفة أى : اضطراب (جاثمين) باركين على ركبهم ميتين (سابقين) فائتين غير مدركين (حاصبا) ريحا حاصبا أى : فيها حصباء يقال حصبه يحصبه إذا رماه بالحصباء (الصيحة) الصرخة الشديدة .

(١) سورة الصافات الآيتان : ١٣٧ ـ ١٣٨

* التفسير *

وإلى مدين أرسلنا لهم أخاهم شعيبا فدعاهم إلى الإيمان بالله وقال لهم : ياقوم اعبدوا الله ربكم مالكم من إله غيره ، وارجوا اليوم الآخر أى افعلوا ماترجون به العافية فى يوم الحساب والجزاء وإياكم والفساد فى الأرض ، فإن عاقبته وخيمة . فكذبوه ولم يؤمنوا به فأخذتهم الصيحة بالعذاب فارتجفت قلوبهم واضطربت حيث لاينفع الاضطراب والخوف ، وأصبحوا فى ديارهم جاثمين على ركبهم ميتين كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ! ؟ فهل من مدكر ؟ وأهلكنا عادا لما أرسلنا لهم أخاهم هودا يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسله ، فكذبوا وكفروا وأهلكنا ثمودا لما أرسلنا لهم أخاهم صالحا يدعوهم إلى عبادة الله فكفروا به وكذبوه .

وهاأنتم أولاء ياأهل مكة . ويامشركى العرب قد تبين لكم ذلك أى : إهلاكهم ، وظهرت لكم الأدلة الواضحة على عذابهم ، وهم قد زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل الحق والصراط المستقيم فكانت عاقبة أمرهم خسرا ، وكانوا مستبصرين أى : عقلاء أصحاب فكر ونظر ولكنهم لم ينتفعوا بذلك أفليس من العقل والحكمة أن تعتبروا وتتعظوا بهؤلاء فالعاقل من اتعظ بغيره ، والسعيد من اتعظ بنفسه ، وإنما يتذكر أولو الألباب .

وأهلكنا قارون لما طغى وبغى ولما يمتثل أمر الله ، وأهلكنا فرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات من عند ربهم فاستكبروا فى الأرض ، إنهم كانوا خاطئين وكان فرعون وهامان عالين من المفسدين ، ولكنهم ماكانوا سابقين فائتين ، بل أدركهم أمر الله وبطشه ﴿ إن بطش ربك لشديد﴾﴿إنها أن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾[1]

فكلا من هؤلاء وهؤلاء أخذنا بذنبه إذ كل نفس بما كسبت رهينة فمنهم من أرسلنا عليه ريحا حاصبة أهلكته وهم قوم لوط إنهم كانوا قوما يعملون الخبائث ، ومنهم من أخذته الصيحة بالعذاب كمدين وثمود ، صيحة ترجف الأرض منها والجبال فكانت بحق هى الرجفة ، ومنهم من خسفنا به وبداره الأرض . وهو قارون ليكون عبرة لكل طاغية جبار .

ومنهم من أغرقنا كقوم نوح وفرعون ، لما طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد . وماكان الله ليظلمهم أبدا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

*مثل اتخاذ الأصنام آلهة *

قوله تعالى :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

(١) سورة لقمان الآية : ١٦

وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

ـ تفسير المفردات ـ

(أولياء) أصناما يرجون نفعها (العنكبوت) حشرة معروفة (أوهن) أضعف (مثل) المثل : الصفة التى تشبه المثل فى الغرابة .

ـ المناسبة وإجمال المعنى ـ

لما بين الله تعالى أنه أهلك المشركين وأفناهم لما كذبوا الرسل وبالغوا فى العناد ، وكان هذا بمثابة تعجيل العذاب لهم فى الدنيا زيادة على ماأعد لهم فى الآخرة من عذاب مقيم ، ولم ينفعهم فى الدارين من دون الله معبود ، ولم يدفع عنهم العذاب ركوعهم للأصنام وسجودهم . لما بين هذا ضرب لهم مثلا فى اتخاذهم معبوداتهم آلهة باتخاذ العنكبوت بيتا لم يقها من شر عاد عليها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾

يقول العلامة ابن القيم : إن الله ـ سبحانه ـ ذكر أنهم ضعفاء وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم : فهم فى ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . وهو أوهن البيوت وأضعفها .

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ماكانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء . فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا على ضعفهم كما قال تعالى :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[(١)] وقال تعالى :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾[(٢)] وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب ﴾[(٣)] .

---

(١) سورة مريم الآيتان : ٨١ ـ ٨٢

(٢) سورة يس الآيتان : ٧٤ ـ ٧٥

(٣) سورة هود الآية : ١٠١

فهذه أربعة مواضع فى القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ، ويتكبر به ، ويستقربه لم يحصل له به إلا ضد مقصوده .

وفى القرآن أكثر من ذلك . وهو من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك ، وعلى خسران صاحبه وحصوله على مقصوده . فإن قيل : فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ؟

فالجواب : أنه ـ سبحانه ـ لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم الموتى أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا ، فلو علموا ذلك ما فعلوه ، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزة وقدرة . والأمر فى الواقع بخلاف ماظنوه .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ إن الله يعلم مايدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم ﴾ بعد التمثيل ! ولقد قال الزمخشرى فى تفسير الآية : وهذا زيادة توكيد على التمثيل . . على معنى أن الله يعلم أنهم لايدعون من دونه شيئا له وجود ، وهو العزيز الحكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم العليم الخبير ، ويشتغل بعبادة ماليس بشىء أصلا .

وتلك الأمثال الرائعة التى هى من عيون الكلام لعمق أثرها فى النفس ، وقوة فعلها فى العقل نضربها للناس لا للبهائم والجمادات ، ومايعقلها ويدرك سرها ويقف على إشاراتها إلا العالمون ، ويقول الفخر : العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم ، والمقصود من هذا أن العلم الذى أساسه محسوسات يسمى علما حدسيا كالاستدلال بالصوت على حياة صاحبه . أما إذا كان أساس العلم أمورا نظرية وآيات علمية كان إدراكها علما فكريا دقيقا يحتاج إلى معلومات وأفهام ، وذلك كالأمثال ، ومن هنا ندرك السر فى تعبير القرآن : ومايعقلها إلا العالمون

﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾

وفى هذه الآية سلوى للمؤمنين ، أى : إذا لم يؤمنوا مع وضوح الأدلة وذكر القصص وضرب الأمثال فلا يكون ذلك مانعا لكم مشككا فى صحة دينكم فإن خلق الله السموات والأرض بالحق هو للمؤمنين بيان ظاهر وبرهان واضح وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، حقا إن فى ذلك أى خلق السموات والأرض آية للمؤمنين أما خلقهما فقط فهو آية لكل عاقل كما قال تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[1]

* آداب إسلامية *

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٦٤

وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)

* التفسير *

اتل يامحمد ، وكذا كل مسلم ، اتل ماأوحى إليك من الكتاب الكامل الذى لاريب فيه هدى للمتقين ، اتله واحفظه ليبقى مدى الدهر ، واعمل بما فيه ، ففيه نجاتك وضرك وعلاجك وعليك بالصلاة فهى عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد والرب ، فإن جفاك الناس وألم بك حادث تكرهه فعليك بالقرآن ، والجأ إلى الصلاة تتصل بالله ، وإذا اتصلت به كنت ربانيا روحانيا عند ذلك تدين لك الصعاب ، وتخضع الرقاب ، وتصل إلى ماتريد .

الصلاة عملية تطهير لصاحبها ، تتكرر لتغسل أدرانه ، وماقد يكون علق بنفسه وروحه من غبار الدنيا ، وهى كما يقول النبى ـ ﷺ ـ مامعناه : هى عين أمام بيتك تغتسل منها خمس مرات فهل يبقى عليك درن ووسخ ؟ !!

الصلاة الحقيقية التامة الأركان ، المستوفية الشروط ، المقومة بأركانها وسننها وآدابها ، الصادرة من قلب برىء خالص ، سليم من الرياء والنفاق ، مملوء بالخوف من الله والرجاء فى عفوه .

هذه الصلاة هى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر . عن ابن عباس وابن مسعود قالا : « فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله ـ تعالى ـ فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله ـ تعالى ـ إلا بعدا » وقال الحسن وقتادة : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه »[(١)] ومن هنا ندرك كيف يقع من بعض المصلين فحش ومنكر ؟ والجواب : أنها صلاة بلا روح صلاة بلا خشوع ولا خضوع ، صلاة فيها رياء وسمعة ، صلاة لا يمكن أن تنهى عن فحشاء ومنكر .

فليست الصلاة تنهى بقيامها وركوعها وسجودها لا إنما تنهى بذكر الله وتذكره .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[(٢)] ومن هنا قال الله : **﴿ ولذكر الله أكبر ﴾** والله يعلم الغيب والشهادة وهو العليم بذات الصدور فراقبوا الله مراقب من يعلم أن الله يسمعه ويراه .

والذكر النافع هو الذى يكون مع العلم وإقبال القلب وتفرغ النفس مما سوى الله ، وأما مالا يتجاوز اللسان فشىء آخر والله يعلم ماتصنعون .

قوله تعالى : **﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾**

قيل فى معناها : انكم فى الصلاة تذكرون الله ، وهو ذاكركم ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من

---

(١) سنن الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٤٣٦ ورد الحديث بلفظ : « حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله ـ ﷺ مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات .
وعن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ مثله فماذا يبقى ذلك من الدرن »

(٢) سورة الرعد من الآية : ٢٨

ذكركم إياه ، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبى الدرداء وابن مسعود - رضى الله عنهم -

وذكر ابن أبى الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية « ولذكر الله أكبر . . قال هو قوله تعالى : ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾[١] فذكر الله - تعالى - لكم أكبر من ذكركم إياه .

وقال ابن زيد وقتادة : معناه ، ولذكر الله أكبر من كل شىء .

وقيل لسلمان أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ ويشهد لهذا حديث أبى الدرداء .

(ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم وتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قلنا : بلى . قال ذكر الله)[٢]

وكان شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه يقول : الصحيح أن معنى الآية : أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، وأحدهما أعظم من الآخر . فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى مشتملة على ذكر الله - تعالى - ولما فيها من ذكر الله - تعالى - ، أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

وذكر ابن أبى الدنيا عن ابن عباس : أنه سئل أى العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر .

* كلمة فى الذكر *

الذكر : هو مايجرى على اللسان والقلب ، من تسبيح الله - تعالى - وتنزيهه وحمده والثناء عليه ، ووصفه بصفات الكمال ، ونعوت الجلال والجمال .

١ - وقد أمر الله بالإكثار منه فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾[٣] .

٢ - وأخبر أنه يذكر من يذكره فقال : ﴿ **فاذكرونى أذكركم** ﴾ وقال فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى ومسلم : (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة ﴾[٤] .

ومعنى ﴿ **أنا عند ظن عبدى بى** ﴾ أى : إن ظن أن الله يقبل دعاءه وهو يدعوه قبله - ومن استغفره وظن أن الله يغفر له فإنه يغفر له وهكذا .

ومعنى ﴿ **أتيته هرولة** ﴾ أى : أنه كلما زاد إقبال العبد على ربه كان الله له بكل خير أسرع .

٣ - وأنه - سبحانه - اختص أهل الذكر بالتفرد والسبق فقال رسول الله - ﷺ - « سبق المفردون » .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٥٢

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل ذكره ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣١٩٠ فقد روى الحديث عن أبى الدرداء مع اختلاف فى لفظى : أزكاها - انفاق فقد جاء بلفظى أرضاها ، وإعطاء وانظر اتحاف السادة المتقين ج ٥ ص ٧ ، وانظر كنز العمال ج ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧

(٣) سورة الأحزاب الأيتان : ٤١ - ٤٢

(٤) صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء الخ باب فضل الذكر والدعاء . . الخ ج ٤ ص ٢٠٦٨ ص ٢٠٦ حديث ٢٦٧٥ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة وانظر أحمد ص ١٢٢ من رواية أنس .

قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » رواه مسلم[١]

٤ ـ وأنهم هم الأحياء على الحقيقة ، فعن أبي موسى : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « مثل الذى يذكر ربه ، والذى لايذكر مثل الحى والميت »[٢] رواه البخارى .

٥ ـ والذكر رأس الأعمال الصالحة ، من وفق له فقد أعطى منشور الولاية ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يذكر الله فى كل أحيانه .

ويوصى الرجل الذى قال له : إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشىء أتشبث به ؟ فيقول له : « لايزال فوك رطبا من ذكر الله » ويقول لأصحابه : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى ، يارسول الله قال : « ذكر الله »[٣] رواه الترمذى وأحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

ومعنى (أتشبث) أى أتمسك به .

ومعنى (الورق) الفضة .

٦ ـ وأنه سبيل النجاة فعن معاذ رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « ماعمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل »[٤] رواه أحمد .

٧ ـ وعند أحمد : أنه ﷺ قال « إن ماتذكرون من جلال الله ـ عز وجل ـ من التهليل ، والتكبير ، والتحميد ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له مايذكر به ؟ »[٥]

* حد الذكر الكثير : ـ

أمر الله ـ جل ذكره ـ بأن يذكر ذكرا كثيرا ، ووصف أولى الألباب الذين ينتفعون بالنظر فى آياته بأنهم : ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** ﴾[٦] ﴿ **والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد**

---

(١) صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء . . الخ باب الحث على ذكر الله تعالى ج ٤ ص ٢٠٦٢ حديث ٢٦٧٦ ورد عن أبى هريرة بلفظ : قال كان رسول الله ﷺ ـ يسير فى طريق مكة ، فمر على جبل يقال له جمدان فقال : « سيروا ، هذا جمدان . سبق المفردون . . الخ » وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٥ أبواب الدعوات حديث ٣٦٦٦

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٨ ص ١٠٧ كتاب الدعاء : باب فضل ذكر الله ـ عز وجل ـ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى موسى .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الذكر » ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣٧٩٠ فقد روى الحديث عن أبى الدرداء مع تغير فى بعض ألفاظه فقد ذكر « أرضاها » بدلا من « أزكاها » وإعطاء بدلا من « انفاق وانظر اتحاف السادة المتقين ج ٥ ص ٧ فقد ورد الحديث عن رواية أبى الدرداء ـ وقد ذكر فيه لفظ « اعطاء » بدلا من «انفاق » أيضا .
وانظر كنز العمال ج ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧ فقد ورد عن رواية لأبى الدرداء .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الذكر » حديث ٣٧٩٠ فقد جاء فى آخر الحديث قال معاذ بن جبل : « ماعمل امرؤ بعمل أنجى له من عذاب الله ـ عز وجل ـ من ذكر الله » .
وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث برواية معاذ ـ رضى الله عنه .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ٤ ص ١٧١ فقد ورد الحديث عن النعمان بن بشير مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٩١

الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾[١] .

وقال مجاهد : لايكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

وسئل ابن الصلاح عن القدر الذى يصير به من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات فقال : إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحا ومساء ، فى الأوقات والأحوال المختلفة ليلا ونهارا ، كان من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى هذه الآيات قال : إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، وعذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهى إليه . ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على تركه فقال : **﴿ فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾**[٢] بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر ، والحضر والغنى والفقر ، والسقم ، والصحة ، والسر والعلانية وعلى كل حال

- شمول الذكر كل الطاعات .

قال سعيد بن جبير : كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله ، وأراد بعض السلف أن يخصص هذا العام ، فقصر الذكر على بعض أنواعه ، منهم عطاء حيث يقول : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام ، كيف تشترى وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتنكح وتطلق ، وتحج وأشياء مثل ذلك . وقال القرطبى :

مجلس الذكر ، يعنى مجلس علم وتذكير ، وهى المجالس التى يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ، وأخبار السلف الصالحين ، وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين ، المبرأة عن التصنع والبدع ، والمنزهة عن المقاصد الردية والطمع .

* آداب الذكر : -

المقصود من الذكر تزكية الأنفس ، وتطهير القلوب ، وإيقاظ الضمائر وإلى هذا تشير الآية الكريمة : **﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾** أى أن ذكر الله فى النهى عن الفحشاء والمنكر أكبر من الصلاة وذلك أن الذاكر حين ينفتح لربه جنانه وينهج بذكره لسانه يمده الله بنوره فيزداد إيمانا إلى إيمانه ويقينا إلى يقينه ، فيسكن قلبه للحق ويطمئن به **﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾**[٣]

وإذا اطمأن القلب للحق اتجه نحو المثل الأعلى ، وأخذ سبيله إليه ، دون أن تلفته عنه نوازع

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٥

(٢) سورة النساء من الآية : ١٠٣

(٣) سورة الرعد الآية : ٢٨

الهوى ، ولا دوافع الشهوة . ومن ثم عظم أمر الذكر ، وجل خطره فى حياة الإنسان . ومن غير المعقول أن تتحقق هذه النتائج بمجرد لفظ يلفظه اللسان ، فإن حركة اللسان قليلة الجدوى ، مالم تكن مواطئة للقلب . وموافقة له ، وقد أرشد الله إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه المرء أثناء الذكر فقال :

﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾[1] .

والآية تشير إلى أنه يستحب أن يكون الذكر سرا ، لاترتفع به الأصوات ، وقد سمع رسول الله ـ ﷺ ـ جماعة من الناس رفعوا أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال : (يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا ، إن الذى تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)[2] . كما تشير إلى حالة الرغبة والرهبة التى يحسن بالإنسان أن يتصف بها عند الذكر .

ومن الأدب أن يكون الذاكر نظيف الثوب ، طاهر البدن طيب الرائحة ، فإن ذلك مما يزيد النفس نشاطا ، ويستقبل القبلة ماأمكن ، فإن خير المجالس ، مااستقبل به القبلة .

* استحباب الاجتماع فى مجالس الذكر :ـ

يستحب الجلوس فى حلق الذكر . وقد جاء فى ذلك مايأتى :

١ ـ عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » : قالوا : ومارياض الجنة يارسول الله ؟ قال : « حلق الذكر ، فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم »[3]

٢ ـ وروى مسلم عن معاوية أنه قال : خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال : ماأجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ماهدانا للإسلام ومن به علينا . قال : « الله ماأجلسكم إلا ذاك ، أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة »[4]

٣ ـ وروى أيضا عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما :

أنهما شهدا على رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « لايقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة ،

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٠٥

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب : استحباب خفض الصوت بالذكر حديث ٢٧٠٤/٤٤ فقد ورد عن أبى موسى حديث بهذا المعنى .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٠ فقد ورد الشق الأول من الحديث من رواية لأنس إلى قوله : « . . حلق الذكر » وانظر سنن الترمذى أبواب الدعوات » باب ٨٧ ص ١٩٤ حديث رقم ٣٥٧٧ من رواية لأنس إلى قوله : « حلق الذكر » وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٩٢ فقد ورد هذا الحديث عن أبى سعيد الخدرى من حديث طويل لمعاوية وانظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء الخ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ج ٤ ص ٢٠٧٥ حديث ٢٠٧١/٤٠ فقد ورد الحديث عن أبى سعيد الخدرى من حديث طويل لمعاوية .

وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[١]

فضل من قال : لاإله إلا الله مخلصا : ـ

١ ـ عن أبى هريرة أن النبى ـ ﷺ ـ قال :
« ماقال عبد : لاإله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر »[٢]

رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

معنى (يفضى إلى العرش) أى يصل هذا القول إليه ، وهذا كقول الله تعالى ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾[٣] .

٢ ـ وعنه أنه ﷺ ـ قال : جددوا إيمانكم ، قيل : يارسول الله ـ وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لاإله إلا الله »[٤] رواه أحمد بإسناد حسن .

٣ ـ وعن جابر : أن النبى ﷺ قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله »[٥] رواه النسائى وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

* فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك :

١ ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[٦] رواه الشيخان والترمذى . .

٢ ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « لأن أقول سبحان الله ، والحمد لله ولاإله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس »[٧] رواهما مسلم والترمذى .

---

(١) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل الذكر ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ص ٣٧٩١ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة وأبى سعيد مع تغيير فى بعض ألفاظه .
وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٤٧ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة وأبى سعيد مع تقديم وتأخير فى بعض جمله وما تغير فى بعض ألفاظه .
وانظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء . . الخ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الخ ج ٤ ص ٢٠٧٤ حديث رقم ٣٩/ ٢٧٠٠ فقد ورد الحديث رواية أبى هريرة وأبى سعيد .
(٢) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٣ أبواب الدعوات حديث ٣٦٦٠ رواية أبى هريرة وقال الترمذى هذا حديث حسن غريب .
(٣) سورة فاطر من الآية : ١٠
(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٥٩ فقد ورد هذا الحديث بلفظه عن أبى هريرة
(٥) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب آ ٥٥ فضل الحامدين ج ٢ ص ١٢٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه
(٦) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب ٥٦ فضل التسبيح ج ٢ ص ١٢٥١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه .
وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ١٧٤ أبواب الدعوات باب آ ٦١ حديث رقم ٣٥٣٤ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .
(٧) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء ، فضل التهليل والتسبيح والدعاء حديث رقم ٢٦٩٥/٣٢ وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٦ أبو الذكر والدعاء حديث ٣٦٦٧ قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

٣ ـ عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله قلت : أخبرنى يارسول الله . قال إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده »(١) رواه مسلم والترمذى ولفظه أحب الكلام إلى الله ـ عز وجل ـ مااصطفى الله لملائكته . سبحان ربى وبحمده . سبحان ربى وبحمده .

٤ ـ عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة »(٢) رواه الترمذى وحسنه

٥ ـ وعن أبى سعيد أن النبى قال : استكثروا من الباقيات الصالحات قيل : وماهن يارسول الله ؟ قال : « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »(٣) رواه النسائى والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٦ ـ عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى فقال : « يامحمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر » رواه الترمذى والطبرانى وزاد « ولا حول ولا قوة إلا بالله »(٤) .

ـ معنى (قيعان) جمع قاع أى أنها مستوية منبسطة واسعة .

٧ ـ وعند مسلم : أن النبى ﷺ قال : « أحب الكلام إلى الله أربع لايضرك بأيهن بدأت : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر »(٥) .

٨ ـ وعن أبى مسعود رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »(٥) رواه البخارى ومسلم .

أى ﴿ أجزأتاه عن قيام الليلة ﴾ وقيل كفتاه مايكون من الآفات تلك الليلة ، وقال ابن خزيمة فى صحيحه ، « باب ، ذكر أقل مايجزىء من القراءة فى قيام الليل » ثم ذكره .

٩ ـ وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال النبى : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟

---

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٤ كتاب الذكر والدعاء فضل سبحان الله حديث رقم ٢٧٣١/٨٥ وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٦١ من رواية أبى ذر

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب آ ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ حديث رقم ٣٥٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح لانعرفه إلا من حديث أبى الزبير عن جابر .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ مسند أبى سعيد فقد ورد الحديث بلفظه مع اختلاف فى بعض ألفاظه . وانظر الحاكم « كتاب الدعاء » ج ١ ص ٥١٢ .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب آ ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ حديث رقم آ ٣٥٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الآداب » باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة ج ٢ ص ١٦٨٥ حديث ٢١٣٧/١٢ فقد ورد هذا الحديث عن سمرة بن جندب بلفظ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ـ والحمد لله ـ ولاإله إلا الله ـ والله أكبر لايضرك بأيهن بدأت ، ولا تسمين غلامك يسارا ، ولا رباحا . الخ . .

(٦) انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة الخ ج ١ ص ٥٥٥ حديث ٢٥٦/ ٨٠٨ فقد ورد الحديث من رواية أبى مسعود الأنصارى .

فشق ذلك عليهم . وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله : ! فقال ﷺ . . الله الواحد الصمد ثلث القرآن »[١] رواه البخارى ومسلم والنسائى .

ـ معنى (الله الواحد الصمد) يقصد سورة الإخلاص .

١٠ ـ وعن أبى هريرة : أن رسول الله قال : « من قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ، إلا أحد عمل أكثر من ذلك »[٢] رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وزاد مسلم والترمذى والنسائى ، ومن قال سبحان الله وبحمده ، فى يوم مائة مرة ، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر[٣]

* فضل الاستغفار : ـ

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ياابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ماكان منك ولا أبالى ، ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم إستغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، ياإبن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة »[٤] رواه الترمذى ، وقال حديث حسن غريب .

وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لايحتسب »[٥] رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم وقال صحيح الإسناد .

ـ معنى (العنان) السحاب

ـ معنى (القراب) مايقارب ملأها .

* الذكر المضاعف وجوامعه : ـ

١ ـ عن جويرية رضى الله عنها أن النبى ـ ﷺ ـ خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٢٢ فقد ورد الحديث عن أبى مسعود بلفظ أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة الله الواحد الصمد .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل لاإله إلا الله . . ج ٢ ص ١٢٤٨ حديث ٣٧٩٨ فقد ورد الحديث بلفظه مع تقديم وتأخير وتغيير فى بعض ألفاظه .
وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨/ ٢٦٩١ عن رواية أبى هريرة فقد ورد الحديث بلفظه .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨/٢٦٩١ عن رواية أبى هريرة فقد ورد الحديث بلفظه وانظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » ج ٥ ص ١٧٤ حديث رقم ٣٥٣٣ من رواية أبى هريرة وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأنظر ص ١٧٥ حديث ٣٥٣٥

(٤) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٠٨ « كتاب الدعوات » باب آ ١٠٦ حديث رقم ٣٦٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك ، وقال هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه

(٥) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب الاستغفار ج ٢ ص ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ حديث رقم آ ٣٨١٩ فقد ورد الحديث عن عبد الله ابن عباس بلفظه .

جالسة ، فقال : « مازلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، قال النبى :

لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »[١] رواه مسلم وأبو داود .

٢ ـ ودخل رسول الله ـ ﷺ ـ على امرأة ، وبين يديها نوى أو حصى ، تسبح الله به فقال : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا ، أو أفضل فقال : « سبحان الله عدد ماخلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ماخلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ماخلق بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك »[٢] . رواه أصحاب السنن والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

٣ ـ وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما : أن رسول الله ـ ﷺ ـ حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها » فصعدا إلى السماء فقالا : ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها ؟ قال الله ـ عز وجل ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ : ماذا قال عبدى ؟ قالا : يارب ، إنه قال :

يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله ـ عز وجل ـ لهما « اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها »[٣]

رواه أحمد وابن ماجه .

ـ معنى (فعضلت) اشتدت وعظمت .

* عد الذكر بالأصابع وأنه أفضل من السبحة : ـ

١ ـ عن يسيرة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « عليكن بالتسبيح ، والتهليل والتقديس ، ولا تَغْفُلْنَ فتَنْسَيْنَ الرحمة ، واعقدن بالأنامل ، فإنهن مسئولات ، ومستنطقات »[٤]

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٠ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب « التسبيح أول النهار وعند النوم حديث ٧٩/ ٢٧٢٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن جويرية

وانظر سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب « فضل التسبيح باب ٥٦ ج ٢ ص ١٢٥١ حديث رقم آ ٣٨٠٨ فقد ورد الحديث عن جويريه.

(٢) انظر سنن الترمذى « كتاب الدعوات » باب فى دعاء النبى ـ ﷺ ـ وتسوذه فى دبر كل صلاة ج ٥ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ حديث ٣٦٣٩ عن أبى سعد بن أبى وقاص فقد ورد الحديث بلفظه ، وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث سعد .

(٣) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الحامدين » ج ٢ ص ١٢٤٩ حديث رقم آ ٣٨٠١ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمر

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٣٧٠/ ٣٧١ حديث بسيره فقد ورد الحديث بلفظه

رواه أصحاب السنن والحاكم بسند صحيح .

- معنى (مستنطقات) فى هذا دليل على أن التسبيح على الأصابع أفضل من السبحة وإن كان يجوز العد عليها .

٢ - وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : رأيت رسول الله ﷺ يعقد التسبيح بيمينه »[1] . رواهما أصحاب السنن .

* الترهيب من أن يجلس الإنسان مجلسا لايذكر الله فيه ولايصلى على نبيه :

عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

« ماقعد قوم مقعدا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبى ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » .

رواه الترمذى وقال : حسن ، ورواه أحمد بلفظ : ماجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه إلا كان عليهم تره ، ومامن رجل يمشى طريقا فلم يذكر الله تعالى إلا كان عليه تره ، ومامن رجل آوى إلى فراشه فلم يذكر الله عز وجل إلا كان عليه ترة .

وفى رواية إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة للثواب[2]

---

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الصلاة » باب التسبيح بالحصى » ج ٢ ص ١٧٠/١٧١ حديث رقم ١٥٠٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر ، وقد أخرجه النسائى فى الافتتاح باب رقم ٢٩٤ عقد التسبيح حديث ١٣٥٦ والترمذى فى الدعوات باب عقد التسبيح باليد حديث آ ٣٤٨٢ وقال : (حسن غريب من هذا الوجه)

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب : ماجاء فى القوم يجلسون ولا يذكرون الله ج ٥ ص ١٢٩ باب ٨ حديث آ ٣٤٤٠ فقد ورد الحديث من أبى هريرة بلفظ « ماجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » وقال : هذا حديث حسن ، وقد روى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - من غير وجه . انظر الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٤٩٦ كتاب الدعاء عن أبى هريرة .

- معنى الترة : الحسرة أو النقص ، أو التبعة .

وفى فتح العلام : الحديث دليل على وجوب الذكر والصلاة على النبى ﷺ فى المجلس لاسيما مع تفسير الترة : بالنار أو العذاب ، فقد فسرت بهما ، فإن التعذيب لا يكون إلا لترك واجب ، أو فعل محظور ، وظاهره أن الواجب هو الذكر والصلاة عليه ﷺ معا .

* ذكر كفارة المجلس :

١ - عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لاإله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك ، إلا كفر الله له ماكان فى مجلسه ذلك »(١) .

- معنى (لغطه): من باب نفع : واللغط : كلام فيه جلبة واختلاط .
- معنى (كفر) ستر .

مايقوله من اغتاب أخاه المسلم : -

روى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « إن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته ، تقول : اللهم اغفر لنا وله »(٢)

والمذهب المختار أن الاستغفار لمن اغتيب وذكر محامده يكفر الغيبة ولا يحتاج إلى إعلامه واستسماحه .

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٦ ص ٢٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة إلا أنه جاء فى آخر الحديث « إلا غفر الله له » بدلا من « إلا كفر الله له »

وانظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤٩٤ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة

وانظر كنز العمال ج ٩ ص ١٤٢ حديث رقم ٢٥٤١٨ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٧ ص ٥٥٨ فقد ورد الحديث عن أنس موقوفا بلفظ « إن من كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول : « اللهم اغفر لنا وله » وهو ضعيف .

* مجادلة أهل الكتاب *

قوله تعالى : * وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

معانى المفردات

(ولا تجادلوا) المجادلة المناقشة (يجحد) الجحد إنكار الشىء بعد معرفته (لارتاب) لشك (المبطلون) غير المحقين فيما ذهبوا إليه .

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن بين الله - سبحانه وتعالى - أنه الواحد المعبود بحق وأن الذين اتخذوا من دونه أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وبعد أن بين لنا أنه يضرب الأمثال للناس وبعد أن أدبنا ووجهنا إلى الخلق القويم فأمرنا بإيقام الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر . بعد ذلك علمنا أدب المجادلة مع أهل الكتاب وفى هذه الآيات شروع فى إرشاد أهل الكتاب ومعالجتهم ودعوتهم إلى الدين الحق دين الفطرة السليمة ، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى أتباع موسى وعيسى - عليهما السلام - ، وهم قوم يقولون بوجود الله واليوم الآخر والتصديق ببعض الكتب والأنبياء . هذه عقائدهم الأساسية ، وإن حاولوا طمسها فى بعض الأحيان والأحوال .

وهذه الآية تدعونا إلى البحث فى واجب المسلمين نحو دعوتهم ونشر دينهم ، وماذا يكون موقفهم أمام معارضيهم وأعدائهم .

والخلاصة : أن علينا نشر الدعوة لأنها دعوة عامة شاملة صالحة لكل زمان ومكان ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾[1] .

ومن ندعوه إن قبل الإسلام فقد كفى الله المؤمنين القتال ، ومن حاربنا ووقف فى طريقنا وكم

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٩